يطيب لنا أن نقدم للأمة الإسلامية
الجزء الثالث من موسوعة :

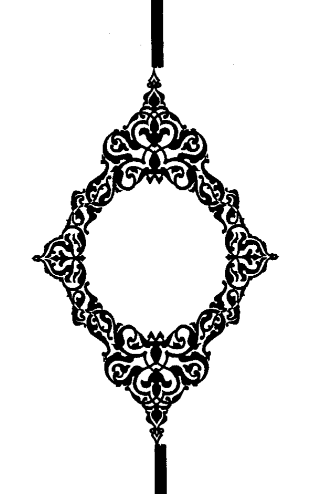


أنزل الله فيهم قرآنا

الدكتور عبد الرحمن عميرة

دار الحرم للتراث

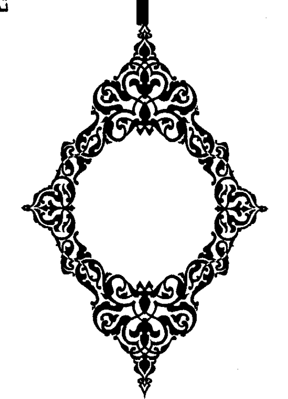
45 سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
ت : 5916021



رجال ونساء

أنزل الله فيهم قرآناً

اســــم الكتاب :رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا
اســــم المؤلف :د/عبدالرحمن عميرة
الناشـــــــر :دار الحرم للتراث
العنـــــــوان :٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
التليفـــــــون :٥٩١٦٠٢١ - ٠١٠٥٦٢٤٥٨١ - ٠١٠١٥٣٢١٤٥
رقــــم المجلد :الثالث
رقــــم الإيداع :٢٠٠٥/١٨٠٠٥
الترقـــيم الدولي :٣-٢٦-٦٠٣٨-٩٧٧
تجهيزات الكمبيوتر : H 4 للكمبيوتر ٠١٠٦٦٧٤٣٣٥
تصميـــم الغـــلاف :ياسر فوده ٠١٢١٦٨٤٥٠٦



الطبعـــة الأولى
ينـــاير / ٢٠٠٦

مقدمة

قلنا فى مقدمة الجزء الأول من الموسوعة: إن التاريخ يحدثنا أن العربى كان شديد الاحترام للمرأة، كثير الحدب عليها، ويعطف عليها ويحرص على صيانتها.

وكان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبة بذكر زوجاتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم، وكانوا يطلبون منهن أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم غمرات الحرب فى سبيل مجدهم ومفاخرتهم.

يفعل الفرسان ذلك لأن المرأة من يوم أن أوجدها الله تعالى وهى الأم الحنون لأبنائها، والزوجة الودود لزوجها. والأخت العطوفة لإخوتها.

ويشهد التاريخ أن دورها عبر قنواته كان هو الدور المشارك فى تبعات الحياة حلوها ومرها وما يمكن للحياة أن تمتد بدون النساء الحاملات للأجنة الحاضنات للطفولة، الصانعات للبطولة، نقول ذلك لأن المرأة كانت تدخل حلبة القتال جنباً إلى جنب مع فرسان قومها وتشارك برمحها وسيفها فى قتال الأعداء وتشتيت جموعهم. ولقد سجل التاريخ على صفحته الكثير من البطولات لنساء مقاتلات.

من ذلك ماحدث فى إحدى المعارك الطاحنة التى دارت بين المسلمين وجموع الروم على أرض الشام حيث كان قائد معركة اليرموك خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقب فارساً طويلاً ملثماً لا يظهر منه إلا الحدق، وتلوح عليه شمائل الفروسية وهو يرتدى ثياباً سوداء، وقد حزم وسطه بعمامة خضراء سحبها على صدره وتركها من خلفه، وكان يتقدم صفوف الرجال وكأنه النار التى تتخلل العشب اليابس فتقضى عليه.

فقال خالد: من هذا الفارس...؟ وايم الله إنه لفارس شجاع.

وظل يرقب هجماته على عساكر الروم كالنار المحرقة فيزعزع كتائبهم، ويحطم مواكبهم، حتى خرج من بين صفوفهم وسنانه يقطر دماً بعد أن قتل رجالاً وجندل أبطالاً، واخترق الموت غير خائف ولا وجل.

فقال رافع بن عميرة رضي الله عنه: ليس هذا الفارس إلا خالد بن الوليد.

ولكن خالد بن الوليد ظهر بعد قليل أمام رافع، فتعجب رافع، واقترب من خالد وقال:

إذن من الفارس الذى يتقدم مواكب الجند ويبذل نفسه ومهجته.؟

فقال خالد: والله إنى أشد إنكاراً منكم له، ولقد أعجبنى ماظهر منه ومن شمائله.

فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس فى عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً.

فقال خالد: يامعشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا هذا المدافع عن دين الله.

وعلى الفور اندفع المسلمون وعلى رأسهم خالد كتلة واحدة واقتربوا من الفارس فوجدوه لايزال شعلة من النار والخيل فى أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل فرسانهم، فحمل خالد ومن معه حتى انجلت المعركة عن نصر المسلمين.

وحين عاد الفارس المخضب بالدماء إلى صفوف المسلمين صاح خالد بن الوليد قائلا:

لله درك من فارس بذل مهجته فى سبيل الله، وأظهر شجاعته على الأعداء اكشف لنا عن لثامك.

لكن الفارس ظل صامتاً، ولوى عنان فرسه ولم يرد على خالد بن الوليد فصاح رجل من القوم:

أيها الرجل الكريم أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيماً.

لكن الفارس لم يرد عليهم بكلمة واحدة، بل همز فرسه وابتعد عنهم.

وهنا اندفع خالد وراءه وصاح به:

«ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبى بفعلك من أنت..؟»

وحين شعر الفارس بإلحاح خالد عليه، خاطبه بلسان التأنيث من تحت اللثام قائلا:

«إننى يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك، لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور».

فقال لها من أنت...؟

قالت: أنا خولة بنت الأزور، وإنى كنت مع بنات العرب حتى أتانى الساعى وأخبرنى أن ضرار أخى قد وقع أسيراً فى قبضة الأعداء، فركبت إليكم وفعلت ما فعلت.

فتعجب خالد من قولها وفعلها وأكبر شجاعتها وإخلاصها لأخيها.

ولم تهدأ خولة حتى أرسل خالد كوكبة من الفرسان ترافقهم خوله، وتم فك أسر أخيها ضرار بن الأزور. بعد معركة ضارية مع الأعداء.

وفى وقعة «صحورا» فى بلاد الشام وقعت خولة أسيرة فى قبضة الأعداء مع بعض النسوة. ولكنها وهى فى معسكر الأعداء جمعت هؤلاء النسوة المأسورات وقامت فيهن خطيبة وهى تقول:

يابنات حمير، وبقية تبع أترضين لأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيدًا لأهل الروم، فأين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر، وإنى أراكن بمعزل عن ذلك، وإنى أرى القتل النازل أهون عليكن من هذا الهوان، ومانزل بكن من خدمة هؤلاء العلوج؟؟

فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية: صدقت والله يابنت الأزور ونحن فى الشجاعة كما ذكرت، وفى البراعة كما وصفت، غير أن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت، ولقد دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح؟؟

فقالت خولة: يابنات الإسلام خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب.

فقالت عفراء: والله مادعوت إلا ماهو أحب إلينا مما ذكرت.

ثم تناولت كل واحدة عمودًا من أعمدة الخيام، وصاحت صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عموداً ومن ورائها عفراء وبقية النساء وقالت لهن خولة: «لا ينفك بعضكن عن بعض، وكنَّ كالحلقة الدائرة ولا تفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت، وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. وهجمت خولة وهجمت النساء من ورائها وقاتلن قتالاً شديداً حتى تمكن من الخروج وفك الأسر. ولقد أنشدت النساء بعد وقعة الصحورا:

نحن بنات تبع وحمير — وحربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعَّر — اليوم تسقون العذاب الأكبر

وإذا كنا نذكر بكل الفخر ما فعلته النساء المسلمات فى ساحة الوغى فلا ننسى بعض النسوة اللاتى سارعن إلى الإسلام، وتحملن ألم التنكيل والتعذيب حتى فارق البعض الحياة منهن أسماء أم عمار بن ياسر وأهل بيتها ولقد مرَّ عليهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال: «صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة» ومنهن نسيبة بنت كعب الأنصارية (أم عمارة) التى قاتلت فى غزوة أحد ودافعت عن رسول الله ﷺ وظلت تتلقى عن النبى الضربات وتستقبل الطعنات بصدرها وكتفها دون أن تفارق مكانها، وقد قال الرسول ﷺ : «ما

التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى».

ومنهن فاطمة بنت الخطاب التى دخل عليها أخوها عمر بن الخطاب فقال لها ولزوجها ما هذه الهينمة التى سمعتها...؟

فقالا له: ما سمعت شيئاً، وكانت فاطمة قد أخفت صحيفة من القرآن تحت فخذها.

فقال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تبعتما محمداً فى دينه، ثم هجم على صهره سعيد ليبطش به، وحين هرعت فاطمة لتبعده عن زوجها، ضربها ضربة قوية فشج رأسها وسال الدم على وجهها. وهنا قالت له أخته:

نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، وحين رأى عمر أخته بهذا الوضع والدم يسيل على وجهها ندم على ما صنع وأحس بتسرعه وتهوره ثم تناول الصحيفة بعد أن تطهر فقرأ قول الله تعالى:

﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (١)

فأسلم وحسن إسلامه.

ونحن فى هذا الجـزء من الكتـاب: نقـدم المرأة التى ترفض الذهب والفضة مهراً لها ليكون مهرها الإسلام.

والمرأة: التى تولت الملك والحكم، ولكن زهدت فيه وعادت إلى طبيعتها لتكون أما ترعى الطفولة وتصنع الرجولة، وتشارك فى الدعوة إلى دين الله.

والمرأة: التى استقر الإسلام فى قلبها فتركت الزوج والولد، وفارقت الأهل والأحباب وهاجرت بدينها إلى ربها، وفرت إلى مولاها مقتدية بذلك بالصفوة المختارة من الأنبياء والرسل عند قولتهم: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (٢).

إننا فى هذا الكتاب نقدم المرأة كما أبان عن خلقتها ربنا بقوله تعالى:

(١) سورة طه الآيات من ١ ـ ٥. (٢) سورة العنكبوت آية رقم: ٢٦.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (١)

والمرأة التى هى آية من آيات الله فى قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢)

وبذلك ندرك حكمة الخالق جل وعلا فى خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ويجدان فى اجتماعهما السكن والاكتفاء والمودة والرحمة.

والمرأة التى هى لباس وستر، ووقاية وحفظ ومستودع من الحنان والحب قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (٣) .

واللباس ساتر وواق، وكذلك هذه الصلة بين الزوجين تستر كلاً منهما وتقيه والمرأة التى أرشدنا الله إليها بقوله:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (٤) .

إن نظام الأسرة فى الإسلام هو النظام الطبيعى الذى يتولى حماية الطفولة وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها فى بيت يحاط بسياج من الألفة والمحبة وتبنى قواعده من شرع الإسلام ومبادئه.

إن وظيفة الإنسان هى أكبر وظيفة لأنه خليفة الله فى أرضه.

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٥)

ودوره فى الأرض أضخم دور، لأنه يقوم على تنفيذ شرع الله، وإخلاص

(١) سورة النساء آية رقم: ١

(٢) سورة الروم آية رقم: ٢١.

(٣) سورة البقرة آية رقم: ١٨٧.

(٤) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.

(٥) سورة البقرة آية رقم: ٣٠.

العبودية له، وتفرده بالعبادة والوحدانية.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١).

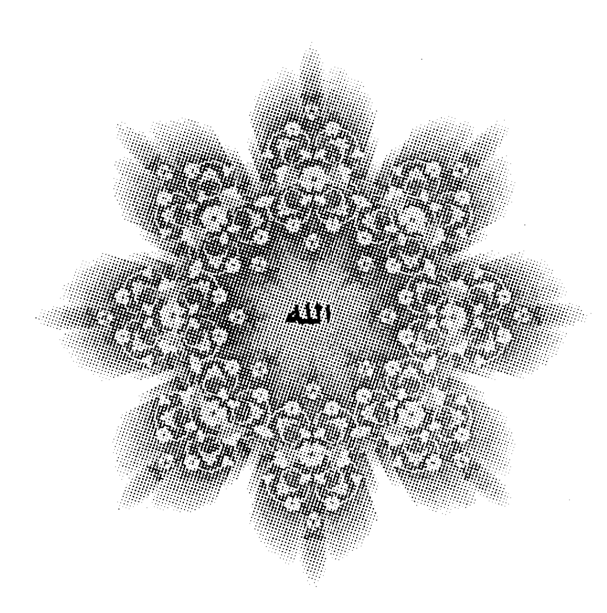
من هنا امتدت طفولته فترة أطول ليحسن إعداده وتدريبه لتلك المهمة المتفردة ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أى طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنسانى، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره فى هذه الحياة.

وأخيراً إن الآيات التى نزلت فى هؤلاء النسوة المؤمنات تتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة والحضانة. ولكن هذه الأحكام لم نذكرها مجردة كما اعتاد الناس أن يجدوها فى كتب الفقه ومصطلحات المشرعين. ولكنها ذكرت فى جو يشعر القلب البشرى أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلهى للحياة البشرية بعامة، ودور المرأة فى تكوين الأسرة، وامتداد نسل الخليقة ودورها المعطاء فى ذلك كله بصفة خاصة.

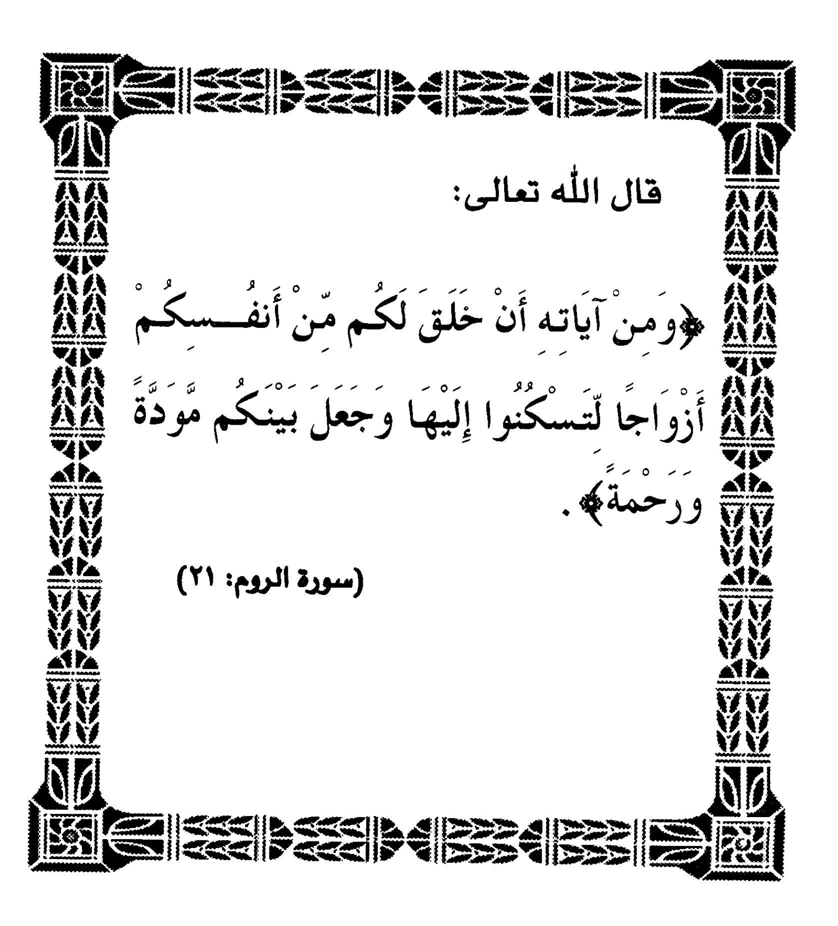
ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

ا.د. عبد الرحمن عميره

(١) سورة الأنبياء آية رقم: ٢٢.


الله

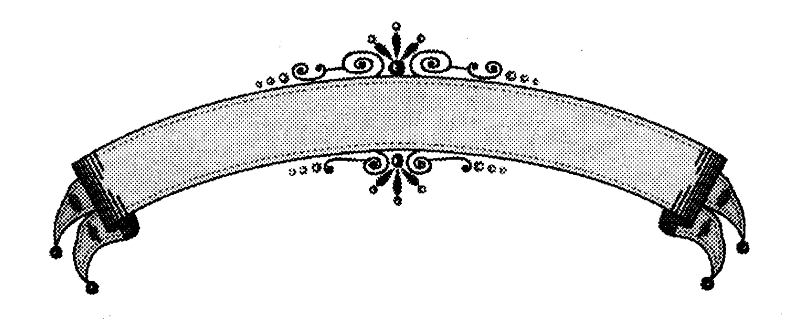
بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

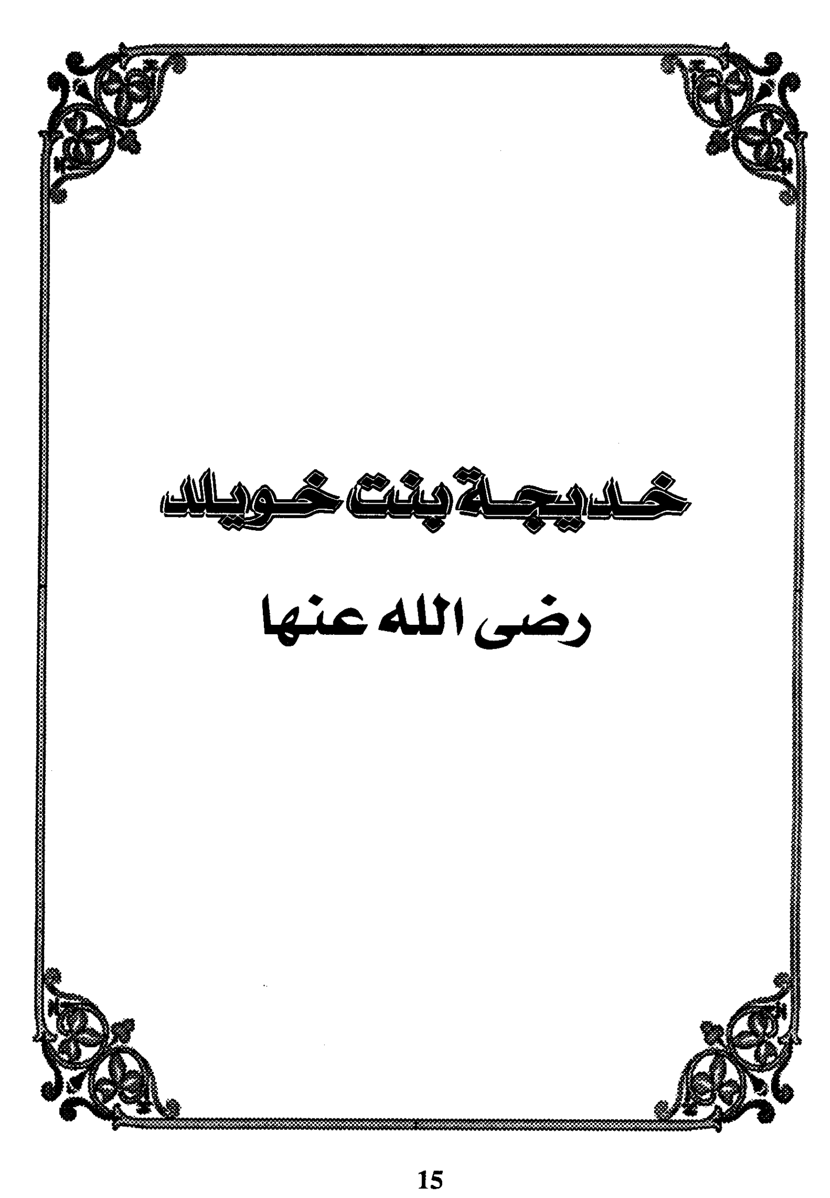
(سورة الروم: ٢١)



قال الرسول- ﷺ:

«النساء شقائق الرجال».

سنن الترمذى ١١٣- ١٢٧



خديجة بنت خويلد

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَالسَّـابِقُـونَ السَّـابِقُـونَ (١٠) أُوْلَئِكَ
الْمُقَـرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّاتِ النَّعِـيمِ (١٢) ثُلَّةٌ
مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ .

(الواقعة: ١٠- ١٤)

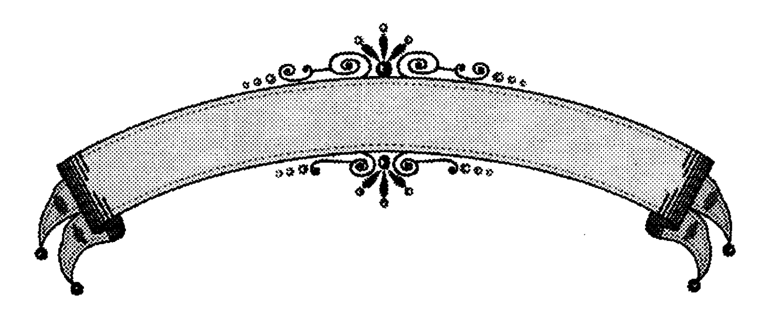
أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال ابن الجوزى: إنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة جـ٨ ص ١٣٣ وخديجة ﵂ من أول المؤمنات.

وقال الحسن: الذين صلوا إلى القبلتين وخديجة بنت خويلد منهم.

وقال القرطبى: السابقون إلى الإيمان من كل أمة وخديجة من السابقات إلى الإيمان والتصديق بمحمد- ﷺ - جـ ٩ ص١٩٩.

فمن هى خديجة بنت خويلد- ﵂ ..؟



يقول الرسول ﷺ:

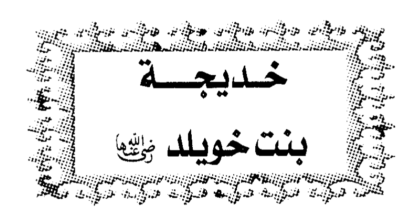
«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لاصخب فيه ولانصب. وقال عليه السلام:

«ياخديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك»

هذا الحديث رواه مسلم متصلاً

عن هشام بن عروة عن أبيه


خديجة بنت خويلد
رضى الله عنها



حياتها ونشأتها

أم المؤمنين صاحبة الصفاء والنقاء والطهر.

كانت أول من نطق بشهادة التوحيد بعد الرسول- ﷺ - وكفرت بعبادة الأصنام والأوثان.

نشأت فى رحاب مكة وبيت الله الحرام والتقطت أذناها من أبيها خويلد ابن أسد وأمها فاطمة بنت زائدة.. أسس الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة وعرفت مع لداتها مرح الطفولة وهن يتسمعن إلى شقشقة العصافير عندما يظهر على الوجود ضوء الفجر الوليد..

وكثيراً ما كان يصحبها والدها إلى بيت الله الحرام. فتشاهد الأصنام المرفوعة والأوثان الموضوعة- وجماعات الناس وهم يقدمون لها القرابين وهى لا تفصح ولا تبين.

خديجة بنت خويلد وفيل أبرهة

تقول خديجة رضي الله عنها أيقظنى والدى أنا وإخوتى مبكرين وأخذ يهرول بنا مع المهرولين خارج مكة- لنقيم فى الشعاب بعيداً عن غضب الفيل وزمجرته- والذى جاء به أبرهة ملك الحبشة لهدم بيت الله الحرام. وعرفت فيما بعد أن أبرهة طلب سيد قريش عبد المطلب بن هاشم ليقول له: إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا بحرب فلا حاجة لنا بدمائكم.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم- فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ثم قال لترجمانه.

قل له ما حاجتك..؟

فقال له ذلك الترجمان.

فقال عبد المطلب: حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير لى استولى عليها جنده.

فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتنى حين كلمتنى.!؟

أتكلمنى فى مئتى بعير. وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه..؟

قال عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه.

قال: ما كان يمتنع منى..

قال عبد المطلب: أنت وذاك..؟

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والاحتماء فى رؤوس الجبال والمواقع الخلفية منها. تخوفاً عليهم من هجوم جيش أبرهة.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال عبد المطلب وهو ماسك بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدواً محالك

ثم لحق بقومه الذين خرجوا من مكة وتركوا ديارهم وما حوت فى رعاية

ربهم ولما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه. وكان اسم الفيل محموداً وأبرهة مجمع على هدم البيت.

فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب وأخذ بأذن الفيل فقال ابرك يا محمود أو ارجع راشداً من حيث أتيت.

يا محمود إنك فى بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل.

ثم ماذا..؟ ضربوا الفيل ليقوم فأبى.

واستعملوا معه كل أنواع التعذيب فتحملها صابراً وأبى.

فوجهوه إلى الشام فاشتد عوده إليها. ووجهوه إلى المشرق فاشتد عوده إليها.

ثم وجهوه إلى مكة مرة ثانية فبرك. ثم ماذا..؟

فكروا فى العودة إلى اليمن ولكن رب الحرم لم يتركهم حتى يعودوا سالمين. فأرسل عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والزرازير مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجراً فى منقاره وحجرين فى رجليه، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك.

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خير وكفى الله حرمه شرهم.

خديجة- رضى الله عنها-
وتعرفها بمحمد - ﷺ -

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امراة تاجرة ذات شرف ومال وكانت تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم. تفعل خديجة ذلك لأن قريشاً كانت مشهورة بتجارتها.

وفى يوم من الأيام بلغها عن محمد بن عبد الله الأمين الصادق ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه.

عندها بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار.

ويرافقه فى رحلته هذه غلام لها يقال له ميسرة.

فقبل الرسول ﷺ هذا العرض، ثم خرج فى مالها ومعه ميسرة حيت قدما الشام.

عندها نزل رسول الله ﷺ من على ناقته وجلس تحت شجرة وكانت الشجرة قريبة من صومعة راهب من أهل الكتاب.

فاطلع الراهب من نافذة صومعته وقال لميسرة.

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟

قال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى..

ثم باع رسول الله ﷺ تجارته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى. ثم أقبل راجعاً إلى مكة ومعه ميسرة.

فكان ميسرة يقول: إذا كانت الهاجرة واشتد الحر- يرى ملكين يظلان رسول الله ﷺ من الشمس وهو يسير على بعيره.

فلما قدم محمد على خديجة بمالها: باعت ما جاء به من أرض الشام بضعف ما كان يشترى به. ثم ماذا ..؟

حدثها ميسرة عن قول الراهب. وعما كان يرى من إظلال الملكين له عند سيره.

وكانت خديجة رضي الله عنها امرأة حازمة شريفة راجحة العقل والفكر فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ.

رغبة خديجة فى الزواج من محمد ﷺ

جاء الرسول ﷺ إلى خديجة. فلما جلس أمامها قالت له: «يا بن عم: إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسمعتك الطيبة بين قومك وأمانتك وحسن خلقك. وصدق حديثك.

ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة فى ذلك الوقت من أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً.

وأكثرهن مالاً وعزاً. وهى خديجة بنت خويلد بن أسد. وأمها فاطمة بنت زائدة. من كرام الأسر فى قريش وما جاورها من البلاد والعشائر.

ثم انصرف رسول الله ﷺ بعد أن وعدها خيراً ثم عرض هذا الزواج على أعمامه. فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فارس الفرسان وأكرم الرجال وأشجع الشجعان ثم دخلا على خويلد بن أسد وخطبا منه خديجة فوافق على الزواج.

ثم أصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة من الإبل. وكانت خديجة أول من تزوجها محمد ﷺ وغنًى الوجود كله لخديجة. وأصبحت زوجة للرجل الذى عما قريب ستتسمع به الكرة الأرضية كلها عندما يأتيه الوحى من ربه

ويقف على الصفا والمروة ويقول لآل قريش إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة.

وقد ولدت خديجة من زوجها محمد ﷺ: القاسم، ثم الطيب ثم الطاهر هذا من البنين. أما البنات فكانت أكبرهن رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة- رضوان الله عليهم أجمعين.

ولقد أدركت بناته كلهن الإسلام فأسلمن. وهاجرن معه ﷺ إلى يثرب مدينة الرسول ﷺ.

حديث خديجة مع ورقة بن نوفل

قال ابن إسحاق:

وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد، وكان ابن عمها. وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس- ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب.

فقال ورقة:

لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة.

وقد سبق أن عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر. وهذا زمانه. الذى أخبر به الأنبياء من قبله.

حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله ﷺ بين قريش فى وضع الحجر

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة- اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو فتناول حجراً، فوثب الحجر من يده حتى رجع إلى موضعه.

فقال: يا معشر قريش: لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغى.

ولا بيع ربا.

ولا مظلمة أحد من الناس.

ثم إن الناس هابوا هدمها وخافوا منه.

فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع. اللهم إنا لا نريد إلا الخير.

فتربص الناس تلك الليلة. وقالوا: ننظر فإن أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً. ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله صنعنا فنهدمها.

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام الذى وضعه وقد وجدت قريش فى الركن كتاباً بالسريانية فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر. وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول جبالها، ثم إن قريشاً أخذت فى البناء حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى- حتى انحازت كل قبيلة إلى جهة وتحالفوا وأعدوا أنفسهم للقتال.

ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصحوا، وتناصفوا ثم قام

أبو أمية بن المغيرة وقال: يا معشر قريش:

«اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ.

فلما رأوه قالوا:

«هذا الأمين: رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر. قال ﷺ: هلم إلىَّ ثوباً.

فأُتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال:

لتأخذ كل قبيلة بناحية الثوب. ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه الرسول بيده ثم بنى عليه.

وهكذا استطاع محمد الأمين- أن يوقف القتال بين القبائل فى مكة وأن يرضى الجميع بحسن التفكير والإلهام من الله ولهذا كان قوله: ﴿اتقوا الله ويعلمكم الله﴾. يعلمكم الحكمة والتدبير.

يعلمكم حسن التعامل مع الآخرين لتكونوا يداً واحدة وصدق ربى فى قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(1).

تذهب قوتكم ويذهب عزكم وتكونوا أذلاء ضعفاء أمام عبدة الشيطان فمتى يعى المسلمون هذا الدرس..؟

متى يكونون يداً واحدة ضد الباطل وجنوده.

متى يقفون صفّاً قويّاً ضد الفساد والإفساد التى تحاول أن تنال من مقدساتنا؟

(1) سورة الأنفال آية رقم: ٤٦.

مبعث النبى ﷺ

لما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين بشيراً ونذيراً.

وكان الله تعالى قد أخذ الميثاق على كل نبى بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له، والنصر له على من خالفه يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن أول ما بدئ به الرسول ﷺ الرؤيا الصادقة.

لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح.

قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وكان ﷺ إذا خرج لحاجته أبعد حتى تبعد عنه المنازل ويفضى إلى الأماكن الخفية من الجبال المحيطة بمكة.

وكان لا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله.

قال: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله كذلك يرى ويسمع ما شاء أن يمكث.

ثم جاءه جبريل الأمين ﷺ بما جاءه من كرامة الله وهو بغار حراء فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم: ٨١.

الرسول - ﷺ - وجبريل عليه السلام

قال رسول الله ﷺ جاءنى جبريل وأنا نائم بوعاء من ديباج فيه كتاب. فقال: اقرأ.

قلت: ما أقرأ..؟

قال: فضمنى إليه حتى ظننت أنه الموت..؟؟

ثم أرسلنى. وقال: اقرأ..

قال: قلت.. ماذا أقرأ...؟

قال: فضمنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى.

وقال: اقرأ.

قال: فقلت: ماذا أقرأ.

فقال عليه السلام: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

قال: فقرأتها. فانصرف عنى وهببت من نومى. فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً.

قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر: فإذا جبريل رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول:

«يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء.

(١) سورة العلق الآيات من ١ - ٥.

قال: فما أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك. فمازلت واقفاً ما أتقدم ولا أتأخر حتى بعثت خديجة رسولها فى طلبى. فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك. ثم انصرف عنى.

رسول الله- ﷺ - يقص على خديجة ما كان من أمر جبريل

يقول الرسول ﷺ ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست على فخذها ملتصقاً بها.

فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت..؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة. ورجعوا إلىَّ.

قال: ثم حدثتها بالذى رأيت. فقالت:

«أبشر يا بن عم وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

خديجة بين يدى ورقة تحدث عن رسول الله ﷺ

ثم قامت خديجة فجمعت ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ:

كأنه رأى وسمع.

فقال ورقة بن نوفل: قدوس. قدوس. والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة: لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة.

ثم استأنف حديثه قائلاً: فقولى له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل فلما قضى رسول الله جواره وانصرف.. صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال:

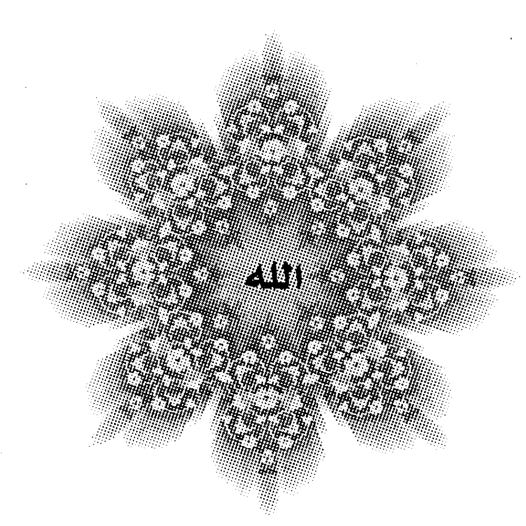
يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت..؟

فأخبره رسول الله ﷺ.

فقال له ورقة: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى عليه السلام:

ثم قال: ولتكذّبن. ولتؤذينَّ، ولتخرجنَّ ولتقاتلنَّ. ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه.

ثم ماذا؟ أدنى ورقة رأس الرسول ﷺ فقبلها- ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.



امتحان خديجة برهان الوحى

قالت خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك..؟

قال ﷺ: نعم.

قالت خديجة: فإذا جاءك فأخبرنى به.

فجاءه جبريل فقال عليه السلام: يا خديجة: هذا جبريل..؟

قالت خديجة: قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى.

قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها.

قالت خديجة: هل تراه..؟

قال: نعم.

قالت: فتحول فاجلس على فخذى اليمنى.

فتحول رسول الله ﷺ وجلس على فخذها اليمنى.

فقالت: هل تراه.

قال عليه السلام: نعم.

قالت: فتحول فاجلس فى حجرى.

قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها.

قالت: هل تراه..؟

قال: نعم.

قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها.

قالت: هل تراه..؟

قال عليه السلام: لا.

قالت: يا بن عم اثبت اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وليس بشيطان.

ابتداء تنزيل القرآن على الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: فابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل فى شهر رمضان الذى قال الله تعالى فيه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾(٣).

إسلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

آمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله. ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ. لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له. فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٥.

(٢) سورة القدر كاملة.

(٣) سورة الدخان الآيات من ١- ٥.

تبشير خديجة ببيت من قصب

قال ابن إسحاق: بسنده عن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب(١) لا صخب فيه ولا نصب»(٢).

قال ابن هشام: وحدثنى من أثق به أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال: «أقرئ خديجة السلام من ربها».

فقال رسول الله ﷺ- يا خديجة: هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.

فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام وعلى جبريل السلام.

قال ابن إسحاق: ثم فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فترة حتى شق ذلك عليه فأحزنه. فجاءه جبريل عليه السلام بسورة الضحى يقسم له ربه، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به» ما ودعه وما قلاه فقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٣)

وما أبغضك منذ أحبك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾(٤).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(٥)

من النصر فى الدنيا والثواب فى الآخرة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾(٦).

يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره، ومنَّه عليه فى آجله

(١) القصب ههنا اللؤلؤ المجوف.

(٢) هذا الحديث رواه مسلم متصلاً عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة الضحى آية رقم ١- ٣.

(٤) سورة الضحى آية رقم ٤.

(٥) سورة الضحى رقم ٥.

(٦) سورة الضحى آية رقم ٦- ٨.

وحفظه من الضلالة واستنقاذه من ذلك كله برحمته.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾(١).

أى لا تكون جباراً ولا متكبراً.

ولا فاحشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٢).

أى اذكرها وادع إليها، فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله.

وفاة خديجة - رضى الله عنها -

توفيت أم المؤمنين خديجة ﵂ قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بثلاث سنوات فى مكة ولها من العمر خمس وستون ولما حضرتها الوفاة. دخل عليها النبى ﷺ فقال: تكرهين ما أرى منك وقد جعل فى الكره خيراً».

وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وعند دفنها نزل رسول الله ﷺ فى حفرتها. وأدخلها القبر بيده الشريفة فى الحجون»(٤).

ووجد ﷺ لفقدها وتركت وفاتها فى نفسه أثراً عميقاً إذ كانت الزوجة الوفية التى يجد فيها سكن النفس وراحة الزوج.

كما كان لموت عمه أبى طالب قبلها أثر كبير فى نفسه أيضاً حتى أطلق النبى ﷺ على ذلك عام الحزن لشدة ما كان فيه من الشدائد فى سبيل الدعوة أيضاً.

(١) سورة الضحى آية رقم ٩- ١٠.
(٢) سورة الضحى آية رقم ١١.
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٦.
(٤) أحد جبال مكة المكرمة.

والنبى ﷺ لم يحزن على فراق عمه، وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد ولم يطلق على تلك السنة عام الحزن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهم من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية فى وجهه. فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة، وسبلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم، وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به ربه(١).

ولقد ترك موت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها فراغاً كبيراً فى حياة رسول الله ﷺ.

أحس به إحساساً قوياً حتى خشى عليه.

لقد غدا البيت بموتها خلاء موحشاً لا أنيس به ولا سمير. ولما قالت له خولة بنت حكيم يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟

قال عليه السلام: أجل كانت أم العيال وربة البيت.

ولقد صدق الشاعر المتنبى فى قوله:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال

لقد بقيت خديجة مع الرسول- ﷺ- زوجة صالح مؤمنة أربعا وعشرين سنة وأشهرا ثم توفيت.

يقول ابن كثير فى كتابه «الفصول» وللسيدة خديجة رضى الله عنها أوليات كثيرة لم تسبق إليها من ذلك:

أول من تزوج رسول الله ﷺ«خديجة» وأول من آمن به وصدقه خديجة.

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب.

وأول من صلى مع الرسول ﷺ الصلوات المفروضة.

وأول النساء التى رزق الرسول منها بالولد.

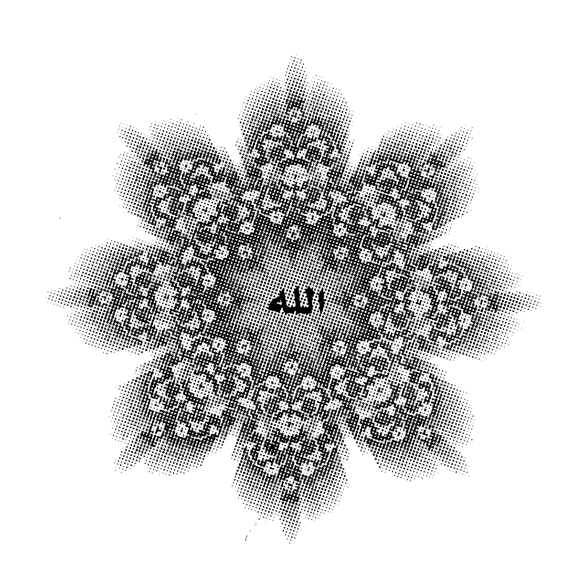
وأول من بشرها رسول الله ﷺ بالجنة.

وأول من أقرأها ربها السلام.

وأول صديقة من المؤمنات.

وأول زوجات النبى ﷺ وفاة.

رحم الله أم المؤمنين واسكنها فسيح جناته فى الفردوس الأعلى عند مليك مقتدر.




تذييل
المرأة هذا الجهاز العجيب

المرأة هذا الجهاز العجيب..؟؟

المرأة جهاز روحى عجيب، يلقى فى قلب الرجل أسرار القوة ومعانى الثقة بالنفس.

والمرأة إنسان كريم وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفيعة، وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة، وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات، أماً وزوجة وربة بيت.

فإن كانت أمّاً ففى طاعتها رضوان الله تعالى. وتحت أقدامها الجنة وإن كانت زوجة صالحة فهى أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله.

وهى الحسنة التى يطلبها المؤمن من ربه صباح مساء ويتمناها فى دنياه وآخرته كما قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(1).

وإن كلمة واحدة منها- لزوجها- وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران أو مكائد الرجال كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس، فإذا هو خلق جديد، وبناء غير الذى كان يوشك أن ينهار.

إن المرأة فى منهج الإسلام هى الستر والوقاية، هى الحفظ والرعاية تلتقى بزوجها فتكاشفه بسرها، ويفضى بين يديها بجملة حاله... تعرف ماضيه وحاضره، وتتطلع إلى مشاريعه ومستقبله، وتساهم معه فى معركة الحياة الضارية التى يخوضها بغية توفير الحياة الهادئة التى يريدانها معاً، حتى يوفقهما الله سبحانه وتعالى فى تربية الأولاد ويقيما دعائم عشهما الصغير على الود والمحبة.

إن الله سبحانه وتعالى عبر عن الحياة الزوجية باللباس قال تعالى: ﴿هُنَّ

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٠١.

لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١).

واللباس فى حقيقته لا يستغنى عنه الإنسان فى هذه الرحلة رحلة الحياة: فهو الذى يحول بينه وبين وقدة الصيف ولفحة الشمس، وهو الذى يدثره ويبعث الدفء فى أوصاله فى ليالى الشتاء. وهو فوق ذلك يستر تشوهات الجسم وعيوبه بالنسبة لكل منهما فلا تمجهما العيون أو تنفّر منهما الآخرين.

وهو بالنسبة للمرأة ستر ووقاية أيضاً يستر محاسنها ومفاتنها ويقى جسدها من عيون الرجال المتلصصة ومن فى قلوبهم مرض وإذا كان هذا بالنسبة للباس... فماذا بالنسبة للرجل والمرأة فى حياتهما الزوجية...؟

إن كلاً منهما ستر للآخر، ستر لأقواله وأفعاله، وحفظ لأسراره وما يخفيه. فالمرأة ستر للرجل ووقاية، عندما يوشك أن تغلبه الإرادة. والرجل ستر للمرأة وصيانة عندما تغلبها العاطفة ويسيطر عليها ضعف الأنثى.

والله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة للنساء فى وصفهن والقيام بواجبهن تجاه أزواجهن وأمام ربهن:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾(٢).

حافظة لزوجها فى حياته الخاصة والعامة. وحافظة على ماله وأولاده، وحافظة لأسراره وأقواله.

وحافظة لماء وجهه فلا تكلفه من المطالب المعيشية ما لا يقدر عليه. لأن هذا يؤذيه فى شعوره. وقد يضطر أن يبحث عن وسائل للكسب الحرام حتى يرضى زوجته.

وقد كانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله: اتق الله وإياك والكسب الحرام فإننا قد نصبر على الجوع والضر، ولكننا لا

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٧.

(٢) سورة النساء الآية رقم ٣٤.

نصبر على النار.

ومن جملة ما يحفظ ما يكون بينهما من علاقات خاصة فلا تكون حديثاً فى المجالس أو سمراً فى الندوات مع الأصدقاء والصديقات ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة، والمرأة تفضى إليه ثم ينشر سرها»[1]. وفى رواية لمسلم: «إن من أعظم الأمانة...» على حذف المضاف، أى أعظم خيانة للأمانة.

والحديث الآخر رواه أبو هريرة من قوله: صلى بنا رسول الله ﷺ، فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول فعلت بأهلى كذا..؟ فسكتوا.

فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدث..؟

فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها فقالت:

إى والله إنهم يتحدثون، وإنهن ليتحدثن.

فقال عليه السلام: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ مثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه»[2].

وبعد هذا الأدب النبوى الكريم لأمته، هل يجوز للمرأة التى عرفت القليل والكثير عن حياة زوجها أن تكشف سره..؟ وأن تتحدث للآخرين به، وأن توضح لهم ما يريد أن يخفيه عنهم أو يكتمه عن دنياهم..؟

الحقيقة أن بعض النساء يفعلن ذلك، وينشرن على الآخرين ما يجب أن يخفى، ونتيجة هذا الإفشاء، غالباً ما تكون وخيمة وقد يؤدى إلى الانفصال أو الطلاق.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧) وأبو داود (٤٨٧٠) وأحمد ٣/ ٦٩ من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» ٢/ ٥٤١، وأبو داود (٢١٧٤) فى النكاح.

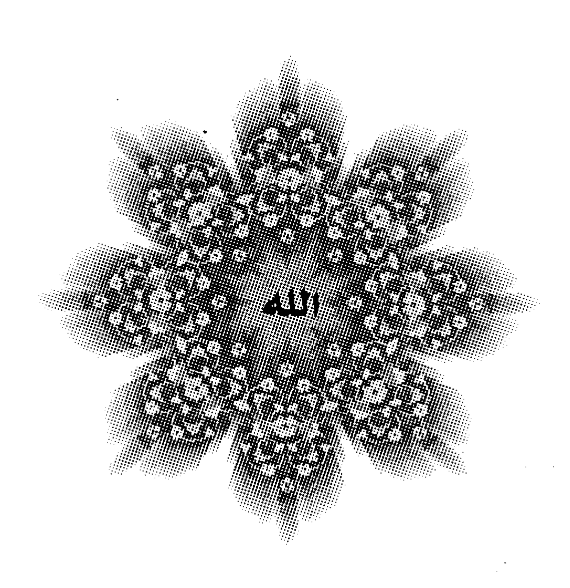
... وقد يكتم الرجل سرّاً يخفيه عن كل ما حوله. وتأتى المرأة فتكشف هذا السر، فيكون نتيجة ذلك القتل أو السجن أو مشاكل لا تقف عند حد.

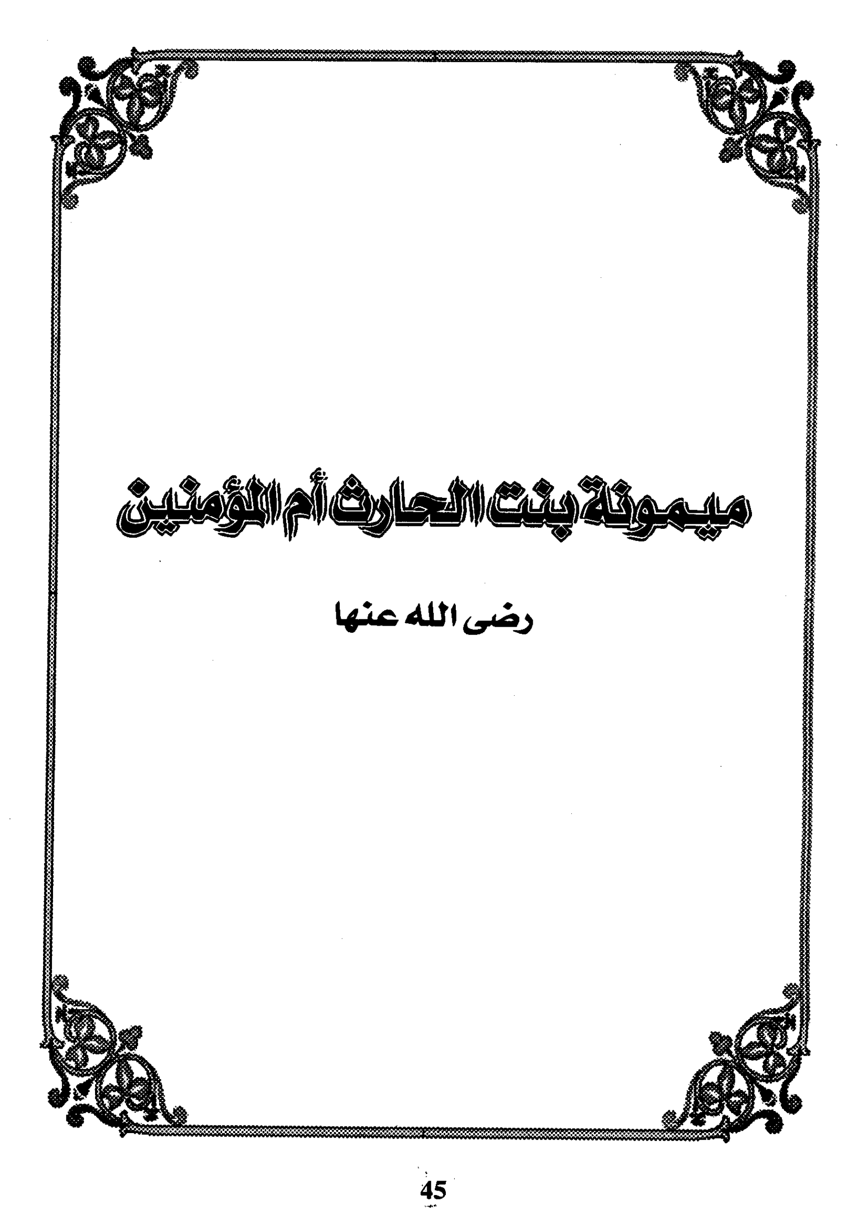
والدليل على ذلك سر رسول الله الذى ألقى به لأم المؤمنين حفصة فأفشته، فكان ما كان، من هجر زوجاته شهراً على ما يقال، والتفكير فى الانفصال عنهن جميعاً...

فالمرأة العاقلة هى التى تحافظ على أسرار زوجها.. ولا تعلنها للآخرين.. ولو كانوا أقرب المقربين إليها- حرصاً على سلامة الأسرة، وسعادة البيت وتربية الأطفال.

فهل تراهن فاعلات..؟

نرجو من الله ذلك.





ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(الأحزاب: ٥٠)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الأيات فى ميمونة بنت الحارث، وخولة بنت حكيم وأم شريك

قال ذلك الإمام الطبرى فى التفسير ج٢٢ ص٢٣

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير ج١٤ ص ٢٠٨ ط دار الكتب المصرية

وقاله ابن كثير فى التفسير ج٣ ص ٧٠٥

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ج٨ ص٤٠٥، ٤٠٦

وقاله ابن سعد فى طبقاته ج٨ ص ١٣٢

فمن هى ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها..؟



حياتها ونشأتها

والدها الحارث بن حزن، من قبيلة هوازن أصحاب معركة حنين التى نزل فيها قول الله تعالى مخاطباً جماعة المسلمين:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[1].

وأمها هند بنت عوف من كريمات الأسر من قريش، ويتحدث التاريخ عن زفافها للحارث بأنه كان يوماً مشهوداً بين القبائل نحرت فيه كرائم الإبل وتتسابق إليه علية القوم وشهدت ساحته فرسان القبيلتين. على صهوات خيولهم بسواعدهم المفتولة،

وسيوفهم المرهفة.

وبراعتهم فى اقتناص الطيور الجارحة.

واصطياد الحيوانات الشاردة.

ثم عاش العروسان عيشة سعيدة، وحياة هنيئة رغيدة، ورزقهما الله بالعديد من البنات الصبوحات الوجه المعتدلات القد.

ومن هؤلاء البنات أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة التوبة آية: ٢٥.

ووالد حبر الأمة عبد الله بن عباس الذى دعى له الرسول بقوله: «اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل»(١).

ولبابة الصغرى: زوج الوليد بن المغيرة المخزومى الذى نزل فيه قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾(٢).

ومن أولاده: خالد بن الوليد سيف الله المسلول، والقائد الذى لم يهزم قط. والذى قال عنه رسول الله ﷺ:

«خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين».

وعصماء بنت الحارث كانت تحت أبى بن خلف الجمحى الذى كان يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول:

يا محمد إن عندى فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»(٣).

فلما كانت غزوة أحد والرسول ﷺ جالساً فى الشعْب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمَّة ثم استقبله فطعنه طعنة مال منها عن فرسه مراراً.

فلما رجع إلى قريش احتقن الدم من هذه الطعنة فقال: قتلنى والله محمد.

قالوا له: ما بك من بأس. قال: «إنه كان قال لى بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى. فمات عدو الله بمكان يقال له سرف بالقرب من بيت الله الحرام»(٤).

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ١٣٨ وأحمد بن حنبل فى المسند ١: ٣٦٦.

(٢) سورة المدثر الآيات: ١١- ١٦.

(٣) راجع سيرة ابن هشام عند الحديث عن غزوة أحد.

(٤) المصدر السابق.

وعزة بنت الحارث التى تزوجت زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى. يصمت التاريخ فلا يذكرهما من قريب أو بعيد.

هؤلاء النسوة هن أخوات شقيقات لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث وأمهن هند بنت عوف.

أما أخواتها لأمها فمنهن: أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب- رضي الله عنه - والتى هاجرت مع زوجها جعفر بن أبى طالب، ثم هاجرت إلى المدينة فلما قتل جعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلما مات تزوجها على بن أبى طالب كرم الله وجهه(١).

ولقد كانت أم المؤمنين تسمى بَرَّةَ فسماها رسول الله ﷺ ميمونة.

ويحدثنا التاريخ عنها حديثاً عجيباً لقد نشأت على بطاح مكة، وترعرعت على ثراها الطيب، وهى واحدة من عشر أخوات نشأن بين أحضان أم أحسنت تربيتهن وقامت بتدريبهن على حسن معاملة الزوج، وإجابة مطالبه، وتجميل الحياة فى عينيه.

وأب عرف بالشفقة والحدب عليهن.

ولقد تزوجت ميمونة قبل الرسول ﷺ حويطب بن عبد العزى.

ولكننا نقف حيارى أمام حويطب هذا. لأن المصادر التى بين أيدينا لا تسرف فى ذكره ولا تقدم لنا ما يجلى حياته وسيرته. فهل كان فارساً من فرسان قريش؟

هل عرفته ساحات الحرب وحلبات الصراع؟ هل كان تاجراً من تجار قريش يقطع دائماً إلى أرض الشام رحلة الشتاء والصيف التى حدثنا عنها كتاب الله تعالى بقوله:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣

(١) راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٤: ١٩١٦.

الَّذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(١)

أم أنه كان راعياً للإبل والغنم وسايساً للخيل، ومدرباً لها يسرح فى الصحراء الممتدة، وتراه دائماً عند تجمع العشب، ووجود المياه فى الغدران؟ لا ندرى عن ذلك شيئاً.

وكيف كانت حياة ميمونة معه.. هل كانت سعيدة؟

هل أنجبت له البنين والبنات؟ وهل انفصل عنها إلى غيرها؟

أم ترى جاءه أجله، وفارقت روحه جسده، وغيب تحت الثرى؟

إن ذاكرة التاريخ لا تعى من ذلك شيئاً؟؟ ولكن هذه الذاكرة التى تجاهلت الكثير من حياة ميمونة، تعود إليها لتسجل نبضات قلبها وهى تستمع لأخبار الرسول ﷺ وهو يأمر بإخراج يهود بنى النضير من جزيرة العرب.

والتى نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(٢).

وأخذت ميمونة تسترجع هذه الأحداث أحداث هزيمة بنى النضير وإجلائهم.

وهم أصحاب الحصون العالية، والقوة الضاربة.

والأدعياء الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه.

كيف تغلبت عليهم هذه القوة المحدودة من أتباع محمد؟

وماذا فعل محمد لهؤلاء الرجال حتى أصبحوا القوة الضاربة التى لا تقهر؟

(١) سورة قريش كلها.

(٢) سورة الحشر الآية: ٢.

والفئة المؤمنة فوق سطح الكرة الأرضية التى لا يمكن أن ينال منها.؟

واسترجعت ميمونة أن هؤلاء الرجال هم الفئة الغالبة: لأن النصر من عند الله ولقد وعدهم ربهم لذلك بقوله:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١)

ولقد أنجز الله لهم وعده فتمكنوا من قهر بنى النضير، وإخراجهم جميعاً من جزيرة العرب.

وما كادت ميمونة تنفض يدها من هذه التأملات- حتى سمعت طرقاً شديداً على الباب، وسارعت لفتحه فرأت أمامها أختها من أمها أسماء بنت عميس تزف لها بشرى جديدة لانتصار المسلمين فى معركة خيبر ضد فئة أخرى باغية من هؤلاء اليهود. وتابعت حديثها أسماء فقالت لميمونة- بعد أن تم النصر وفتحت حصون خيبر أبوابها أمام القوة الضاربة للمسلمين تقدمت امرأة سلام بن مشكم بشاة مصلية مسمومة لرسول الله ﷺ فلما وضعتها بين يديه تناول الزراع فلاك منها مضغة فلم يسغها- ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ الرسول ﷺ أما بشر فاستساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال: «إن العظم يخبرنى أنه مسموم»

ثم دعاها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟»

قالت: قد بلغت من قومى ما لم يخف عليك. فقلت: «إن كان كذاباً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر»..

قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ وفرحت ميمونة بنجاة الرسول ﷺ وتذكرت قول الله تعالى فى هؤلاء اليهود:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة محمد الآية: ٧. (٢) سورة المائدة الآيتان: ٧٨، ٧٩.

ثم قالت ميمونة لأسماء: ثم ماذا يا أسماء؟

قالت أسماء: وقبل أن يتحرك جيش المسلمين لحصار خيبر. جاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ماذا تريدون؟

قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فوقع فى نفسه ذكر النبى فأقبل بغنمه حتى وقف أمام الرسول ﷺ.

فقال: إلى ما تدعو؟ قال: أدعو إلى الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله.

فقال العبد: فماذا يكون لى إن شهدت بذلك وآمنت بالله؟

قال رسول الله عليه السلام: «الجنة».

فأسلم العبد: ثم قال: يا نبى الله إن هذه الغنم عندى أمانة. فكيف أردها لصاحبها؟ قال عليه السلام: أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا. فإن الله سيؤدى عنك أمانتك بايصالها لصاحبها.

ففعل العبد فعادت الغنم إلى سيدها وعرف أن غلامه قد أسلم.

ثم قالت أسماء: ثم إن رسول الله ﷺ أعطى راية الجيش لأبى بكر الصديق- رضي الله عنه - وأمره بمقاتلة اليهود حتى تستسلم حصونهم.

وفى اليوم الثانى أعطى راية الجيش لعمر بن الخطاب فقاتلهم قتالاً شديداً ولكنهم لم يستسلموا.

وفى اليوم الثالث أخذ الراية على بن أبى طالب، وبعد القتال المرير كان الفتح وكان النصر. واستشهد العبد الأسود فحمله المسلمون إلى معسكرهم فادخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم قال لأصحابه :

«لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير. ولقد كان الإسلام فى قلبه حقاً وقد رأيت عند رأسه اثنين من الحور العين»(١).

(١) راجع البداية والنهاية ٤: ١٩٠- ١٩١.

لقد كانت ميمونة تستمع إلى حديث أسماء وكلها آذان صاغية، ولقد بهرها حقاً أعمال هؤلاء العمالقة الصيد من جيش الإسلام، وأصبحت تواقة لرؤية الرسول ﷺ الذى استطاع فى فترة وجيزة من عمر الزمن أن ينقل هؤلاء الرجال رعاة الإبل والشاة إلى سادة وقادة.

مدنوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للإنسان.

ولكن كيف يتحقق لها ذلك؟ ومتى وكيف تظفر بهذه الأمنية؟

وهل هناك من وسيلة تنقلها إلى رحاب خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟

أم أن ذلك من أحلام اليقظة، ومن هواجس النفس؟

واستيقظت ميمونة رضي الله عنها من تخيلاتها تلك وكأنها قد وضعت يدها على الوسيلة التى تنقلها إلى أحب الناس إلى قلبها وقلوب المسلمين أجمعين، ولم تكن تلك الوسيلة سوى الهجرة إلى يثرب موطن الرسول الكريم؟

ولمَ لا: لقد سبقتها إلى هذه الهجرة أم كلثوم بنت عتبة رضي الله عنها والكثيرات غيرها من المسلمات اللاتى فررن بدينهن إلى الله.

ولم يغب عن ميمونة رضي الله عنها أن أختها أسماء قد هاجرت مع زوجها إلى أرض الحبشة ثم عادت وهاجرت مرة أخرى إلى المدينة. إذن لابد من الهجرة تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(١).

ولكنها وسط هذه الرؤى والتأملات استدركت أن أختها أسماء هاجرت الهجرتين ولم يعترض عليها أحد لأنها كانت فى صحبة زوجها.

ولكنها هى- لا زوج لها- فهل يسمح رجال القبيلة وشيوخها بالهجرة قاطعة تلك الفيافى والقفار بمفردها حتى تصل إلى المدينة؟

لا: إن دون ذلك خرط القتاد.

وما أن وصلت ميمونة رضي الله عنها بعد أن علمت أن رسول الله ﷺ بعد فتحه

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٠.

خيبر قد عاد إلى المدينة مرة أخرى. ولم يبق أمامها إلا التعرف على أخبار الرسول ﷺ وصحبه الكرام من الركبان الظاعنين من المدينة، أو الذاهبين إليها.

وأراد الله سبحانه وتعالى ألا يطول انتظارها، وفى يوم ليس كمثله يوم طرق آذانها صوت المنادى مطالباً أهل مكة بالخروج إلى الشعاب وقمم الجبال- وتخليتها لمحمد وصحبه تنفيذاً للشروط التى أقرها الطرفان فى صلح الحديبية.

عمرة القضاء والزواج من ميمونة

قال موسى بن عقبة عن الزهرى: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام القابل من عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صده المشركون عن المسجد الحرام حتى إذا بلغ يأجج «مكان قريب من مكة» وضعوا فيه كل أدوات الحرب ما عدا سلاح الراكب: السيف.

وبعث رسول الله ﷺ بين يديه جعفر بن أبى طالب يأمر أصحابه أن: اكشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم، وكان المشركون قد جمعوا الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت.

والصحابى الجليل عبد الله بن رواحة يرتجز بين يدى الرسول ﷺ متوشحاً بالسيف وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله ... فى صحف تُتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهلُ الخليل عن خليله

وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحنقاً، ونفاسة وحسداً. وخرجوا خارج مكة من مكان يسمى «الخندمة» وفى هذا عرض على الرسول ﷺ الزواج من ميمونة.

فقام جعفر بن أبى طالب فخطبها عليه. فجعلت ميمونة أمرها إلى العباس بن عبد المطلب زوج أختها أم الفضل بنت الحارث(١).

فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة.

فصاح حويطب بن عبد العزى: «يا محمد نناشدك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث».

فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك والله لا يخرج(٢)

عندها خشى رسول الله ﷺ احتدام الموقف، وقد يتطور إلى قتال فقال مخاطباً سهيلاً وحويطباً: «إنى قد نكحت فيكم امرأة فلا يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا» فقالا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا.

عندها أمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذن بالرحيل.

وركب رسول الله حتى نزل ببطن سرف وأقام المسلمون معه. وعندما استقر المقام بالرسول ﷺ كلف الصحابى الجليل أن يحمل له ميمونة- وبقى «بسرف» حتى قدمت عليه. فزوجها العباس له، وأصدقه عنها أربعمائة درهم. وذكر السهيلى: أنه لما انتهت إليها خطبة رسول الله ﷺ وهى راكبة بعيراً قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ.

---

(١) راجع البداية والنهاية وسيرة ابن هشام عند الحديث عن عمرة القضاء.

(٢) المصدر السابق ٤: ٢٢٣.

وفيها نزلت الآية: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وغردت الدنيا، وأشرقت بصبح جديد بنور ربها حيث انضمت إلى أمهات المؤمنين العابدة الساجدة.

والقانتة الصادقة.

والصابرة الخاشعة ميمونة بنت الحارث رضوان الله عليها وعلى أمهات المؤمنين أجمعين.

وتقول ميمونة: فى ليلة من الليالى ورسول الله ﷺ ينام فى حجرتى قام فى هجعة الليل فأسبغ الوضوء ثم قام يناجى ربه قائلاً:

«اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن.

ولك الحمد أنت قيوم السموات ومن فيهن.

ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق ، والساعة حق، والنبيون حق ومحمد حق..

اللهم لك أسلمت وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت».

فكانت ميمونة رضي الله عنها تقول هذه الكلمات كلما هجع الليل وداعب الكرى بأجفان اليقظان. وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلمها أن تقول إذا استيقظت من نومها:

«اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى بصرى نوراً، وفى سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، وفوقى نوراً، وتحتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً».

وكثيراً ما كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يأتى فى حجرة خالته ميمونة-

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٠.

ليقدم الوضوء إلى رسول الله ﷺ ويتفقه فى أمور دينه فجلس حتى خرج الرسول ﷺ وركب دابته- وأردف عبد الله بن عباس خلفه- وكان عبد الله كثير السؤال فى القليل والكثير- يريد أن يعرف ما قل وما كثر من أمور الوحى المتتابع على رسول الله ﷺ وما يتعلق بشئون الدين والدنيا . عندها قال له الرسول ﷺ:

«يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟»

فقال: بلى يا رسول الله.

قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما هو كائن، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمع الخلق على أن يمنعوك شيئاً كتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه.

فاعمل لله تعالى بالرضا فى اليقين،.

واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر.

وأن الفرج مع الكرب. وأن مع العسر يسراً»(١).

ولقد عاشت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين مع رسول الله ﷺ أجمل أيامها- وأسعد لحظات حياتها- وفى يوم ليس كمثله يوم والرسول ﷺ فى حجرة عائشة- نعى الناعى- خاتم الأنبياء وآخر المرسلين إلى الأمة الإسلامية واستقبلت بقلوب مكلومة، ونفوس مفجوعة قول الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

(١) الحديث رواه الترمذى فى القيامة (٥٩) وأحمد بن حنبل فى المسند (١: ٢٩٣، ٣٠٣).

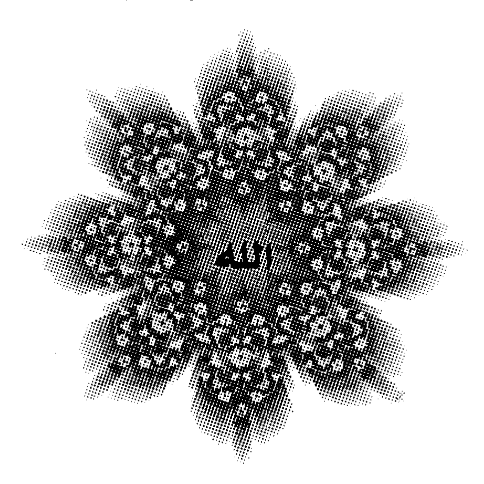
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.

وعاشت ميمونة بعد وفاة رسول الله ﷺ عابدة ساجدة. قانتة خاشعة. تعبد ربها، وتبتهل إلى مولاها، أن يعينها على أداء ما فرضه الله عليها، فإذا جاء أجلها، جعلها فى زمرة عباده الصالحين، وأوليائه الذين قال فيهم:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان خرجت ميمونة بنت الحارث مع ابن أختها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما للحج فلما أدت المناسك وتم حجها اشتكت، فأوصت أن تدفن فى مكان القبة التى أعرس فيها رسول الله ﷺ بها فى سرف.

وأن تكون حجرتها داراً للعلم ومدرسة للفقه ومأوى للراغبين ثم ماذا؟ فارقت روحها جسدها. فصلى عليها عبد الله بن عباس وجماعة المسلمين واستقرت كما وعد الله عباده الصالحين ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢).



(١) سورة يونس الآيات: ٦٢- ٦٤.

(٢) سورة القمر الآية: ٥٥.



تذييل

قضية المهر

قضيــة المهـــر

قضية المهر من القضايا التى اهتم الإسلام بها اهتماماً كبيراً وأولاها عناية خاصة قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾(١).

قال أبو عبيدة يعنى عن طيب نفس بالفريضة التى فرضها الله تعالى على عباده. وقيل النحلة: تعنى الهبة لأن كل واحد من الزوجين يستمتع بصاحبه، وجعل المهر عطية للمرأة بغير عوض لقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢) أى مهورهن.

ولقد جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال:

يا رسول الله إنى تزوجت.

قال ﷺ: ما أصدقتها؟ أى ما أعطيتها مهراً؟

قال: وزن نواة ذهباً.

فقال ﷺ: «بارك الله لك أوّلم بشاة».

واتفق الفقهاء على أن المهر واجب شرعاً فى كل عقد نكاح على الزوج لزوجته بمجرد عقد النكاح لقوله تعالى: ﴿ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾(٣).

فإذا لم يقدر المهر فى مجلس العقد، وجب مهر المثل، لما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها قبل أن يدخل بها ولم يكن قد سمى لها مهراً فى عقد النكاح.

فقال: «لم أسمع فى هذا شيئاً عن رسول الله ﷺ ولكن أجتهد برأيى فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان- أرى أن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط».

(١) سورة النساء الآية: ٤.

(٢) سورة النساء الآية: ٢٥.

(٣) سورة النساء الآية: ٢٤.

فقال الصحابى الجليل معقل بن يسار وأنا: أشهد أن رسول الله ﷺ قضى فى بروع بنت واشق الأشجعية مثل قضائك. ثم قام رجال من قبيلة أشجع وقالوا: إنا نشهد بمثل شهادته. ففرح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فرحاً لم يفرح مثله فى الإسلام لموافقة قضائه قضاء رسول الله ﷺ.

ويرى الكثير من الفقهاء أن فى المهر حقاً لله تعالى. فلا يملك الزوجان نفيه باتفاقها، فدل ذلك أن فى المهر حقاً لله تعالى لا يملكان إسقاطه.

ويؤيد هذا أن بعض الفقهاء من أتباع أبى حنيفة اشترط حداً أدنى من المهر وجعل هذا الحد حقاً للشرع لا يجوز النزول عنه بتسمية ما هو أقل منه، فإذا سمى أقل منه وجب إبلاغه إلى الحد الأدنى(١).

ولهذا يستحب أن يسمى المهر فى عقد النكاح.

قال ابن قدامة الحنبلى: ويستحب أن لا يعرى النكاح عن تسمية الصداق.

وقال الفقيه الرملى الشافعى: «وتسن تسميته» أى تسمية المهر.

ولقد كان النبى ﷺ يزوج بناته وغيرهن ويتزوج هو، فلم يكن يخلى ذلك من مهر. وقال ﷺ للذى زوجه المرأة الموهوبة: «التمس ولو خاتماً من حديد» (٢).

فلما لم يجد شيئاً: زوجه إياها بما معه من القرآن. وأيضاً فإن تسمية المهر فى عقد النكاح أقطع للنزاع وللخلاف فيه.

ويرى ابن قدامة: أن كل ما كان مالاً جاز أن يكون مهراً لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾(٣).

وإذا كان ذلك فهل يجوز أن يكون تعليم العلم، والفقه فى دين الله وتعليم القرآن للزوجة مهراً؟ لقد اختلف العلماء فى ذلك.

فعند الشافعية وبعض المذاهب الأخرى جواز ذلك التزاماً بالسنة.

(١) راجع الهداية وفتح القدير (٢: ٤٣٤- ٤٣٧). (٢) متفق عليه.

(٣) سورة النساء الآية: ٢٤.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى جعله صداقاً. فقال فى موضع: أكرهه. وقال فى موضع آخر: لا بأس به. وهو أن يتزوجها على أن يعلمها سوراً من القرآن الكريم.

وحجة هذه الرواية الأخيرة ورود جواز ذلك فى السنة النبوية الشريفة كما فى حديث سهل بن سعد الساعدى. وفيه قول النبى ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن».

ووجه الرواية الأولى فى عدم الجواز: أن الفروج لا تستباح إلا بالأموال تجعل مهراً فى عقود النكاح قال الله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢).

والطول هو المال، ولأن تعليم القرآن لا يجوز أن يقع إلا قربة لفاعله فلا يصح أن يكون صداقاً كالصوم والصلاة. والصورة التى يرضاها الإسلام للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر، وهى ذاتها الصورة التى رضيتها من قبل من زواج الحرائر.

فأولاً: يجب أن يكن مؤمنات ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وثانياً: يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن. فهذا حقهن الخالص ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

وثالثاً: يجب أن تكون هذه الأجور فى صورة صداق، وأن يكون الاستمتاع بهن فى صورة نكاح لا مخادنة ولا سفاح، والمخادنة أن تكون لواحد، والسفاح أن تكون لكل واحد.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (٣).

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٤. (٢) سورة النساء الآية: ٢٥.

(٣) سورة المائدة الآية: ٥.

أقـــل المهـــر

يكاد يكون اختلاف بين الفقهاء فى تحديد مقدار أقل المهر ومن الأدلة على ذلك:

١- ما يروى من أحاديث فى أقل المهر لا يثبت منها شىء قال الإمام ابن حجر العسقلانى: «وقد وردت أحاديث فى أقل الصداق لا يثبت منها شىء»(١).

٢- ما رواه جابر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «لو أن رجلاً أعطى امرأة صداقاً ملء يديه طعاماً، كانت له حلالاً»(٢).

وعن أبى داود بمعناه: «أى لو تزوج امرأة وجعل مهرها ملء يديه طعاماً لانعقد النكاح وصح بهذا المهر وصارت له زوجة حلالاً.

٣- أخرج الإمام الترمذى فى سننه: أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ: «أرضيت من نفسك ومالك بنعلين؟».

قالت: نعم.

قال الراوى: فأجازه النبى ﷺ وقد استدل بهذا الحديث من قال بجواز كون المهر شيئاً حقيراً له قيمة»(٣).

(١) راجع صحيح البخارى شرح العسقلانى (٩: ٢١١).

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود بمعناه.

(٣) راجع سنن الترمذى وشرحه تحفة الأحوذى (٤: ٢٥٠، ٢٥١) وابن ماجه فى سننه (١: ٦٠٨).

أكثر المهر

إذا كان الفقهاء قد اختلفوا فى تحديد أقل المهر المسمى فإنهم لم يختلفوا فى أنه لا حد لأكثره، فيجوز أى مقدار تراضى عليه الزوجان.

قال ابن قدامة الحنبلى- رحمه الله-: وأمَّا أكثر الصداق فلا توقيت فيه بإجماع أهل العلم. قال ابن عبد البر. وقد قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾(١).

إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً.

وينظر إلى العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمة.

ويقيم هذه الرابطة على الاختيار المطلق، فإذا تبين بعد الزواج أن الحياة بين الزوجين غير مستطاعة، وأنه لابد من الانفصال واستبدال زوج مكان زوج فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق، وما ورثت من مال لا يجوز استرداد شىء منه، ولو كان قنطاراً من ذهب.

وفى المجموع فى فقه الشافعى: وأمَّا أكثر الصداق فليس له حد وهو إجماع لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾.

قال ابن عباس: القنطار سبعون ألف مثقال.

وقال أبو سعيد الخدرى: القنطار ملء مسك ثور ذهباً ومسك الثور جلده.

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز المغالاة فى المهور؟ وما هى الوسيلة أو المعيار الذى يمكن عن طريقه معرفة المغالاة من عدمها؟

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٠.

المغالاة فى المهور

يطيب لنا أن نستعرض أقوال الفقهاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾.

قال الإمام القرطبى: فى هذه الآية دليل على جواز المغالاة فى المهور لأن الله تعالى لا يمثل إلا بمباح(١).

وقال ابن كثير: فى هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل.

وقال الحافظ أبو يعلى بسنده عن الشعبى عن مسروق قال: ركب عمر ابن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: «أيها الناس ما إكثاركم فى صداق النساء؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله، أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم».

قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم.

فقالت: أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن؟

قال: وأى ذلك؟

فقالت: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾ .

قال: اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر.

ثم رجع فركب المنبر فقال: «أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن لا تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم. فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب». قال أبو يعلى: وأظنه قال: «فمن طابت نفسه فليفعل».

وقال ابن كثير: إسناده قوى(٢).

(١) راجع تفسير القرطبى (٥: ٩٩).

(٢) راجع تفسير ابن كثير (١: ٤٦٧) ط دار المعرفة بيروت- لبنان.

ولنا أن نتساءل هل خفيت هذه الآية على عمر بن الخطاب حتى ذكرته بها هذه المرأة؟ وإذا كانت لم تخف عليه فما تبرير رجوعه؟ وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة وجوه:

الأول: أن نهى عمر عن جعل المهر مالاً كثيراً هو على وجه الندب لا التحريم.

قال الإمام ابن العربى المالكى:

وهذا أى نهى عمر سالف الذكر- لم يقله عمر على طريق التحريم، وإنما أراد به الندب إلى التعليم.

وقد تناهى الناس فى الصدقات- أى فى المهور- حتى بلغ صداق امرأة ألف ألف، وهذا قل أن يوجد من حلال(١).

الثانى: أن الآية الكريمة أباحت إيتاء المرأة الكثير- القنطار- مهراً لها ولم توجب ذلك، وللإمام أن يجتهد فى تقييد المباح بالنهى عنه أو الأمر به فى بعض الأوقات والأحوال لمصلحة يراها.

الثالث: يحتمل أن يكون رجوع عمر عن اجتهاده فى تحديد أكثر المهر عندما سمع كلام المرأة وما فى اعتراضها من دلالة على أن النساء لا يرغبن فى التنازل عما أباحه الشرع لهن من الزيادة فى المهور، وأن هذا إذا كان فيه مصلحة للرجال ففيه عدم رضا النساء ويعتبرنه من الضرر بهن.

(١) راجع تفسير ابن العربى (١: ٣٦٤، ٣٦٥).

المستحب عدم المغالاة فى المهور

إذا كان الاتفاق حاصلاً على عدم وجود حد لأكثر المهر المسمى فى الإسلام فإن الإجماع قائم على استحباب عدم المغالاة فى المهور لما ينشأ عن ذلك من أخطار اجتماعية تحول دون انتشار الزواج وتكاثر العنوسة. وقد تناول الأئمة الأعلام عدم المغالاة فى المهور بالتوضيح والتفصيل.

من ذلك ما يقوله الشافعى رضي الله عنه: «الاقتصاد فى المهر أحب إلىّ من المغالاة فيه»(١).

ويقول ابن قدامة الحنبلى: «يستحب أن لا يغلى الصداق»(٢).

ومن الأدلة التى ساقها العلماء فى استحباب عدم المغالاة فى المهور ما يأتى:

أولاً: ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»(٣).

ثانياً: ما رواه البيهقى فى سننه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها، وأن يتيسر صداقها، وأن يتيسر رحمها»(٤). قال عروة يعنى يتيسر رحمها للولادة.

ثالثاً: قول أبو هريرة رضي الله عنه: «كان صداقنا إذ كان فينا رسول الله ﷺ عشر أواق»(٥).

رابعاً: ما رواه البيهقى بسنده عن محمد بن سيرين عن أبى العجفاء السلمى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: «إياكم والمغالاة فى مهور النساء فإنها لو كانت تقوى عند الله أو مكرمة عند الناس لكان رسول الله ﷺ

(١) راجع المجموع (١٥: ٤٨٣).

(٢) المسند (٦: ٨٢، ١٤٥) «حلبى» وسنن البيهقى (٧: ٢٣٥).

(٣) المسند (٦: ٨٢، ١٤٥) «حلبى» وسنن البيهقى (٧: ٢٣٥).

(٤) سنن البيهقى (٧: ٢٣٥). (٥) المصدر السابق (٧: ٢٣٥).

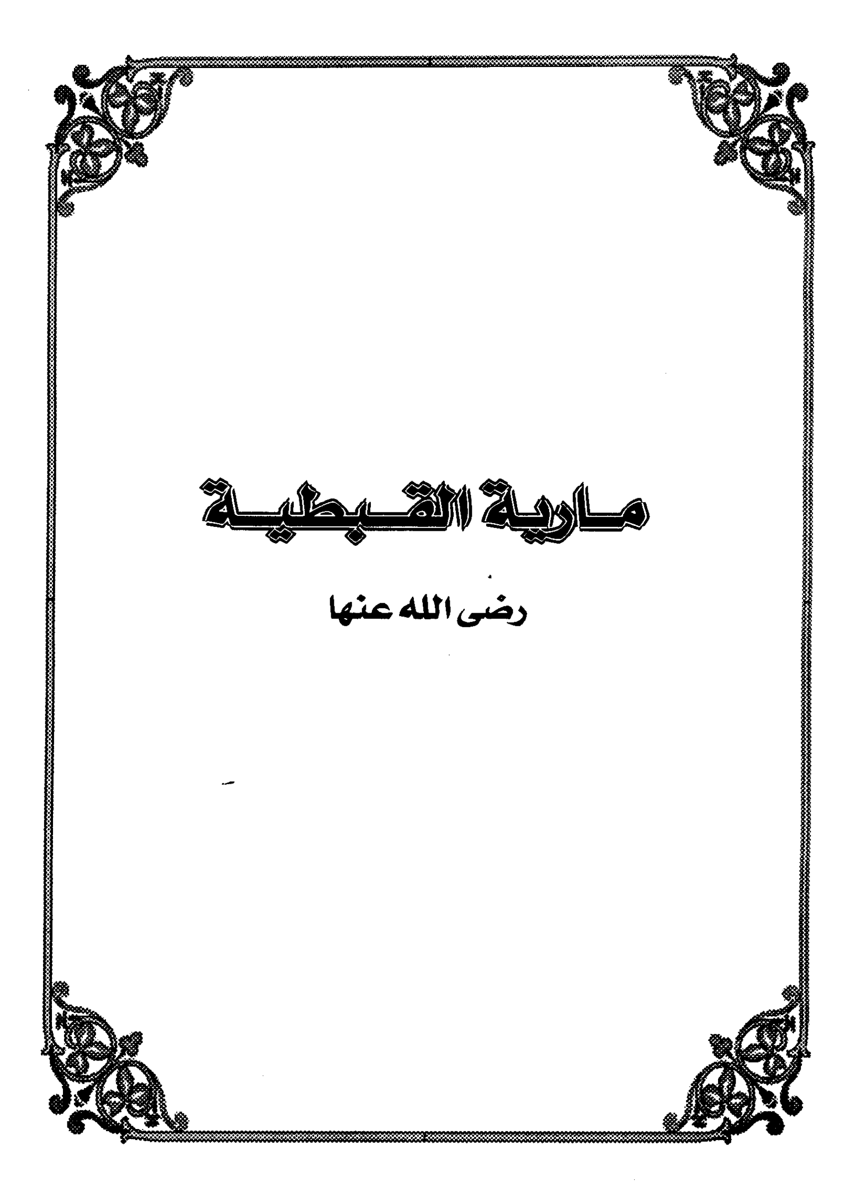
أولادكم بها، ما نكح رسول الله ﷺ شيئاً من نسائه ولا أنكح واحدة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية وهى أربعمائة درهم وثمانون درهماً، وإن أحدهم ليغالى بمهر امرأته حتى تبقى عداوة فى نفسه. فيقول: لقد كلفت لك علق القربة»(١).

وفى نهاية هذا البحث نحب أن نقول: الزواج فى منهج الإسلام التقاء نفسين عن رغبة واختيار. والصداق حق للمرأة تأخذه لنفسها فيجب أن يكون كافياً ومحدداً لتقبضه المرأة فريضة لها، وواجباً لا تخلف فيه وأوجب أن يؤديه الزوج هبة خالصة لصاحبته وأن يؤديه عن طيب نفس، وارتياح خاطر، كما يؤدى الهبة والمنحة.

فإن طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شىء من صداقها- كله أو بعضه- فهى صاحبة الشأن فى هذا، تفعله عن طيب نفس، وراحة خاطر، والزوج فى حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه، وأكله حلالاً طيباً هنيئاً، لأن العلاقات بين الزوجين ينبغى أن تقوم على الرضا الكامل والاختيار المطلق والسماحة النابعة من القلب.

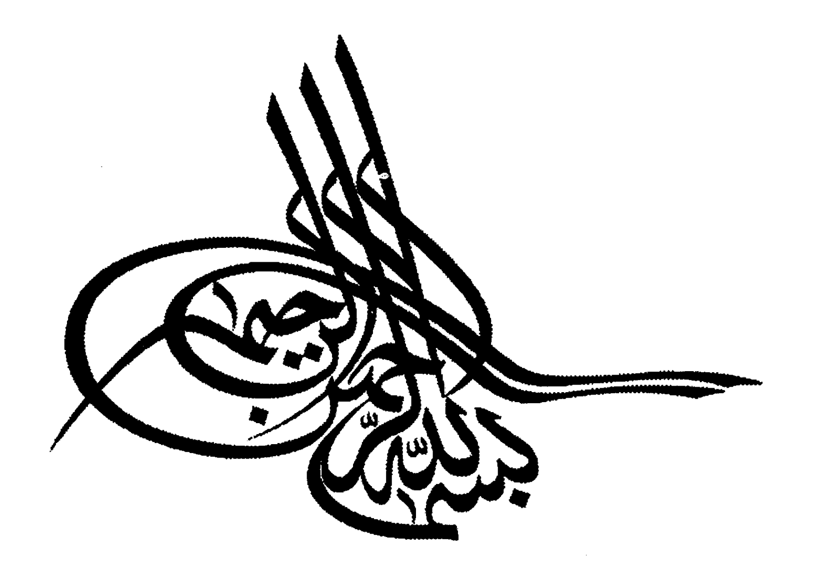
والشريعة الإسلامية عندما تركت تحديد المهر وعدم حصره فى مقدار معين راعت فى ذلك عرف الناس وعاداتهم، والغلاء والرخص فى قيم الأشياء وأثمانها والفقر والغنى، وتباين طبقات المجتمعات، وعلينا فى مثل هذه الأمور أن نقتدى بحديث الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

(١) المصدر السابق (٧: ٢٣٤) وسنن الترمذى (٤: ٢٥٥).



مارية القبطية

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

(التحريم: ١، ٢)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى: مارية القبطية أم إبراهيم.

قال ذلك صاحب الدر المنثور (٦ ص ٢٣٩- ٢٤٠).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٤ص ٣٨٦، ٣٨٧).

وقاله ابن جرير الطبرى فى التفسير (٢٨- ٤٦٠).

فمن هى مارية رضي الله عنها...؟



حياتها ونشأتها

سرية الرسول ﷺ وأم إبراهيم بن محمد، قرة عين أبيه، وفلذة كبده، والريحانة التى ملأت حياته شذى وعطراً، وهدية المقوقس إلى محمد ﷺ.

تقول عنها أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها - ما غرت على امرأة كما غرت من مارية. لأنها كانت جميلة بيضاء، جعدة الشعر لطيفة المحيا.

ولدت فى صعيد مصر، وكانت أمها رومية.

وترعرعت طفولتها على الثرى الخصب والخير الوفير.

وفتحت عيونها على مياه النيل، وهى تنساب إلى الشمال فى سهولة ويسر.

واستمتعت بشمس الصعيد الدافئة، ونسماته العليلة.

ولكن كيف انتقلت هذه النقلة البعيدة؟ وكيف تابعت هذه الرحلة الشاقة، الممتدة حتى وصلت إلى أرض يثرب؟

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تسجل عقد الهدنة بين محمد ﷺ وقريش، ثم عودته عليه السلام إلى يثرب وما كاد يستقر به المقام حتى أرسل الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر قائلاً فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام الله على من اتبع الهدى».

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وما كادت تصل الرسالة وتقرأ على مسامع المقوقس حتى قال: «قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام، حيث مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب».

ثم بعث إلى بطارقته، فجاءوا سراعاً إلى مجلسه، وأخبرهم بما حوته رسالة النبى العربى. ثم التفت إلى حاطب وقال له: إنى سائلك بكلام فأحب أن تفهم عنى.

قال حاطب: هلم هات ما عندك.

قال المقوقس: أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى؟

قلت: بلى هو رسول الله.

قال: فما له حيث كان هكذا لِم لمْ يدعو على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟

قال حاطب: قلت: عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟

قال: بلى.

قلت: فما باله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إليه؟

فقال لى: أنت حكيم جاء من عند حكيم.

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤.

ثم قال له: سأبعث معك إلى محمد جاريتين هما مارية وسيرين وغلام أسود، وبغلة بيضاء، وكوكبة من الفرسان حتى تصل إلى مأمنك.

وتذكر الروايات أن حاطب بن بلتعة، قد عرض عليهما الإسلام- وهما فى الطريق إلى يثرب فأسلمت مارية وأختها.

لم تتلعثم عندما عرض عليها الإسلام، ولم تتأخر، لأن حياتها فى مصر الذى كان شعبها يعرف عقيدة التوحيد، وأن نبى الله إدريس عليه السلام دعى أهلها إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل ألوان الشرك. كان دافعاً قوياً لها لقبول الإسلام.

ويقال: إن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالبعث ويصدقون بما يكون بعد الموت فحرصوا على إقامة القلاع، وتشييد الحصون من أهرامات وخلافه إيماناً بالخلود والبقاء. ويحدثنا تاريخهم القديم عن ملامح تصورهم للحياة الآخرة، وما يكون فيها من حساب وعقاب وجزاء عن طريق محكمة مكونة من أربعين قاضياً يرأسها قاضى القضاة (أوزريس).

وكانت مارية تعتقد كقومها: أن الإنسان لا يفنى، والموت مرحلة انتقال إلى حياة أخرى حياة الأبدية والخلود[1].

وعندما وصلت إلى يثرب أنزلها رسول الله ﷺ فى العالية التى يقال لها اليوم مشربة أم إبراهيم- وكان رسول الله ﷺ يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين، فلما حبلت وضعت هناك- فجاء أبو رافع زوج سلمى مولاة رسول الله فبشر الرسول عليه السلام بإبراهيم فوهب له عبداً.

وتنافست الأنصار فى إبراهيم وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبى ﷺ لما يعلمون من هواه فيها.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة.

(١) راجع رجال أنزل الله فيهم قرآناً للمؤلف (٢: ١٤٨).

وكان بدء الحديث فى شأن مارية أم إبراهيم القبطية- أصابها النبى ﷺ فى بيت حفصة فى يومها فوجدت حفصة فقالت: يا نبى الله لقد جئت إلىّ شيئاً ما جئته إلى أحد من أزواجك. فى يومى، وفى دارى، وعلى فراشى.

فقال ﷺ: «ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها» قالت: بلا. فحرمها وقال: «لا تذكرى ذلك لأحد» فذكرته لعائشة- رضي الله عنها- فأظهره الله عليه فأنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾(١).

ويقال: إن النبى ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت أم إبراهيم سرية للنبى ﷺ فى مشربها، وكان قبطى يأوى إليها، ويأتيها بالماء والحطب فقال الناس فى ذلك: علج يدخل على عجلة؟

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل علىَّ بن أبى طالب فوجده علىٌّ على نخلة، فلما رأى السيف وقع على نفسه فألقى الكساء الذى كان عليه وتكشف فإذا هو مجبوب(٢). فرجع علىٌّ إلى النبى ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمر ثم رأى فى غير ذلك أيراجعك؟ قال: نعم.

وكانت مارية تردد دائماً قصة هاجر زميلتها المصرية التى أهداها ملك مصر إلى سارة، ورحلت من بلاد النيل بصحبة إبراهيم عليه السلام، وأنجبت منه ابنها إسماعيل. وكيف تركها قرب البيت العتيق، ويذكر القرآن الكريم قول إبراهيم فى ذلك:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٣).

كانت مارية تحلم بنجدة السماء، وقد أثارت قصتها المتشابهة تماماً لقصة هاجر زوجات النبى الشرعيات، وكان الفرق الوحيد بينها وبين هاجر أنها لم

(١) سورة التحريم الآية: ١. (٢) ليس له ما يكون للرجل.

(٣) سورة إبراهيم الآية: ٣٧.

يكن لديها ولد. والنبى قد شارف الستين من العمر، فهل تتحقق لها الأمنية؟

لم تحظ مارية بلقب أم المؤمنين، وكان النبى يطأها بملك يمينه، وقد أسدل عليها الستار فاطمأن بها المقام، وانصرفت تماماً لخدمة النبى ﷺ فكان لها السيد والصديق والأهل والوطن.

وانحصر كل همها أن تظل موضع حظوته ورضاه، وكانت لا تكف أبداً عن ذكر هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام.

وفى عامها **الثانى**: أحست مارية ببوادر الحمل، وعندما تيقنت من ذلك عاشت فى رؤى من الأحلام حالمة، وأدركت أن الله تعالى قد استجاب لدعائها. وحين علم الرسول ﷺ بهذا الحدث، رفع رأسه إلى السماء يشكر الله على هديته، وبعد أن فقد ابنته الغالية زينب، ومن قبلها رقية، وأم كلثوم، وعبد الله والقاسم.

وتذكر النبى ﷺ ما كان من قصة إبراهيم وبشرى زكريا فى قوله الذى ذكره القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١).

وسرى الخبر فى كل أرجاء المدينة، بأن النبى ﷺ رزق مولوداً من مارية المصرية. وسقط هذا الخبر كالصاعقة بين نساء النبى، فخاف النبى على مارية ونقلها إلى ضواحى المدينة فى مكان يدعى العالية. وسهر عليها يرعاها. وفى ذات ليلة من شهر ذى الحجة فى السنة الثامنة للهجرة. دخلت عليه أم رافع القابلة لتبشره بالغلام فأكرمها وذهب إلى مارية فهنأها وحمل الغلام بين يديه وسماه إبراهيم.

إنه الغلام الذى يملأ الحياة بهجة وبهاء.

إنه الغلام الذى يحمل الذكرى ويساهم فى تجديد حبل الحياة.

إنه الغلام طُلبة الغنى والفقير، والمليك والخفير.

(١) سورة مريم الآيتان: ٨، ٩.

إنه الغلام الذى طلبه نبى الله زكريا بقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾[١].

لكن سعادة مارية لم تكتمل فقد مرض إبراهيم وهو ما زال رضيعاً لم يكمل العامين من العمر، فوضعه النبى ﷺ فى حجره وهو يسمع حشرجة احتضاره مختلطة ببكاء أمه وخالته.

وحين مات إبراهيم انحنى النبى على جثمان ابنه فقبله والدمع يفيض من عينيه وقال: «يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[٢].

وبينما كانوا يغسلون الطفل الصغير الميت استعداداً لدفنه. كان النبى جالساً ينظر إليه فى حزن عميق وألم بالغ، وحين وصلوا إلى البقيع. أضجعه بيده فى قبره ثم سوى التراب ونداه بالماء. وطوى النبى ﷺ جرحه فى قلبه صابراً على قضاء الله.

ولقد روى الإمام أحمد- ما كان من زوجات النبى ﷺ ومارية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٣].

حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإدواة فتبرز ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الجنائز (٤٣) ومسلم فى الفضائل (٦٢) وأبو داود فى الجنائز (٢٤) وابن ماجه فى الجنائز (٥٣).

(٣) سورة التحريم الآية: ٤.

فقال عمر: وا عجباً لك يا بن العباس- قال الزهرى: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه قال هى عائشة وحفصة.

قال ثم أخذ يسوق الحديث-

قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.

قال: وكان منزلى فى دار أمية بن يزيد بالعوالى.

قال: فغضبت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى.

فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.

قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟

قالت: نعم.

قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟

قالت: نعم.

قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر أفتأمن إحداكنَّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت، لا تراجعى رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسلينى من مالى ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك هى أوسم- أى أجمل- وأحب إلى رسول الله ﷺ وآله وسلم منك - يريد عائشة.

قال : وكان لى جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى الرسول ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتينى بخبر الوحى وغيره، وآتيه بمثل ذلك.

قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل صاحبى يوماً. ثم أتى عشاء فضرب بابى ثم نادانى فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم.

فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟

قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول. طلق رسول الله ﷺ نساءه.

فقلت: قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن أن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت عليَّ ثيابى ثم نزلت.

فدخلت على حفصة وهى تبكى فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ.

فقالت: لا أدرى، هو هذا معتزل فى هذه المشربة؟؟

قال عمر: فأتيت غلاماً له أسود. فقلت استأذن لعمر فدخل الغلام ثم خرج إلىّ فقال ذكرتك له فصمت.

فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم فجلست عنده قليلاً ثم غلبنى ما أجد.

فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرتك له فصمت؟؟ فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلىّ. فقال: قد ذكرتك فصمت، فوليت مدبراً. فإذا الغلام يدعونى فقال: ادخل قد أذن لك.

فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير.

قال الإمام أحمد رمال حصير قد أثر فى جنبه. فقلت: أطلقّت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رسأسه إلىّ وقال: لا.

فقلت: الله أكبر. فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم.

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه.

فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله؟ فاستوى جالساً وقال:

أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا.

فقلت: استغفر لى يا رسول الله وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن.

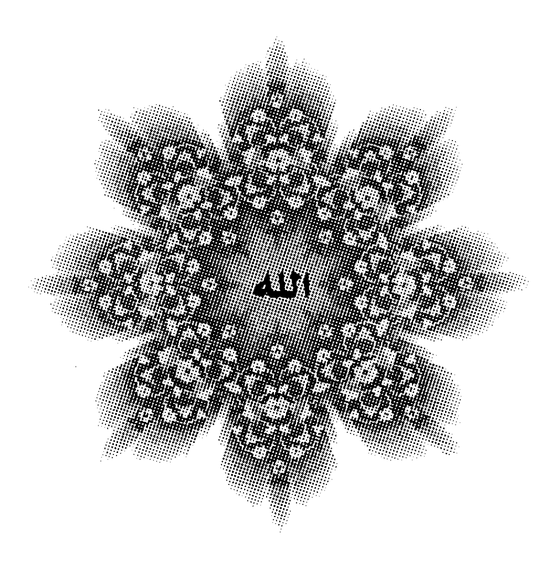
ألا يدخل عليهن شهراً ولم يطلقهن.

لأن الطلاق أبغض الحلال عند الله تعالى، كما قال الرسول ﷺ.

ويقول الرسول أيضاً: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن». «وأيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن التباغض والتدابر بين الرجل وزوجته- التباغض الذى يصل إلى درجة الكره:

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾.



أسباب النزول

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾(1)؟.

وقال ابن جرير بسنده عن زيد بن أسلم- أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه فقالت: أى رسول الله فى بيتى وعلى فراشى؟ فجعلها عليه حراماً. قالت: أى رسول الله كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

قال زيد بن أسلم فقوله أنت علىَّ حرام لغو.

وقال سفيان الثورى وابن علية عن داود بن هند عن الشعبى عن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرم فعوتب فى التحريم وأمر بالكفارة فى اليمين. رواه ابن جرير.

وعن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب من المرأتان؟

قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث فى شأن أم إبراهيم مارية أصابها النبى ﷺ فى بيت حفصة فى نوبتها فوجدت حفصة.

فقالت: يا نبى الله قد جئت إلىَّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك فى يومى وفى دارى وعلى فراشى؟؟

قال: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟

قالت: بلى. فحرمها.

وقال لها: لا تذكرى ذلك لأحد. فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل

(1) سورة التحريم الآية: 1.

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآيات كلها.

فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته[1].

وعن ابن عمر قال النبى ﷺ لحفصة: لا تخبرى أحداً وإن أم إبراهيم علىَّ حرام. فقالت:

أتحرم ما أحل الله لك؟

قال: فوالله لا أقربها.

قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾[2].

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج.

وقال ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول فى الحرام يمين تكفرها.

وقال ابن عباس: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

يعنى أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

فكفر يمينه فصير الحرام يميناً.

ورواه البخارى عن معاذ بن فضالة بسنده عن ابن عباس: «فى الحرام يمين تكفر» ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى به.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير (٤: ٣٨٦، ٣٨٧).

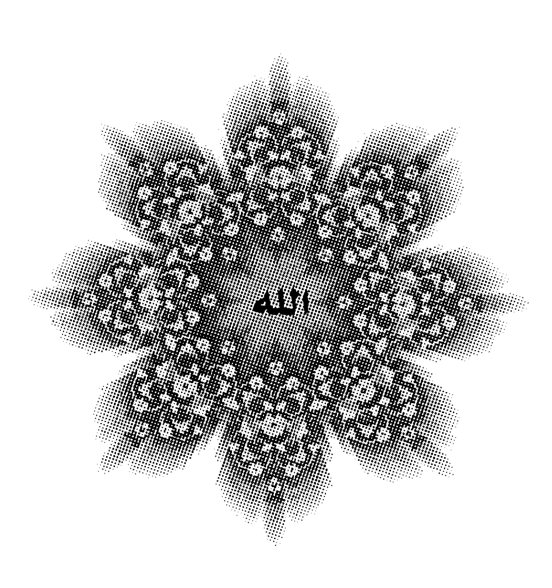
(٢) سورة التحريم الآية: ٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢١.

وقال النسائى بسنده عن ابن عباس- ﷺ - قال: أتاه رجل فقال: إنى جعلت امرأتى علىَّ حراماً.

قال: كذبت ليس عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[1].

عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة. تفرد به النسائى من هذا الوجه. بهذا اللفظ والله أعلم.



(١) سورة التحريم الآية: ١.


تذييل
الحياة الزوجية كيف تتحق
فيها المودة والرحمة..؟

الحياة الزوجية كيف تتحقق فيها المودة والرحمة..؟

قال الله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾(١).

ما هو النشوز؟ أهو ترفع المرأة على زوجها؟

أو الانفعال والجموح والاستعلاء بالجمال والمال أو بالمركز العائلى؟

أهو خروج المرأة عن قوامة الرجل التى أمر الله تعالى بها فى قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(٢).

أهو تحول المرأة نداً للرجل فى حلبة صراع وقتال؟

أهو مرض من الأمراض التى تصاب به بعض النساء ويحتاج إلى علاج وحسن معاملة من الرجل؟

إن منهج الإسلام يلجأ إلى معالجة النشوز فى الأسرة المسلمة قبل توقعه ولا ينتظر حتى يقع. وبمجرد ظهور هذه الآثار يرشد الله تعالى الأزواج إلى المبادرة بالعلاج، ويأمرهم ألا ينتظروا حالة النشوز الفعلى ليبدءوا علاجهم، ولهذا وضع الإسلام خطة هذا العلاج التى تتمشى مع المعروف من أطوار الخلاف.

وأولى هذه الخطوات: الموعظة. قال تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

فالزوج يبادر زوجته فى هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستتراً أو

(١) سورة النساء الآية: ٣٤.

(٢) سورة النساء الآية: ٣٤.

على استحياء، فينصحها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقته وحسن أدبه، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة، ويمدحها فى تلطف بأخلاقها وأخلاق أسرتها ويحذرها شماتة الأعداء، وحزن الأصدقاء وهذه هى مقدمات الواجب التى يجب أن يقوم بها الزوج إزاء زوجته وأسرته.

ومن الموعظة: أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر لها ذلتها عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله فى ذلك. وأنه ليس متهوراً مندفعاً من أول الأمر، فإن هذا العمل يصلح كثيراً من النساء اللواتى لا تصلحهن الشدة والعنف.

ثانى هذه الخطوات: الهجر. قال تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

فإذا فشلت الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن مقدمة من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها لذلك يجب على الرجل أن يظهر غضبه من هذا الفعل بطريقة صامتة بليغة فى صمتها مؤثرة تأثيراً كثيراً فى المرأة. وهى الهجر فى المضجع، فإذا فعل الرجل ذلك، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أقوى أسلحتها التى تعتز بها وكانت فى الغالب أميل إلى التراجع والملاينة، ومنهج الإسلام أن يضع أدباً لهذا الهجر.

فهو هجر مستتر فى المضجع، ولا يكون ظاهرا فى غير مكان خلوة الزوجين. فلا يصح أن يكون هجراً أمام الأطفال يورث فى نفوسهم شراً وفساداً.

ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها فتزداد نشوزاً، لأن المقصود من الهجر هو العلاج لا الإذلال.

ولا شك أن هذه الخطوة لو أديت على وجهها الكامل، وفى وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة، وتكون سنداً طبيعياً للخطوة الأولى، وإلا كان الرجل متصنعاً فى نصحه ووعظه، وممثلاً لدور الغاضب أو الآسف، بينما هو الراغب الطالب.

ثالث هذه الخطوات: الضرب. قال تعالى: ﴿واضربوهن﴾.

لقد فشلت الخطوة الأولى وفشلت الخطوة الثانية، ويوشك هذا النشوز أن يعصف بالحياة الزوجية، وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشتات، وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد صغار، ويتأثرون بهذه المشاحنات، وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات فكان لابد من اللجوء إلى الضرب.

وهذا الضرب المأذون فيه إنما الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه (غير مبرح) وقد اعتاد الناس فى كل عصر ومصر أن يؤدبوا بمثله أبناءهم وبناتهم صغاراً وكباراً فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة.

وقد يكون من النساء من لا تحس قوة الرجل الذى ترضاه قيماً وترضاه زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً وليس هذه طبيعة كل امرأة. ولكن هذا الصنف موجود وهو الذى يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم، ويبقى على المؤسسة الخطيرة مؤسسة حضانة الأولاد وسعادة الأسرة واستمرارها.

يقول الشيخ محمد محمد المدنى: «وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشاً ويقولون إنه إنما يصلح للقرون الأولى، لا لعصور المدنية والحضارة، ولكنهم فى هذا النقد غير منصفين، وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال، والمتحكمات فى شئون الأسرة، فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة، وإسباغ ألوان من الاحترام عليها حتى أفسدوا ذوقها.

أفسدوا ذوقها من خلال هذا الدلال.

وأفسدوا ذوقها من خلال جعلها قَيِّمَة تمسك بيديها كل شؤون الأسرة.

وأفسدوا ذوقها عن طريق الاختلاط ومخادنة الرجال وتفشى الصداقات بين الرجال والنساء،

والإسلام لا ينكر على المرأة كرامتها ، ولكنه يقف بها عند حدها الذى رسمه لها ملاحظاً فيه دورها فى المجتمع ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها.

وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج»[1].

ولا ننسى أن الذى شرع ذلك وأمر به هو الله سبحانه وتعالى الخبير بكل خلجة من خلجات النفس، وبكل ذرة من ذرات الجسم وصدق ربى فى قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

ونتساءل أيهما أجدى للمجتمع:

إفساد الحياة الزوجية، وتشريد الأبناء والبنات.

وتحطيم القلوب وتخريب البيوت وتقطيع أواصر الرحمة والمودة.

أم لطمة على خد.

أو صفعة على يد؟ لا شك أن العلاج الثانى أجدى وأنفع.

ويطيب لى أن أستعرض بعض توجيهات الرسول ﷺ فى هذا الصدد. جاء فى كتب السنن عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال:

يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟

قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت»[3].

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه قال النبى ﷺ: «لا تضربوا إماء الله». لأن الإسلام يلجأ إلى النصيحة الصادقة، والموعظة الحسنة. ويرفض الفظاظة، والتجبر، والإذلال الذى يحول المرأة رفيقة الحياة إلى أَمة ليس لها من أمرها شىء.

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرت النساء على أزواجهن.

فرخص رسول الله ﷺ فى ضربهن.

(١) راجع المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ٢١٥.

(٢) سورة الملك الآية: ١٤.

(٣) الحديث أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند (٥: ٣) وأبو داود فى النكاح (٤١).

فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أطاف بآل محمد نساء كثيرات يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم».

وقال ﷺ: «لا يضرب أحدكم امرأته كالعير يجلدها أول النهار ثم يضاجعها آخره»(١).

وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»(٢).

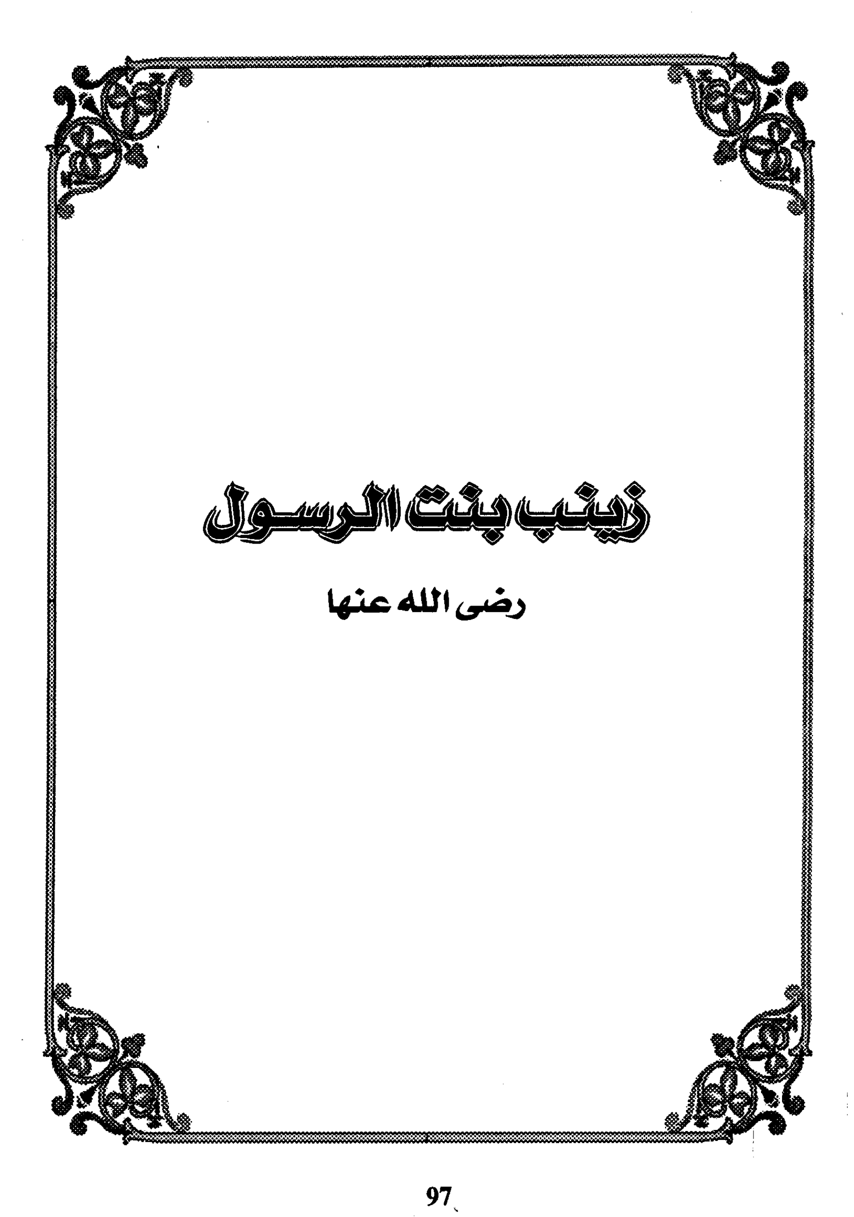
إذن الضرب شىء طارئ فى حالة طارئة، وليس قاعدة من القواعد التى تلازم الحياة الزوجية، ولا تصلح مسيرة الزواج إلا به. ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(٣).

وإلا كان الزوج متجنياً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التى جعلها الله فى يده للإصلاح بالمعروف لا للتحكم واتباع الهوى.

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة الصحاح بسنده عن أبى هريرة.

(٢) رواه الترمذى والطبرانى وابن ماجه فى النكاح (٥٠) والدرامى فى النكاح (٥٥).

(٣) سورة النساء الآية: ٣٤.



زينب بنت الرسول

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



قال الله تعالى:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

(الأحزاب: ٣٣)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير نزلت هذه الآية فى: آل بيت النبوة صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال ذلك ابن كثير فى التفسير (٣ ص٤٨٤- ٤٨٥).

وقاله صاحب الدر المنثور (٥ ص١٩٨- ١٩٩).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (١٤ ص ١٨٣- ١٨٤).

ولاشك أن زينب بنت الرسول ﷺ من آل البيت.

فمن هى زينب..؟



حياتها ونشأتها

أمها خديجة بنت خويلد، كانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة- وهى أول من آمن بالله عز وجل ورسوله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت: «هل كانت إلا عجوزاً، قد أبدلك الله خيراً منها».

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب.

ثم قال: «لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها.

آمنت بى إذ كفر الناس.

وصدقتنى إذ كذبنى الناس.

وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس.

ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء».

قالت عائشة: فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً.

وفى الحديث الذى رواه أبو داود بسنده عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وعندما نزل الوحى على رسول الله ﷺ وتتابع نزول جبريل عليه السلام عليه قالت له خديجة: يا بن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك إذا جاءك- تعنى جبريل عليه السلام- فلما جاءه جبريل عليه السلام.

قال: «يا خديجة، هذا جبريل قد جاءنى.

فقالت له: قم يا بن عم فاقعد على فخذى اليمنى ففعل.

فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

قالت: فتحول إلى اليسرى ففعل. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

قالت: فاجلس فى حجرى. ففعل، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

فألقت خمارها وحسرت عن صدرها. فقالت: هل تراه؟

فقال: لا.

قالت: أبشر فإنه والله ملك وليس شيطان.

ولقد ولدت له خديجة: القاسم، وبه كان يكنى ﷺ وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة.

وزينب رضي الله عنها كانت أكبر البنات، ولما أن بلغت العاشرة من عمرها، غدت محط أنظار فتيان كبرى العائلات فى قريش، ولكن لم يظفر بها سوى ابن خالتها هالة بنت خويلد.

كان أبو العاص يرقبها منذ طفولتها كلما أطل على بيت خالته خديجة، وكان مأخوذاً بجمالها ورقتها وذكائها.

كان أبو العاص يجلس معها ويحدثها عن أسفاره كلما عاد من تجارة له، فتأنس له ويأنس لها دون حذر، ولا حرج.

أما عن زينب: فقد بدأت ترى فيه قوة الشباب وتوازن الشخصية وهدوء الطباع وسعة الخبرة، وكانت ترتاح إليه وتحب أن تسمع حديثه وطرائفه.

وكانت خديجة- رضي الله عنها- ترقب نمو ابنتها، وكان يرضيها أن تكون من نصيب ابن أختها، وهى قد عرفته منذ طفولته الباكرة، كما أنها لم تكن تخفى عن زوجها الكريم محمد بن عبد الله رغبتها هذه. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى تمت خطبة زينب على أبى العاص بن الربيع الذى كان يعتبر أحد رجال مكة البارزين مالاً وأمانة وتجارة... وهو من قبل هذا ومن بعده يعد من أشراف قريش، ويلتقى مع محمد بن عبد الله فى جده الثالث عبد مناف، كما يلتقى مع زينب فى جدها خويلد.

ويصفه قومه بأوصاف كثيرة فهو كريم الخصال، حميد الأخلاق، طلق المحيا، كريم أمين- حتى لقبه قومه كما لقبوا محمداً بالأمين.

ثم كان الزفاف وأقيمت ليالى الفرح والسرور- ثم انتقلت إلى بيت زوجها فتركت فراغاً كبيراً ووحشة هائلة. ورغم أنها قد أخذت فى تدبير شئون بيتها لكنها ظلت تتردد على أمها وأخواتها وأبيها- كلما ابتعد أبو العاص عن مكة فى رحلة من رحلاته إلى بلاد الشام أو العودة منها.

وذات يوم ذهبت زينب إلى بيت أبيها- فسمعت أخباراً جديدة، وحملة قريش الضارية على أبيها بعد أن وقف على الصفا منادياً قومه وعشيرته: «أيها الناس إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة».

وما كان من غضب أبى لهب وتناوله أبيها بكلمات جارحة- ووعت أذن زينب رضي الله عنها كل هذه الأحداث وما كان فى غار حراء وقناعة خديجة بما أخبرها به زوجها وذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وتصديقه بما جاء.

إن أباها يدعو إلى مكارم الأخلاق.

يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الذى خلق السموات والأرض.

يدعو إلى المساواة بين الناس جميعاً لأنهم أبناء آدم، وآدم خلق من تراب.

يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان. يدعو إلى نبذ عبادة الشمس والقمر.

يدعو إلى نبذ عبادة الجن والملائكة.

إنه يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه عبد الله ورسوله.

وعندما وصلت زينب فى تصوراتها إلى ذلك أعلنت إسلامها، ودخولها فى دين الله الذى لا يقبل غيره ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾(١).

ثم عادت إلى بيتها هادئة النفس مطمئنة القلب، حامدة شاكرة لله تعالى أن هداها إلى الطريق المستقيم. ثم جلست تنتظر زوجها وتجمع شتات فكرها، وتتذكر الكلمات التى ألقتها على مسامعها أمها خديجة، حتى تدعو زوجها إلى الإسلام.

وعندما عاد أبو العاص وأخبرته بدخولها إلى الدين الجديد، وتدعوه هو الآخر إلى إعلان إسلامه وترك عبادة الأوثان والأصنام. سمعته يتمتم بينه وبين نفسه ببعض الكلمات ولكنه لم يبين، وعندما ألحت عليه فى ذلك أخبرها أنه لم يقتنع بعد بما جاء به أبوها، وأن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى يكف محمد عما يدعوهم إليه. فهو متمسك بدين آبائه وأجداده حتى ترى قريش رأيها.

اشتد النقاش بين زينب وزوجها فخرج أبو العاص من الدار حائراً، وعاد إلى الدار فى آخر الليل صامتاً، وأخبرها أنه لقى أباها فى الكعبة فدعاه إلى الإسلام.

وهكذا انتصب حاجز بين زينب وزوجها، وأخذ ينمو شيئاً متصاعداً مع تطورات الأحداث بين أبيها وقريش.

فها هو الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش يلتقى بالرسول ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبو جهل بن هشام فأتاه فقال: أى عم إن

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟ قال: يعطونكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما عنده. قال قد علمت قريش أنى أكثرهم مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه...؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده وليس بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليَعْلُو وما يُعْلَى عليه.

قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره. عندها نزل الوحى على رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(١).

وما تبع ذلك من اضطهاد قريش لأبيها وأتباعه، ومحنة الحصار وموت عمه أبى طالب وأمها خديجة. وتآمر أهل مكة على قتل الرسول ﷺ ثم هجرته إلى يثرب. كانت زينب تلاحق أخبار أبيها ساعة بساعة، وهى ترتجف قلقاً وخوفاً عليه حتى علمت بوصوله ﷺ إلى يثرب سالماً عندها اطمأن قلبها. ولم يمض وقت طويل على وصول الرسول ﷺ إلى يثرب حتى لحقت به ابنتاه فاطمة وأم كلثوم.

وبقيت زينب وحيدة فى مكة- مرتبطة إلى زوجها الذى مازال متمسكاً بدين آبائه ولم يعد أمام زينب إلا تلاوة القرآن، فإذا غلبها الحنين ذرفت الدموع الغزار. ولم تلبث الأحداث أن تسارعت من جديد فقد أغار المسلمون على قافلة أبى سفيان فنفرت قريش برجالها.

---

(١) سورة المدثر الآيات: ١١- ٢٥.

وفى يوم ليس كمثله يوم لمحت زينب خروج ألف مقاتل من مكة ومعهم زوجها أبو العاص لحرب أبيها، فتصدع قلبها، وأحست مرارة التمزق بين أبيها وزوجها. وهو وضع عايشته- رملة بنت أبى سفيان حين أصبحت زوجة للرسول- وأباها على كفره، إنهما وضعان متعاكسان، وإن كانت مرارتهما واحدة. وما هى إلا أيام قليلة فى عمر الزمن حتى وصلت إلى مكة أخبار انتصار المسلمين فى موقعة بدر وأخذ المسلمون المستضعفون فى مكة يرددون قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١).

وكم كانت فرحة زينب لنصرة أبيها ومن معه من جماعة المسلمين، ولكن هذه الفرحة، شابها أن زوجها ووالد أولادها قد وقع فى الأسر، فيمن وقع من قريش وتسارعت قريش فى تجهيز الفدية التى طلبها رسول الله ﷺ لفك سراح الأسرى. فأرسلت زينب الفدية لفك سراح زوجها.

عن عائشة ﵂ قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حتى بنى عليها.

قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة.

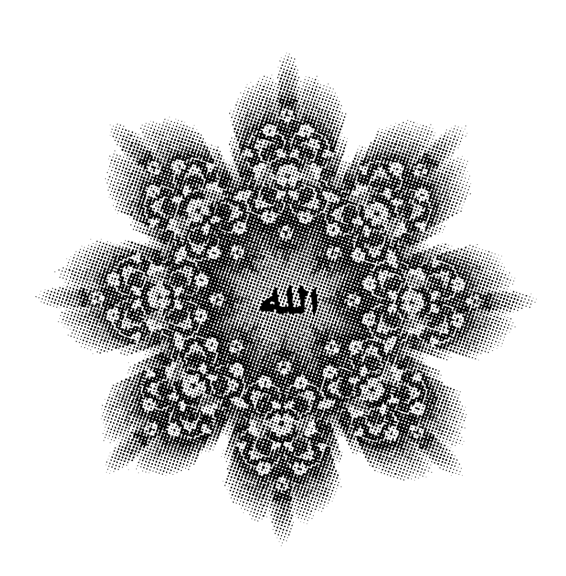
وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا»

فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها»(٢).

(١) سورة آل عمران الآيات: ١٢١- ١٢٦. (٢) راجع سيرة ابن هشام (٢: ٢٩٧).

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه، أو وعد رسول الله ﷺ بذلك، أن يخلى سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله فيعلم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلى سبيله بعث رسول الله زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار مكانه فقال: «كونا ببطن يأجج[1] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها».

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها.



(١) مكان بين مكة والمدينة- وهو أقرب منه إلى المدينة.

تجهيز زينب للهجرة إلى يثرب

قالت زينب ﵂ بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى لقيتنى هند بنت عتبة فقالت: «يا بنت محمد، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك» قالت: فقلت ما أردت ذلك. فقالت: أى ابنة عمى، لا تفعلى إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا تستحى منى. فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت.

الرحيل

فلما فرغت بنت الرسول ﷺ من جهازها قدَّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته- ثم خرج بها نهاراً يقود بها- وهى فى هودج لها- وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بمكان يسمى- بذى طوى- فكان أول من سبق إليها- الشقى، هبار ابن الأسود فروعها هبار بالرمح وهى فى هودجها- وكانت زينب ﵂ حاملاً فلما ريعت طرحت ما فى بطنها، وبرك أخو زوجها ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً فانهزم الناس عنه.

ثم أتى أبو سفيان بن حرب فى جماعة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكف كنانة عن رميهم بالنبل. فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: «إنك لم تُصب، وخرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذ خرجت ابنته إليه علانية على رؤوس الناس بين أظهرنا أن ذلك على ذُل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من طلب ثأر. ولكن ارجع بالمرأة

حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها فخذها سراً وألحقها بأبيها.

قال: ففعل، فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه. فقدما بها على أبيها عليه السلام.

عادت زينب إلى أبيها واستقرت فى بيته وبين إخوتها- عادت إلى القلب الحنون إلى الرحمة المهداة، حيث الأمن والأمان، ولكن هل نسيت زينب زوجها هل غاب عن ذاكرتها لحظة؟

إن رواة التاريخ يقررون أن زينب كانت بارة بأبيها، ذاكرة لذكريات زوجها وما كان فيها من مودة ورحمة.

وعكفت على كتاب ربها تسأله أن يهدى زوجها إلى الإسلام، وأن يهبها السكينة والاستقرار حتى تتحمل فراق زوجها.

ومرت عليها الأيام ثقيلة متباطئة حتى كان يوم خرج أبو العاص بتجارته إلى الشام- وكان رجلاً مأموناً- بمال له وأموال لرجال قريش حملوها له، فلما فرغ من بيع تجارته وأقبل عائداً إلى مكة، لقيته كوكبة من فرسان الرسول ﷺ فأصابوا ما معه من التجارة- وفر منهم هارباً، فلما قدمت الكوكبة بما أصابوا من ماله إلى المدينة، أقبل أبو العاص تحت ظلام الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته، وجاء فى طلب ماله.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس صرخت زينب من صُفَّة النساء: «أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع» قال: فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

ثم إن رسـول الله ﷺ بعث إلى السـرية الذين أصـابوا مـال أبى العـاص فـقـال: «إن هذا الـرجل منا حيث علمـتم، وقد أصـبـتم له مـالاً فـإن تحـسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به».

قالوا: يا رسول الله بل نرده عليه. قال: فردوه عليه لم ينقص منه شيئاً.

مـرحى لهؤلاء الرجـال الذين تربوا فـى مـدرسـة الإسـلام إنهم أمناء على دينهم حتى يبلغوه إلى البشرية كلها، وأمناء على أموال الغير وأعراضهم، فلا تمس من قريب أو بعيد.

إنهم الرجـال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه بقـوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾[١].

إنهم الرجـال الذين خـرجـوا من الجـزيرة العـربيـة- بـغـيـة نشـر دين الله تعـالى وكانوا يحمـلون سيوفهم، ومن وراء سـيوفهم أخـلاقهم، فكأن سـيوفهم نفسها ذات أخلاق.

ثم عـاد أبو العـاص إلى مكة، وترك فى يثـرب من أحب الناس إلـى قلبـه إنها زينب وأبوها. فمتى يعود إليهما؟

وفى اليوم التالى لوصوله: أدى لكل ذى حق حقه من المال الذى حمله ثم جمعهم قريباً من بيت الله الحرام. حتى إذا كانوا أمامه قال لهم: يا معشـر قريش: هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا جميعاً: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيّاً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩.

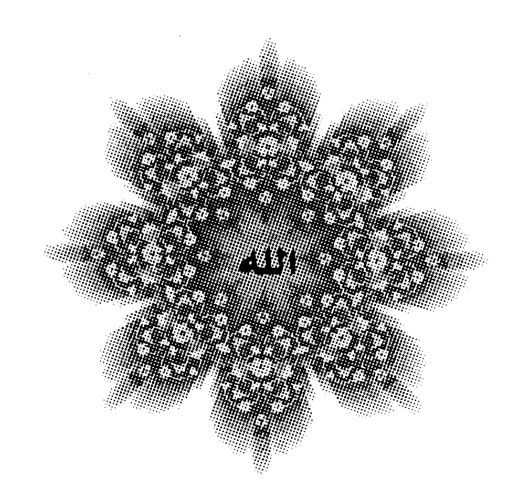
أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

وما أن وصل المدينة، حتى دخل على الرسول ﷺ فى المسجد وبايعه فهلل الناس وكبروا. ثم قام النبى وأخذ بيده وتوجها معاً نحو زينب الصابرة المؤمنة المحبة رضي الله عنها.

كان إسلام أبى العاص فى السنة السابعة للهجرة، ولكن ما أن اجتمع شمل العائلة من جديد حتى جاء الفراق الذى لا لقاء بعده.

وكان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة، وهدَّ المصاب أبا العاص فعاش فترة وجيزة يجتر أحزانه، ويتجرع آلامه- حتى لحق بها بعد أربع سنوات، وكأنها الدهر كله.

وبموت زينب أحب الناس إلى قلب الرسول ﷺ طويت ملحمة من ملاحم. الوفاء والإخلاص، والنبل والفداء. رحمها الله رحمة واسعة، وأسكن الزوجين فسيح جناته.



أسباب النزول

قال ابن جرير: بسنده عن أم سلمة ﵂ قالت: جاءت فاطمة ﵂ إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت ﵂: فى البيت. فقال ﷺ: ادعيهم. فجاءت إلى علىّ ﵁ فقالت: أجب رسول الله ﷺ أنت وابنك.

قالت أم سلمة ﵂ فلما رآهم مقبلين مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

وقال ابن جرير (طريق آخر) بسنده عن الأعمش عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا على بن أبى طالب ﵁ عند أم سلمة ﵂ فقالت: فى بيتى نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(١).

قالت أم مسلمة جاء رسول الله ﷺ إلى بيتى فقال: «لا تأذنى لأحد».

فجاءت فاطمة ﵂ فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن ﵁ فلم أستطع أن أمنعه يدخل على جده وأمه، وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده ﷺ وأمه ﵂ ثم جاء على فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا، فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

فنزلت هذه الآية حتى اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت يا رسول الله وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم. وقال: إنك على خير(٢).

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٣.

(٢) راجع تفسير ابن كثير (٣: ٤٨٦).

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى المعدل عن عطية الطفاوى عن أبيه قال: إن أم سلمة رضي الله عنها حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوماً إذ قالت الخادم إن فاطمة وعلياً رضي الله عنهما بالسدة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «قومى فتنحى عن أهل بيتى» قالت: فقمت فتنحيت فى البيت قريباً فدخل علىٌّ وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين- رضي الله عنهم- وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما واعتنق علياً بإحدى يديه، وفاطمة رضي الله عنها باليد الأخرى، وقبل فاطمة وقبل علياً وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال: «اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى». فقالت: وأنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: وأنت.

وعن ابن جرير بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها خرج النبى ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها معه ثم جاء علىّ فأدخله معه ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن حوشب عن عم له قال: دخلت مع أبى على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علىٍّ رضي الله عنه.

فقالت رضي الله عنها: تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟

لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك.؟ فقال عليه السلام: «تنحى فإنك على خير»[1].

(١) راجع تفسير ابن جرير عند حديثه عن هذه الآية.

وقال مسلم فى صحيحه بسنده عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه فلما جلسنا إليه قال له حصين، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً: رأيت رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً.

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال:

«يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوا فيه. ثم قال: قام فينا رسول الله يوماً خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما: كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه.

ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته، قال نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علىٍّ، وآل عقيل، وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم[1].

وفى رواية محمد بن الريان بسنده عن زيد بن الأرقم رضي الله عنه فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه فقلت له من أهل بيته ونساؤه؟ قال: لا. وايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى فضائل الصحابة (٣٦- ٣٧) والدارمى فى فضائل القرآن (١) وأحمد بن حنبل فى المسند (٣: ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ٤: ٣٦٧، ٣٧١) (حلبى).

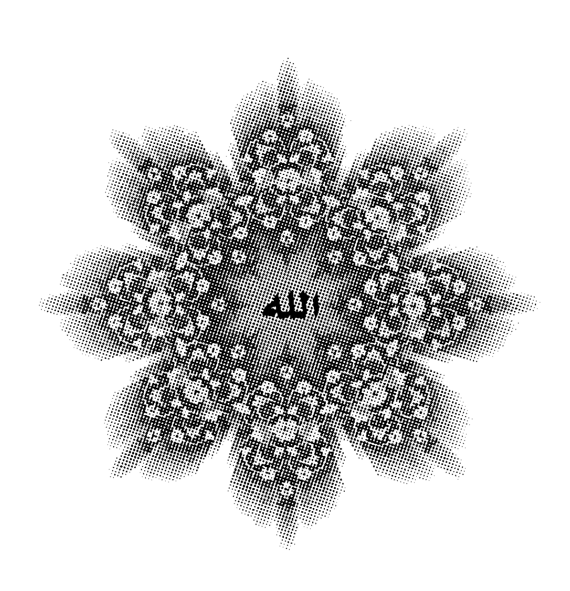
قال ابن كثير: ثم الذى لا يشك فيه من تدبر القرآن: أن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(1).

فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال الله تعالى بعد هذا كله:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(2).

هذا وبالله السداد والتوفيق وهو أعلم بالصواب.



(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٤.


تذييل
الوفاء وأثره فى تحقيق
السعادة فى الحياة الزوجية

الوفاء وأثره فى تحقيق السعادة فى الحياة الزوجية

الوفاء صفة محمودة فى الرجال والنساء. والوفاء دليل الصدق والحب والإخلاص، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى الأوفياء بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

ووعد الأوفياء بالأجر الكبير قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

والوفاء دائماً يرتبط بالتقوى، ومن ثم لا يتغير فى التعامل مع عدو أو صديق، ولقد كانت زينب بنت الرسول ﷺ مثالاً حيّاً فى الوفاء-

الوفاء لأسرتها التى ترعرعت بين أحضانها.

والوفاء لدينها الذى أكرمها الله به، والوفاء لزوجها الذى ارتبطت به.

ومن أجل ذلك ما كادت تعلم بأسر زوجها، وأنه لا يطلق سراحه إلا بالفدية. حتى سارعت بتقديم الفدية بأغلى شىء يمكن أن تحافظ عليه وهو القلادة التى قدمتها لها أمها يوم زفافها.

إن هذه القلادة تحمل ذكريات عطرة لا يمكن أن تمحى أو تنسى بتقادم الزمن. إن هذه القلادة هدية الأم الحنون التى سهرت الليالى، حول مهدها تهدهده وترعاها من كل شىء يمكن أن يصيبها. إنها أغلى الناس وأبر الأمهات.

وأيضاً ارتبطت هذه القلادة بليلة الزفاف، تلك الليلة التى هى أغلى الليالى وأحلى الأيام فى حياة كل عروس تزف إلى رجلها.

(١) سورة آل عمران الآية: ٧٦. (٢) سورة الفتح الآية: ٢٠.

ولكن الوفاء دفعها أن تقدمها عن طيب خاطر حتى يعود إليها زوجها الذى يملأ الحياة حولها نوراً وبهاء.

ولا شك أن هذا الموقف الذى وقفته زينب، يحسب لها على صفحة التاريخ بأحرفٍ من نور، ولقد كان له فى قلب أبى العاص الفرحة التى لا تنسى، والنغمةُ الحلوة التى لا تمحى، والأريج الذى لا يبدده الأثير، ولا يتلاشى عند هبوط أعاصير الزمن.

وهل ينسى أبو العاص عندما حاصره الأعداء وسدت أمامه كل المنافذ، وأوشك أن يكون طعمة لسيوفهم وهدفاً لرماحهم، ولم يكن أمامه مفر إلا اللجوء إلى زينب أملاً أن يجد فى جوارها الأمن والأمان. فكانت عند حسن ظنه، وفتحت قلبها ووفاءها للزوج المطارد وقامت لتعلن أمام جموع المسلمين كلمتها التى دوت أصداؤها فى مسجد الرسول ﷺ.

«أيها الناس: إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع» عندها تبدل الخوف أمناً، والحزن فرحاً، وردت إليه الأموال التى أخذت منه وعاد إلى مكة، وعلى رأسه أكاليل الفوز والظفر.

ولقد بادلها أبو العاص وفاء بوفاء وحبّاً بحب، وكان لها نعم الزوج الحنون، والأب البار لأبنائها، ومن أجل ذلك قال عنه الرسول ﷺ: «حدَّثنى فصدقنى ووعدنى فوفانى».

وبهذه الكلمات الصادقة الطيبة التى قالها رسول الله ﷺ نستطيع أن نضع أيدينا على مفاتيح شخصية هذا الرجل الذى قبله رسول الله صهراً له.

إن من أهم الصفات التى يتميز به أبو العاص الصدق، والصدق من علامات الإيمان، وشاهد على تكامل الشخصية والرجولة.

والرجل الصادق قريب من الناس، لأنه يصدقهم ولا يخدعهم.

وقريب من الله سبحانه وتعالى، لأدائه ما أمره به من عبادات وتكاليف.

الرجل الصادق يستمر فى صدقه حتى يصبح عند الله صديقاً، والرجل الكاذب يستمر فى كذبه حتى يكتب عند الله كذاباً.

والأمم والشعوب كالأفراد فى صفة الصدق والكذب، فالأمة التى تنشئ أبناءها على الصدق يزداد رصيدها من الرجال الأقوياء الذين يعملون بصدق وإخلاص.

فهم صادقون فى عملهم، يجودونه ويهتمون به.

وهم صادقون مع مجتمعهم يعملون لسعادته ويسهرون على راحة أبنائه، فإذا كانوا جنوداً وقفوا على حدوده ودافعوا عن حياضه.

وردوا عنه- بصدقهم- وحسن بلائهم هجمات المهاجمين، وغارات المغيرين، وإن كانوا فى داخله فهم مع الإنتاج حتى يزيد.

ومع الأرض القاحلة حتى تخضر، ومع الأغوار البعيدة حتى تستخرج المعادن.

ومع الأطفال الصغار بالتعليم والتدريب والرعاية، حتى يودعوا عهد الطفولة وينضموا إلى صفوف الرجال، وما أحوج الأمة الإسلامية فى عهدها الراهن إلى مجتمع الصادقين.

• والصفة الثانية فى زوج زينب ﷺ الوفاء.

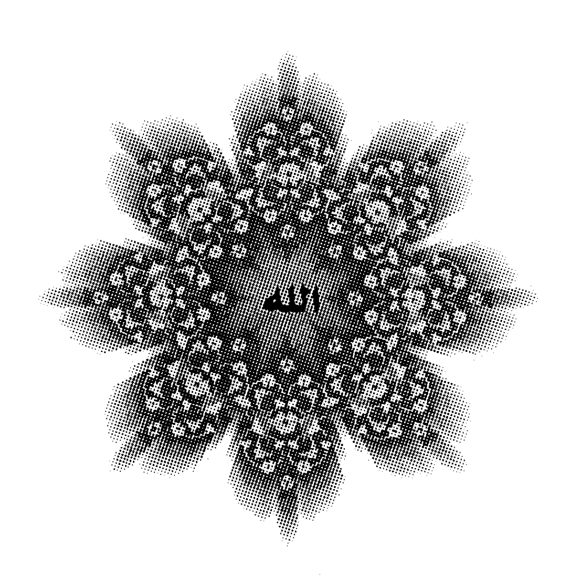
والوفاء: أحد المعالم الأساسية فى شخصية الرجل المسلم، والمرأة المسلمة، ولا يكتمل إيمانهما وإسلامهما إلا إذا تحليا بهذه الصفة الجليلة.

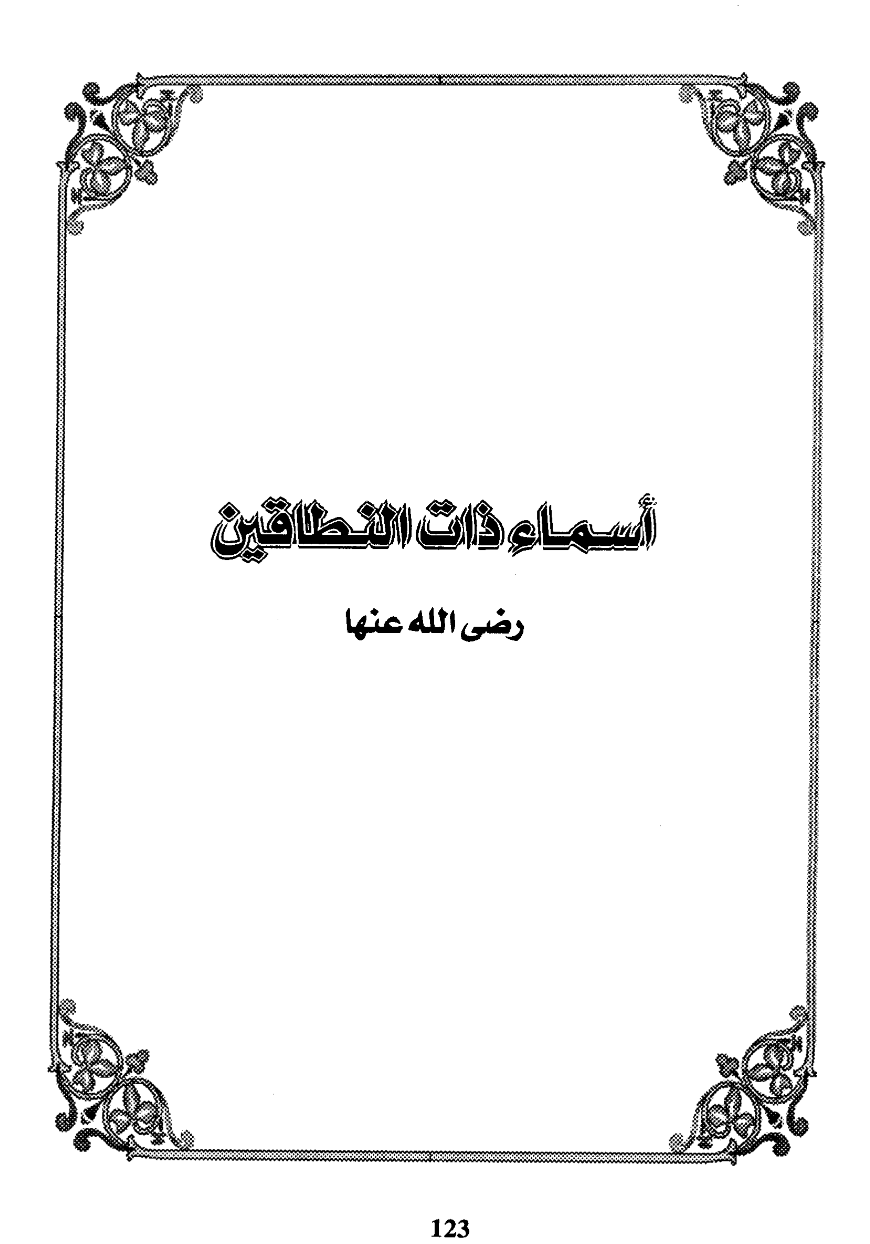
لقد كان أبو العاص، يستطيع أن يعلن إسلامه فى المدينة، ويستولى على تجارة قريش وأموالها وهو إذا فعل ذلك لا يعارضه إنسان، ولا تستطيع قريش أن تنال منه أو تصل إليه ولكنه لم يفعل- لأنه إن فعل ذلك- لا يقبله الإسلام الذى يريد الانتماء إليه ولا يقبل منه صلاة ولا صياماً، ولا دعاء، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فهو من أصحاب النار.

وفى عصرنا هذا نرى شيئاً عجباً دولاً كبيرة، تدعى أنها ذات حضارة وتمدن تسطو على أموال الشعوب التى اؤتمنت عليها فى مصارفها فتجمدها تارة، وتستولى عليها أخرى.

وهى بهذا العمل تخالف الأعراف الدولية، وتخون الأمانة التى اؤتمنت عليها، وتمزق كل روابط العهود والمواثيق.

فمتى تعود هذه الدول- إلى شرع الله؟ متى تعود إلى أبسط قواعد الإنسانية التى أخذت نفسها بها فى تاريخها الطويل؟ متى يحدث هذا حتى يعود الأفراد والجماعات إلى الوفاء بالوعد، والصدق فى القول والأمانة فى المعاملات. فمتى يحدث هذا يا رب؟؟ إنا لمنتظرون.



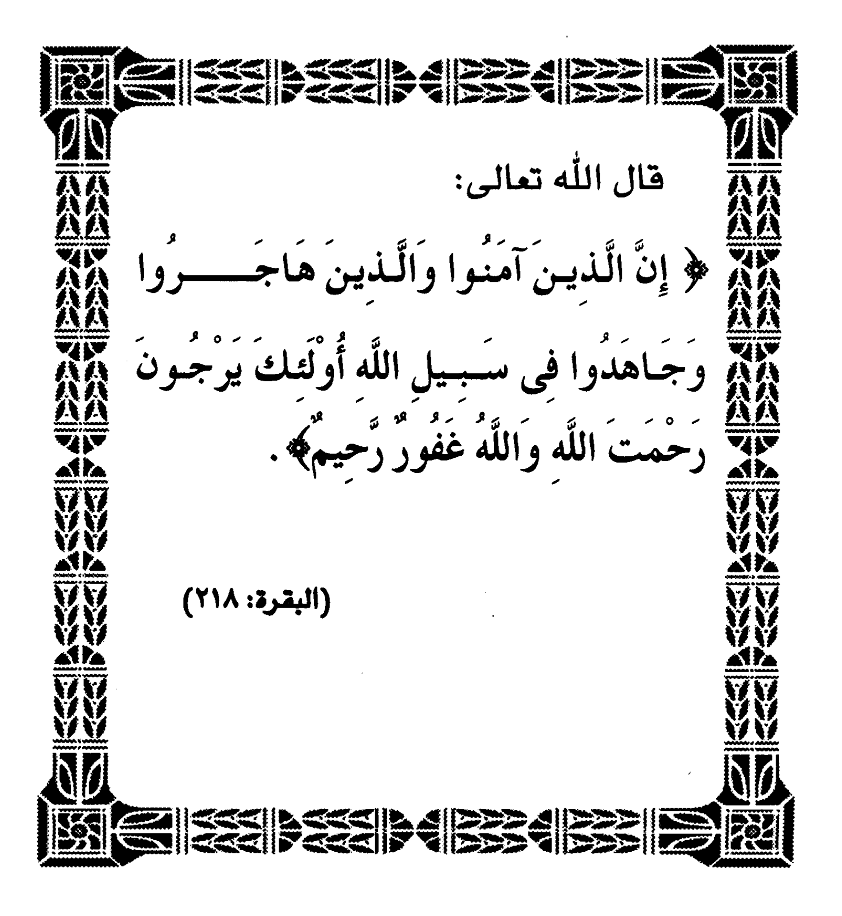


أسماء ذات النطاقين

رضى الله عنها



بسم الله الرحمن الرحيم



أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

هذه الآية الكريمة هل نزلت فى حادثة معينة؟

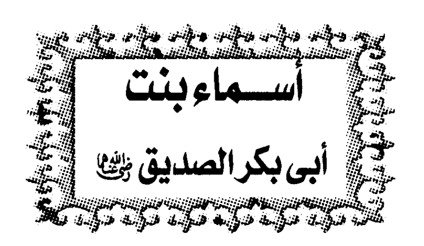
أم أنها دعوة إلى الهجرة إلى الله، والفرار إليه؟

وهل هى خاصة بالمهاجرين من الرجال فقط.

أم تراها تعم الرجال والنساء؟

إن الرأى الراجح يقول: إن هذه الآية تشمل كل المهاجرين والمهاجرات، ولقد هاجرت أسماء إلى مدينة الرسول ﷺ فهل يمكن أن تشملها هذه الآية؟ وإذا كان ذلك كذلك.

فمن هى أسماء ذات النطاقين..؟



حياتها ونشأتها

والدها أبو بكر الصديق- رضي الله عنه - أول من آمن بالرسول ﷺ من الرجل والذى قدم ماله كله فى سبيل الدعوة إلى الله، وعندما سأله الرسول ﷺ ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر: قال: تركت لهم الله ورسوله.

ورفيق الرسول ﷺ فى الهجرة إلى يثرب. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١).

وصاحبه هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وأختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وزوج الرسول ﷺ وأحب الناس إلى قلبه، وعندما حدثت حادثة الإفك، نزلت براءتها من السماء قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة الآية: ٤٠

(٢) سورة التوبة الآيتان: ١١، ١٢.

وزوجها الزبير بن العوام الذى قال عنه رسول الله ﷺ: «إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير». وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

أما عن أسماء: فهى ولدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين عاماً وامتدَّ بها العمر لتموت بعد الهجرة بثلاثة وسبعين عاماً أى أنها عاشت قرناً كاملاً من الزمن.

وقد التفت التاريخ إليها ليسجل أعمالها من تاريخ الهجرة عندما أطلق عليها رسول الله ﷺ ذات النطاقين.

من ذلك أنه فى ليلة من الليالى دخل رسول الله ﷺ ليبلغ أبا بكر أباها بقرار الهجرة إلى يثرب. ولقد اتخذ الرسول ﷺ هذا القرار بعد أن اجتمعت قريش فى دار الندوة ومعهم إبليس اللعين، واقترح عليهم أبو جهل أن تختار كل قبيلة شاباً منها ثم يهجم هؤلاء الشباب مجتمعين فيضربوا محمداً ﷺ ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، ولا تستطيع بنو هاشم أن تعادى قريشاً كلها لأنهم لا قدرة لهم على ذلك.

وهكذا خرج الرسول ﷺ مع صاحبه أبى بكر إلى غار فى جبل ثور واختبأ هناك وفى الصباح علمت قريش بخروج الرسول ﷺ، فأرسلت بعض فرسانها لمطاردته والعودة به إلى مكة.

وفى المساء كانت أسماء بنت أبى بكر وحدها دون جماعة المسلمين تحمل الطعام والشراب إلى النبى ﷺ فى مخبئه. وفى الليلة الثالثة، وصل الدليل عبد الله بن أريقط، فخرج النبى وصاحبه استعداداً للرحيل، فحملت أسماء سفرة الطعام ولم تجد ما تربطها به إلا النطاق ففكت نطاقها وشقته نصفين، ربطت السفرة بأحدهما، وانتطلقت بالشق الآخر ومن ذلك التاريخ لقّبت بذات النطاقين.

ولم تكد أسماء تعود إلى البيت وتستقر بداخله حتى قرع الباب، وأطل عليهم نفر من قريش على رأسهم أبو جهل وسألها : أين أباك؟ ولكنها أنكرت معرفتها أين ذهب أبوها . وأخذ عدو الله فى محاورتها، عله يأخذ منها بصيصاً من النور يدله على أبيها وصاحبه، وعندما أصرت أسماء على موقفها لطمها عدو الله أبو جهل لطمة عنيفة أطاحت قرطها وكانت لها آثارها السيئة على أذنها لفترة طويلة؟؟

ولقد دخلت أسماء بنت أبى بكر إلى الإسلام فى وقت مبكر، وكانت من أولئك الذين أضاء الله قلوبهم بنوره فى بدء الدعوة إلى الإسلام.

ثم تزوجت الزبير بن العوام. فكانت له الزوجة المخلصة أم البنين والبنات، وكانت تكبر أم المؤمنين عائشة ﷺ بعشر سنوات، وقد شهدت قتله بعد معركة الجمل، فكان حزنها فيه كبيراً، وتمنت اللحاق به ولكن لكل أجل كتاب.

وتكر الأيام وتمر الليالى ويبايع ابنها خليفة للمسلمين، والذى كان موطنه مكة المكرمة، ولكن بنو أمية لم يسلموا له بذلك، وخرج جيش جرار من الشام بقيادة الحجاج الثقفى، ليجبره على التنازل أو يقتله إن رفض الأولى، وتم حصار مكة على من فيها، وأخذت المناوشات بين القوة الضاربة التى جاءت من الشام والقوة المؤمنة الصابرة داخل مكة، وكان الهول كبيراً تساقطت قذائف المنجنيق على أعمدة الكعبة، وأخذ أتباع عبد الله بن الزبير يفرون منه ويتركون خليفتهم للمصير المجهول.

عندها ذهب عبدالله إلى أمه أسماء، وقد بلغت مائة سنة وأصبحت عمياء فقال: يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى، فلم يبق معى إلا اليسير.

فقالت الأم: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب

بها غلمان بنى أمية.

وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك.

وإن قلت كنت على الحق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين. ثم تابعت حديثها قائلة له كم خلودك فى هذه الفانية؟ القتل أحسن؟؟

فدنا منها وقبل رأسها وقال: هذا والله رأيى يا أماه، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى.

ثم اقترب من أمه قائلاً: فانظرى يا أماه، إنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر لله تعالى.

قالت الأم المكلومة: صدقت يا بنى أتم الله عليك بصيرتك، وادن منى أودعك فدنا منها فقبلها وعانقها. ثم خرج إلى القتال وظل يقاتل حتى قتل.

ولقد وضع الحجاج جثة عبد الله بن الزبير على خشبة ورفعها، وحلف ألا ينزل من عليها حتى تشفع فيه أمه. لكن أسماء المؤمنة الصابرة، أبت أن تخفض رأسها للحجاج أبداً، وهى تعلم أن ابنها مات شهيداً فى سبيل الله وذهبت روحه إلى ربه، وهو حى يرزق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

فظل معلقاً سنة كاملة حتى مرت تحته وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ ففسر كلامها على أنه شفاعة فأنزل؟

وفى رواية أن عبد الله بن مروان أمر بإنزاله، وكانت أمه تقول: اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٩.

وحين حدث هذا واستقرت الجثة فى قبرها ماتت بعده بأسبوع واحد، وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج دخل فى يوم من الأيام على أسماء متكبراً وقال لها:

كيف رأيتنى صنعت بابنك؟

فقالت:

أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك. إنها المرأة الحكيمة المؤمنة. إنها بنت أبى بكر الصديق - رضي الله عنها.

ولقد اكتسبت أسماء من أبيها الكثير من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، إنها الأم التى ربت فأحسنت التربية، وتزوجت فكانت زوجة مثالية، وهاجرت بدينها، وفرت إلى ربها، وسجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور.

ونتساءل لو عادت أسماء ذات النطاقين إلى حياتنا المعاصرة، وأرادت أن توصى بنات جنسها وهن مقبلات على الزواج فماذا تراها قائلة لهن حتى يصبحن زوجات صالحات، وأمهات بارات، ونساء مسلمات محصنات؟



تذييل

نصيحة الأمهات إلى البنات قبل الزفاف

نصيحة الأمهات الى البنات قبل الزفاف

قلنا فى حديثنا السابق أن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنها الصابرة المؤمنة، القانتة الصادقة، الأم الحنون، والزوجة الوفية، لو عادت إلى حياتنا المعاصرة تلك الحياة التى طغت عليها الأفكار الوافدة من الشرق والغرب فهى تغزو وتسلب وتغير وتبدل.

وأرادت إحدى الفتيات المسلمات أن تستعين بخبرتها فى الحياة، وبتجربتها فى معاملة زوجها- حتى تقام حياة أسرية سعيدة- فماذا تراها قائلة لها.

إننا نتصور أن تبدأ حديثها معها بقولها:

ابنتى المسلمة: إن العلاقة بينك وبين زوجك يجب أن تقوم على الحب والمودة، بحيث يأتلف بها قلباكما، وتتصل بها روحاكما وحتى يصبح كلاكما موضع سرّ الآخر وشريكه فى البؤس والرخاء... ويجب أن يكون بينك وبين زوجك من الملازمة والاتصال الأبدى ما يكون بين الجسد والثوب. فأنت وكل زوجة موضع الراحة والسكينة لأزواجكن، ولا وظيفة فطرية إلا أن تهيّئ لزوجها أمنه وسكينته وراحته.

وأول نصيحة أقدمها لك:

أن تطيعى زوجك فيما يأمرك به سرّاً وعلانية، لأن الطاعة مجلبة للهناء والرضا والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء. وطاعة الزوج أمر به الرسول ﷺ عندما قال لأم سلمة: «إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت

المغزل كانت كأنها تسبح لله»(١).

وقال ﷺ: «جهاد المرأة «حسن التبعل» أى طاعة الزوج والتزين له.

وقيل له: يا رسول الله: أى النساء أفضل؟ فقال ﷺ: التى تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر»(٢).

وطاعة المرأة لزوجها تقيم الأسرة المتماسكة التى يكون فيها الوالدان قدوة لأولادهما، فينشأوا على طاعة الوالدين لما يرون فى برّ الوالدين وطاعتهما النموذج الكريم للتطاوع وعدم التخالف.

وكم يسئ إلى الأولاد موقف الأم النشاز من أمر الوالد ويثير فيهم النفور والتمزق، وربما دفع إلى عدم احترام الوالدين على الكبر، مما يرون فى الوالدين من خلاف ونزاع وشقاق.

ولكى تعرفى ما فى طاعة الزوج من إرضاء لله وإرضاء للرسول ﷺ وإقامة دعائم البيت على المحبة والولاء أضع بين يديك هذه الواقعة التى حدثت فى عهد الرسول ﷺ.

« .. قدم معاذ بن جبل من الشام وعندما رأى رسول الله ﷺ سجد بين يديه فقال ﷺ: ما هذا؟

قال: يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: فلا تفعل فإنى لو أمرت شيئاً أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»(٣).

ثم قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه .　　(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه ابن ماجه باب (٤) حق الزوج على المرأة، أحاديث رقم ١٨٥٢- ١٨٥٤، جـ١ ص٥٩٥.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨١، وابن ماجه (١٨٥٣).

ثانياً يا بنيتى:

لا تغادرى بيت زوجك إلا بأمره، ولا تذهبى إلى أهلك إلا بإذنه لأن خروجك من بيتك إلى أى مكان بغير علم زوجك فيه إشارة إلى عدم الاهتمام به أو المحافظة عليه. ويذكرنى موقفك هذا بالمرأة التى أرادت أن تتزوج فجاءت إلى الرسول ﷺ وقالت: يا رسول الله ما حق الزوج؟ إنها أرادت أن تعرف حقوق زوجها- قبل الارتباط به- حتى تؤديها وتعود نفسها على القيام بها فقال:

«إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها وراودها عن نفسها وهى على ظهر بعير لا تمنعه.

ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه فإن فعلت كان الوزر عليها والأجر له.

ومن حقه ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يُتقبّل منها. وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب».

إن خروجها يهدد العش الآمن الدافئ المستقر الراضى بالآلام والمخاوف والقلق، وهذه هى معاول الهدم للسعادة الأسرية.

ثالثاً يا بنيتى:

أرى أن تهتمى بتربية أولادك وتعويدهم على اتباع الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، ولا شك أن زوجك يضرب فى فجاج الأرض ليهيّئ لك ولأولادكما حياة هانئة مستقرة. فعليك أن تكونى راعية فى بيتك ومسئولة عن رعيتك.

وقد امتدح النبى ﷺ نساء قريش معلّلاً فضلهنّ على غيرهن بأنهن أحناهنّ على ولد. والمرأة التى تترك أولادها للخدم أو الشارع إنما ترمى فى

الهاوية بمستقبلها ومستقبل أبنائها.

إن الطفل- يا بنيتى- يتعلم من أمه كل شىء والأم التى تملأ البيت صراخاً إنما تصبّ فى هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها فى الحديث.

والأم الصادقة- والتى تنكر ذاتها من أجل الغير- تورث أبناءها هذه الصفة التى يحتاجها المجتمع الإسلامى.

والأم التى تحترم زوجها وتقدر أهل الفضيلة والدين، وتتحاشى الرذيلة وتنفر منها ومن صحبة أهليها، تورث هذه العادة أبناءها وبناتها فيشبّون على الفضيلة نافرين من الرذيلة.

والأم التى تحرص على النظافة فى نفسها وبيتها كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه، إنما تزرع هذه العادة فى أبنائها فلا يستثقلون أعباء النظافة والنظام، لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة ولا يهنأ لهم مقام إلا إذا نهضوا إلى النظافة والنظام.

ثم لا تنسى أن تعتنى بمرأى زوجك ومسمعه. وذلك بأن يرى بيتك نظيفاً رتيباً وأن يرى النظام والذوق فى متاعه.. وأن يرى فى أولاده التربية والأدب.

رابعاً يا بنيتى:

أن تقومى بخدمة بيتك، لأنه واجب عليك، ولا شك أن العمل منك فى داخل البيت أول دليل على تعاون الأسرة وتماسكها. ولتعلمى أنك لست أول واحدة تقوم بخدمة بيتها ولن تكونى الأخيرة يستوى فى ذلك الغنية والفقيرة.

وتعالى معاً نستمع إلى قصة أسماء بنت أبى بكر الصديق- رضي الله عنهما- وهى تتحدث عن خدمتها فـ [illegible] تها.

قالت: تزوجنى الزبير بن العوام، وما له فى الأرض من مال غير فرسه وناقته. فكنت أعلف فرسه وأسوسه، وأدق النوى لناقته، وأستقى الماء وأخيط

الدلو وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ- حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بخادم يكفينى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى، فجئت يوماً والنوى على رأسى فدعانى رسول الله ﷺ لأركب خلفه على ناقته- فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته- وكان أغير الناس- فعرف رسول الله إنى أستحييت فلم يثقل علىَّ.

فجئت الزبير فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى- ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك.

فقال: والله لحملك النوى كان أشد علىَّ من ركوبك معه. قالت: واستمر وضعى على ذلك حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتنى مؤنة الفرس فكأنما أعتقنى.

وتتابع أسماء ﵂ حديثها إلى الفتاة المعاصرة قائلة:

والنظافة يا بنيتى للمرأة ألزم من الجمال، لأن الجمال لا يلبث أن يزول متى زالت نضارة الشباب، أما النظافة فعادة باقية ما بقيت المرأة، ولذا حث الإسلام عليها. ولا شك أن المرأة التى تهمل نظافة نفسها تعمل على إبعاد زوجها بيدها ليرتمى فى أحضان أخرى نظيفة.

وتحضرنى يا بنيتى هذه الوصية التى قدمتها امرأة لابنتها قالت: لا تنسى نظافة بدنك فإن نظافته تحبب زوجك إليك، ونظافة بيتك تشرح صدرك، وتصلح مزاجك، وتنير وجهك، وتجعلك جميلة، ومحبوبة ومكرمة عند زوجك، ومشكورة من أهلك، ومن ذويك وأترابك وزائرتك. وكل من يراك نظيفة الجسم والبيت تطيب نفسه ويسرّ خاطره.

هذا فضلاً عما للنظافة من تأثير فى توطيد أركان الصحة والصفاء، وما للقذارة من أثر فى جلب الأمراض والشقاء[1].

وإياك يا بنيتى الكذب على زوجك. لأن الكذب يوجد فى نفس الرجل الشك والارتياب وهما سم الحياة الزوجية.

(١) سعاة الزوجين جـ ١.

وإياك وشدة الانفعالات العصبية فهى تجعل البيت شبه جحيم وتجعل زوجك يفر منه. ويهرب من البقاء فيه.

لا تسرفى يا بنيتى فى التجمل متى كان زوجك غيوراً لأن ذلك يغضب الغيور، ويثيره، ويلقى فى قلبه أن زوجه تتجمل لسواه حتى ولو لم تكن فى الواقع ذلك.

وإياك والإسراف فى مدح أى رجل غريب أمام زوجك، فلا يصدر المدح منك بحسن نية، ولكن الزوج يكره أن تمدح امرأته رجلاً غريباً على مسمع منه، بل ولا يحب أن يسمع تفضيل مخلوق عليه.

وإياك يا بنيتى: والبطنة- الأكل الكثير- فإنه يفسد الجمال، ويجلب السمنة، وينحدر بالمرأة إلى مصاف الحيوان. وبمناسبة الطعام والتخمة... أذكرك بالمحافظة على صحتك، وتجنبى ما يشوّه نضارتك من الأصباغ المغرية التى تدخل المسام وتلتصق حتى إذا ما سقطت تركت مكانها ثقوباً صغيرة فى الجلد، تزداد مرة بعد مرة حتى تفقد الجلد لمعته الطبيعية التى تشاهد فى الوجوه النضرة الشابة والتى لم تلابسها الأصباغ والمساحيق.

وقد لوحظ أن الأصباغ التى تلوّن بها الشفاة تتبلور مع اللعاب فتفرزها الكلى سموماً، بسببها تتكاثر ظاهرة الإجهاض وتشنجات الحمل فى المستعملات المساحيق أكثر منها فى غيرهن.

ومن النصائح التى أوصت بها أمريكية ابنتها قولها: «لا يبرح من ذهنك أنك تزوجت بإنسان لا بكائن فوق البشر فلا تأخذك دهشة مما ترينه فيه من النقص والعيب. وقد يكون زوجك بلا قلب، ولكن له على كل حال معدة يجب إرضاؤها بتهيئة ما تشتهيه من الأطعمة. واتركى له من آن إلى آخر الكلمة الأخيرة، والقول الفصل... ففى هذا ما يسره ولا يضرك. ودعيه يعتقد- من آن إلى آخر- إنه أكثر منك علماً وأغزر معرفة فإن فى هذا الاعتقاد ما يسره، ويرضى عواطفه باعتبار كونه رجلاً».

وأخيراً تيقنى أنك لا تقدرين على محاربة الرجل بسلاحه «قوته فى

لفظه وكفه وعناده»(١).

لأنه ثقيل فى يديك النضيرة، وإنك لتتعبين من حمله، وسيريك الزمان أن أسلحة المرأة الماضية «الحادة» هى الجمال والاستسلام والحلم واللطف والسكينة والخلال الطيبة والحنان والبكاء. ولعلك تظنينها أسلحة ضعيفة.. ولكن أؤكد لك أنها إذا شحذتها الحمية والأمانة كانت ماضية جداً، كافية لأن ترقق الطباع الخشنة وتخفض من غرور الرجل. وتحطّ من كبريائه حتى يأتى إليك بقلبه الكبير وببسمته العريضة التى تشيع فى داخلك الأمن والطمأنينة وتملأ حياتك بالبهجة والسرور.

وهنا قالت الفتاة أكلّ هذا واجبات تقوم بها الزوجة؟ فماذا ترى الواجبات التى يقوم بها الرجل؟

فقالت لها: واجبات الرجل كثيرة لا تحصى، متشعبة لا يمكن حصرها فمن الواجبات التى يقوم بها الرجل:

الإنفاق على قدر حالته المادية قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾(٢).

وسأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت»(٣).

ومن الواجبات المعاشرة بالمعروف قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٤)

ومن المعاشرة بالمعروف أن يتحبَّب إليها ويناديها بأحبّ الأسماء إليها وأن يكرمها بما يرضيها.

قال ﷺ: «ما أكرم النساء إلا كريم». ومنها أن يحلم عليها إذا غضبت،

(١) المرأة فى التصور الإسلامى. عبدالمتعال الجابرى. (٢) سورة الطلاق الآية: ٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٠) فى النكاح: باب حق المرأة على الزوج.

(٤) سورة النساء الآية: ١٩.

ويصبر عليها إذا حمقت ومنها أن يستمع إلى حديثها ويحترم رأيها ويأخذ بمشورتها إذا أشارت عليه برأى جيد. ولقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أم سلمة يوم الحديبية فكان فى ذلك سلامة المسلمين.

ومن تلك المعاشرة بالمعروف أن يقدم لها هدايا مناسبة فى مناسبات يدخل بذلك السرور على قلبها، ويبلغ قصده من رضاها.

قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى»(١).

ومنها أن يعلمها دينها ومكارم الأخلاق وعن على رضي الله عنه قال: «علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم».

ومن واجبات الرجل: أن يغار عليها فى دينها ونفسها وكرامتها: لأن الزوجة أعظم ما يكنزه المرء، ولا يجوز أن يجعلها مضغة فى الأفواه تلوكها الألسنة، وتتقحمها الأعين، وتجرحها الأفكار والخواطر.

والغيرة من أخص صفات الرجل الشهم الكريم، وإن تمكنها منه ليدل دلالة فعلية على رسوخه فى مقام الرجولة الحقة الشريفة.

ومن هنا كان كرام الرجال وأفذاذ الشجعان يمتدحون بالغيرة على نسائهم والمحافظة عليهن وأن من شرّ صفات السوء ضعف الغيرة وموت النخوة ولا يركن إلى ذلك إلا الأرذلون.

يقول صاحب كتاب المرأة المسلمة: ولكن ما معنى الغيرة وما دلالاتها؟ هل الغيرة سوء ظن بالمرأة واتهام لها بالفطرة كما كان يزعم اليونان قديماً ومن جاء بعدهم من الذين يقولون عند كل جريمة فتش عن المرأة. لا: إن المرأة فى الإسلام أخت الرجل وهى مسئولة مسئولية كاملة عند الله عما قدمت وأخرت. وقد نظم الإسلام هذا الأمر فيما يلى:

١- أن لا تأذن لأحد بدخول بيته من رجل أو امرأة قريبة أو بعيدة إلا بإذنه فهو أدرى بمصلحة الأسرة لأنه القيّم عليها فقد يكون فى دخول أبيها وأخيها وأمها مفسدة عليه فى أسرته. أما الأجنبى فلا تأذن بدخوله، ولو

(١) أخرجه الترمذى (٣٨٩٢)، والدارمى (١/ ١٥٩)، وابن ماجه حديث رقم (١٩٧٧) جـ ١ ص٦٣٦.

أذن الزوج لأنه إثم ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ولا يُدخل هو عليها من لا يخاف الله تعالى، فقد يخون بنظرة أو كلمة ويرمى فى البيت شرارة فتنة.

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء.

قالوا يا رسول الله: أرأيت الحمو؟ قالوا: الحمو الموت»[1]..

والحمو أقارب الزوج أو الزوجة. وقال ﷺ: ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث: الذى يقر الخبث فى أهله ولا يبالى من دخل على أهله»[2].

وألا تخالط بغير حضوره أقاربه وأصدقاءه فربما أرادوها بسوء، وربما بلغوا منها ما يريدون من السوء مع وقوع الإثم بمجرد الاختلاط بهم.

وقيل لأعرابية شريفة: كيف زنيت وأنت كريمة فى قومك؟

قالت: قرب الوساد وطول السهاد.

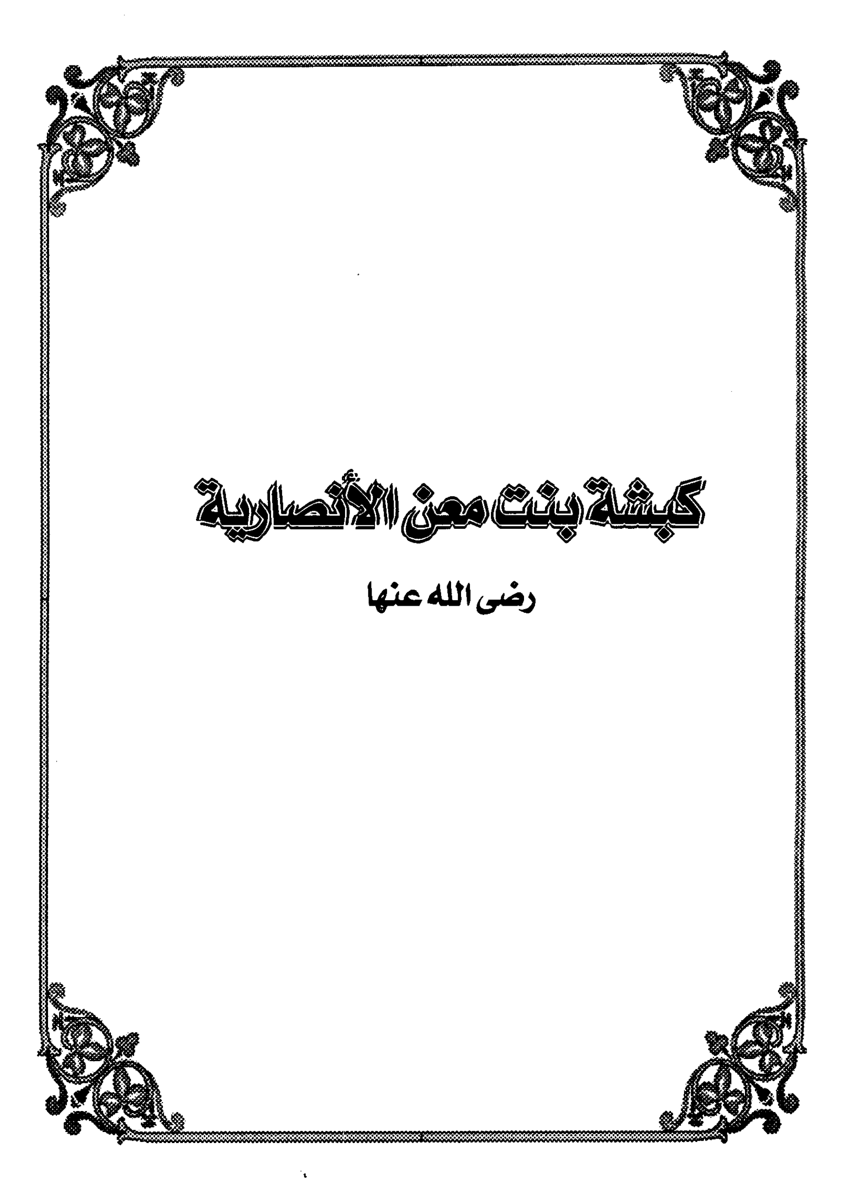
وبعد: هذه بعض الأسس التى وضعها الإسلام لقيام الأسرة المسلمة وسعادتها وما أحرى المجتمع الإسلامى فى عصرنا الراهن أن يتمسك بها ويسير على هديها حتى لا تحلّ به الهموم والنكبات التى حلّت بالأمم الأخرى عندما ساروا وراء شهواتهم ورغباتهم فهل تراهم سعدوا بذلك؟

إن الإحصائيات لتدلّ على أنهم فقدوا السعادة، وتحولوا إلى آلات صماء تنقصها الروح... وكثرت فيهم الأمراض العصبية والنفسية بالرغم مما بلغوه من أوج الحضارة المادية.

فهل نحن معتبرون بذلك؟ لنعود إلى كتاب الله ونقيم حياتنا على هديه نرجو ذلك من الله.

(١) أخرجه البخارى (٩/ ٢٩٠) فى النكاح، ومسلم (٢١٧٢) فى السلام، والترمذى (١١٧١) فى الرضاع.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٧٢) من طريق عبد الله بن عمر، بلفظ: ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء، وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه النسائى (٥/ ٨٠) فى الزكاة عن ابن عمر أيضاً بلفظ: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى.

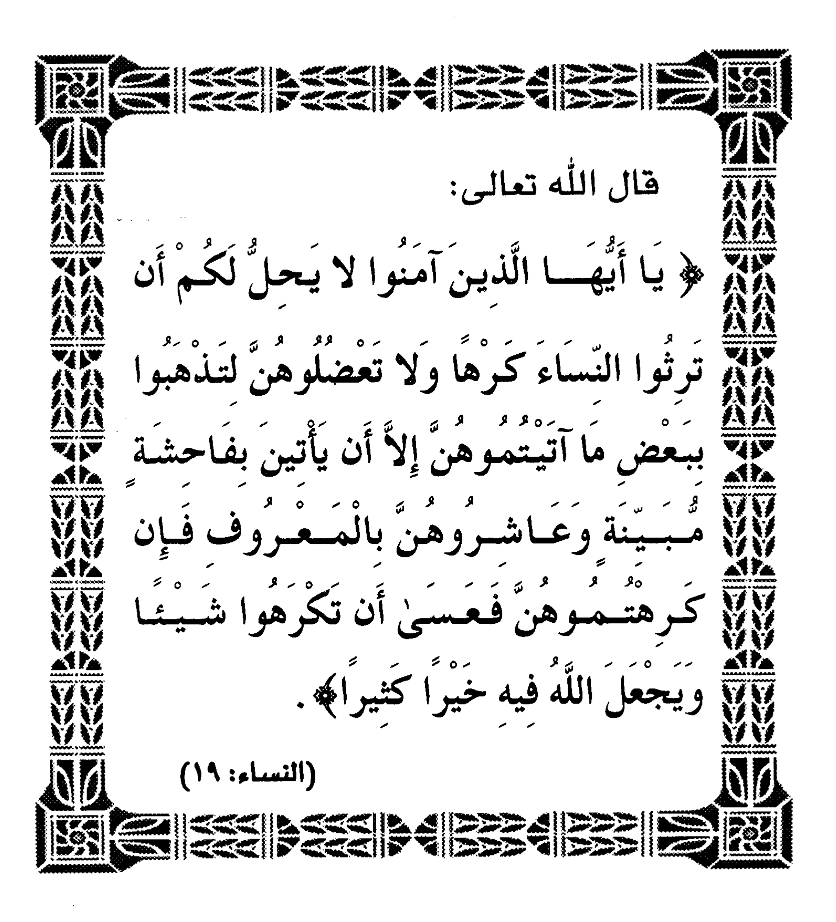


كبشة بنت معن الأنصارية

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

(النساء: ١٩)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآية فى: كبشة بنت معن الأنصارية.

قال ذلك الإمام البخارى (٦: ٤٤، ٩: ٢١).

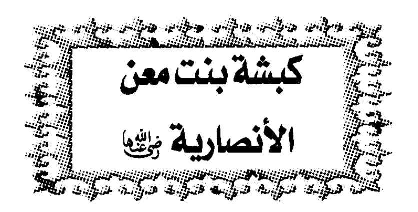
وقاله الإمام الطبرى فى تفسيره (٨: ١٠٤).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (٥: ٩٤).

وابن حجر فى كتاب الإصابة (٤: ١٦٠- ١٦٢).

وصاحب الدر المنثور (٢: ١٣١).

فمن هى كبشة بنت معن الأنصارية...؟



نشأتها وحياتها

والدها معن بن عاصم كان فارساً مغواراً، خبيراً بصهوات الخيل، حكيماً فى إدارة المعارك وجندلة الفرسان. وكان كريماً مضيافاً فى أوقات السلم يقضى جلَّ وقته بين حدائقه ومزارعه يتعهد أشجارها ويتفقد نضج ثمارها، ويقدم الكثير من غلاتها لذوى الحاجات وأبناء السبيل.

ولقد رزقه الله تعالى بالكثير من الأبناء النجباء الذين كانوا له خير معين فى متطلبات الحياة، وحماية القبيلة. ولم يرزق من البنات إلا بالابنة الغالية المتفردة كبشة.

وهو من قبيلة الخزرج التى أفردت لها كتب التاريخ صفحات مطولة بالفخار والمجد، ونعتت رجالها بالإقدام والشجاعة فى ساحة القتال، وبجميل الأخلاق وحسن الأحدوثة فى المعاملات.

ولقد مات الوالد قبل مبعث الرسول ﷺ وكانت كبشة فى ذلك الوقت طفلة تحبو، وما لبث أن لحقت به الأم.

فقام إخوتها بالرعاية والتوجيه، وحسن الأدب وطيب المعاملة حتى شبت عن الطوق ودخلت فى مرحلة الشباب. يصفها الرواة بأنها كانت صبوحة الوجه، فارعة القد، جميلة العينين، حلوة السجايا الأمر الذى جعل شباب يثرب كل منهم حريص على الظفر بها زوجة تجمل حياته، وتؤنس وحشته،

ويرزقه الله منها بالبنين والبنات، ولكن إخوتها كانوا يضنون بها على الخطاب ويردونهم رداً جميلاً بحجة صغر سنها، وقلة خبرتها بشئون الحياة والزواج.

ومرت الأيام بها رخية حلوة، هادئة طيبة- حتى كان يوم تقدم لخطبتها أبو قيس بن الأسلت الذى كان يعدل بقيس بن الخطيم فى الشجاعة والشعر فبارك أخوتها هذه الخطبة وتم زواجها به.

ولكن أبا قيس كان كثير التجوال، صاحب سفر وترحال يقول عنه ابن سعد عن الواقدى: «لم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ولا أكثر مساءلة عنها من أبى قيس بن الأسلت» ثم خرج إلى الشام وصحب معه زوجه كبشة، وعلى أرض الشام شاهدت كبشة العيون الفوارة بالماء، والحدائق الغناء، والأنهار الجارية، وحضارات الأمم، وعادات الشعوب، وكانت عينها الفاحصة تحس كل شىء، وترصد كل منظر، وتدقق فى نعم الله التى لا تحصى ولا تعد.

ولقد نزلت هى وزوجها على آل جفنة: فأغدقوا عليهما الكثير، ووصلوهما وكان زوجها يبحث عن الرهبان والأحبار، ويسألهم عن خالق الأرض والسماء، وموجد الحياة والموت، وكان يطرق سمعها هذا الكلام فتقبله حيناً وتنفر منه أحياناً. ولقد أرادهما الرهبان الدخول فى دين المسيحية ولكنهما امتنعا.

وفى يوم من الأيام جاء إلى ساحتهما راهب وقال لهما إن كنتما تبحثان عن دين الحنيفية فهو من حيث خرجتما. وهو دين إبراهيم.

فعاد أبو قيس ومعه زوجته إلى مكة، فطافا بالبيت وأديا مناسك العمرة والتقيا بزيد بن عمرو بن نفيل. أحد الحكماء فى الجاهلية وابن عم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عمرو بن نفيل: الذى جاهر بكراهة عبادة الأوثان، وكان عدواً لوأد البنات لا يعلم ببنت يراد وأدها إلا قصد أباها وكفاه مؤنتها،

فيربيها حتى إذا ترعرعت عرضها على أبيها فإن لم يأخذها بحث لها عن كفؤ فزوجها به ولقد رحب بهما عمرو، وأكرم وفادتهما، ودعاهما إلى عبادة الله وحده على شرع إبراهيم، فاستجابا له.

ثم عادا إلى المدينة، وبقى عمرو بن نفيل فيها، ولقد رآه النبى ﷺ قبل النبوة، وسئل عنه بعدها. فقال عليه السلام: «عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده».

وفى المدينة سارت الحياة رتيبة بأبى قيس وزوجته، وكان يجمع الناس ويدعوهم إلى الحنيفية، فكانوا ينصرفون عنه، فكان يقول: «ليس أحد على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو، وكان يذكر صفة النبى ﷺ وكان يبشر بهجرته إلى يثرب».

وجاء الرسول ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر إلى المدينة بعد رحلة شاقة مضنية وكان الاستقبال لهما رائعاً والحفاوة بمقدمهما كبيرة. وتوافد أهل يثرب إلى مجلس الرسول ﷺ يستمعون إلى كلمات الوحى المتتابع على خاتم النبيين وسيد المرسلين وحرص أبو قيس على حضور مجلس الرسول ﷺ خارج المسجد وداخله. فإذا عاد إلى بيته ألقى على مسامع زوجته كبشة آخر ما نزل على الرسول ﷺ فيكون لهما دستوراً فى حياتهما يستظهران آياته، ويأخذان أنفسهما بأوامره، ويجتنبان نواهيه.

وفى يوم من الأيام ألقى أبو قيس على مسامع زوجته كبشة قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١)

لقد رزقهما الله المال الوفير، ورزق زوجها من زوجته السابقة ابناً، وتمنت أن يكون لها ابناً من زوجها أبى قيس، نعم ابناً يجمل حياتها، ويزين أيامها، ويملأ قلبها بالحياة والأمل.

ولكنها لم ترزق بالولد، وإرادة الله ومشيئته غالبة، عندها صبرت

(١) سورة الكهف الآية: ٤٦.

واستسلمت لقدر خالقها ومولاها وتمتمت بينها وبين نفسها بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(١).

عندها طلبت كبشة من زوجها أن يأتى بابنه الذى يعيش فى بيت أهل أمه إلى بيتها، لتكون له أمّاً بعد فقد الأم، وعاهدته أن تطعمه أشهى الطعام وتلبسه أجمل الثياب، وترعاه كما ترعى نفسها، وتحافظ عليه بنور عينيها.

واستجاب الزوج لطلب زوجتة كبشة، وجاء الابن فملأ حياتها بالبهجة والسرور، واستراحت كبشة لذلك وآمنت أن الله تعالى قد عوضها بابن زوجها خيراً كثيراً.

ولكن فى يوم ليس كمثله يوم أحس أبو قيس أن جسمه ثقيل، وقدميه عاجزتان عن حمله إلى مجلس الرسول ﷺ إنه مرض الشيخوخة ومقدمات الموت وحزن حزناً كثيراً لذلك، وأخذت زوجته فى التخفيف عنه والتطيب لأوجاعه، ولكنه كان يحس إحساساً صادقاً بدنو أجله.

وكان يقول لها: يا كبشة لكل بداية نهاية، ولكل ليل صباح، ولكل سافرة حجاب ولكل أجل كتاب،.

وأنا لا شك أن أجلى قد اقترب، فإن لم يأتى غداً فهو لا شك واقع بعد غد. ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع حديثه قائلاً: وأنا لا أخشى الموت، ولا ترهبنى سكراته، ولا يمكننى الفرار منه لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾(٢)

وإنما الذى يقلقنى يا كبشة هو ابنى وأخشى عليه تقلبات الأيام ومفاجآت الليالى.

فكانت تطمئنه بأنه فى رعاية الله وعنايته، وهو منها فى سويداء القلب وحبة العين، لأنه الذكرى الغالية الباقية لى منك. وما كادت كبشة تكمل حديثها، حتى فاضت روحه إلى بارئها.

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٦. (٢) سورة الجمعة الآية: ٨.

مات أبو قيس، وما كادت جثته توارى تحت التراب، حتى قام ابنه الوحيد المسمى حصن فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها، يضارها لتفتدى منه بمالها، فأتت كبشة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى، وقد أضرَّ بى وطوّل علىّ فلا هو ينفق علىَّ، ولا يدخل بى، ولا يخلى سبيلى».

فقال لها رسول الله ﷺ: «اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله».

قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء فى المدينة، فأتين رسول الله ﷺ وقلن: ما نحن إلا كهيئة كبشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو الأعمام فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾(١).

حرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة.

كما حرم العضل الذى كانت تسامه المرأة، ويتخذ أداة للإضرار بها.

وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافاً. بكراً أم ثيباً، مطلقة أو متوفى عنها زوجها وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال، قال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٢).

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٢.

(٢) سورة النساء الآية: ١٩.

أسباب نزول الآيات

عن ابن عباس ﵄ قال فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

«كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية فى ذلك»(١).

وقال المفسرون: كان أهل المدينة فى الجاهلية، وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها وضارَّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت، أو تموت هى فيرثها.

ومن ذلك أن أبا قيس بن الأسلت الأنصارى توفى وترك امرأته كبشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن، وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبى قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها، ولم ينفق عليها يضارها لتفتدى منه بمالها، فأتت كبشة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى، وقد أضرَّ بى وطوَّل علىَّ، فلا هو ينفق علىَّ ولا يدخل بى، ولا هو يخلى سبيلى».

فقال لها رسول الله ﷺ: «اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله».

قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء فى المدينة، فأتين رسول الله ﷺ وقلن: «ما نحن إلا كهيئة كبشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونكحنا بنو العم فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢).

---

(١) راجع الدر المنثور (٢: ١٣١) وتفسير الطبرى (٨: ١٠٤) وتفسير القرطبى (٥: ٩٤) ورواه البخارى فى التفسير عن محمد بن مقاتل، ورواه فى كتاب الإكراه عن حسين بن منصور، كلاهما عن أسباط.

(٢) راجع أسباب النزول للواحدى ص ١٤٠،

وأخرج الفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى، والبيهقى فى سننه عن عدى بن ثابت الأنصارى قال: «توفى أبو قيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: «إنما أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكن آتى رسول الله ﷺ فأستأمره. فأتت رسول الله ﷺ فقالت:

إن أبا قيس توفى. فقال لها: خيراً. قالت: وإن ابنه قيساً خطبنى، وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدُّه ولداً فما ترى؟

قال: ارجعى إلى بيتك فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1]

قال البيهقى: مرسل[2].

وقال ابن جرير عن عكرمة: «نزلت فى أبى قيس بن الأسلت، خَلَفَ على أم عبيد بنت صخر، كانت تحت الأسلت أبيه، وفى الأسود بن خلف، وكان خَلَفَ على بنت أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفى فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفى منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة وكانت عند أبيه رباب بن سيار»[3].

(١) سورة النساء آية: ٢٢.

(٢) راجع الدر المنثور (٢ : ٢٣٩) ط دار الكتب العلمية.

(٣) المصدر السابق (٢: ٢٣٩).



تذييل

موقف البشرية من المرأة عبر التاريخ

موقف البشرية من المرأة عبر التاريخ

كانت المرأة فى القرون الغابرة فى وضع لا يليق بها كإنسانة، لأنها فى تصور أكثر الشعوب- فى تلك العهود- تعد أصلاً لكثير من الشرور، ومنبعاً للآثام والخطايا.

ويطيب لنا فى هذه الكلمة أن نستعرض بعض هذه المعتقدات قبل نزول آخر الرسالات السماوية إلى دنيا البشر.

فالمرأة فى شريعة «مانو» عند الهنود خادمة مسخرة لتلبية رغبات الزوج أو الأب، لا تملك حق التصرف، أو إبداء الرأى فيما يتعلق بشئون الحياة. فإذا مات زوجها أحرقوها حية ودفنوها معه وبقيت هذه الجريمة النكراء سارية فى تلك البلاد إلى وقت قريب من القرن الماضى.

ويتساءل المرء أين عاطفة البنوة وصلة الرحم؟ وكيف سمح الأبناء والبنات بحرق أمهم حية أمام أعينهم، ودفنها مع زوجها الذى مات موتة طبيعية؟ إن الكثير من الحيوانات العجماوات يتعففن عن مثل هذه الجريمة النكراء، فكيف سمح بها الإنسان الذى كرمه ربه، وفضله على كثير من خلقه؟

وفى شريعة «حمورابى» تعتبر المرأة سائمة لا فرق بينها وبين بقية الحيوانات السائمة، وإذا قتل رجل- عن طريق الخطأ- ابنة رجل آخر فعلى القاتل أن يسلم ابنته إلى ولى المقتولة ليقتلها أو يسترقها مدى الحياة حسبما يعنُّ له.

وكذلك كانت المرأة عند دولة اليونان والرومان. ويقول «كانو» مشرع الرومان: إن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع، وكانت محط احتقارهم وسوء ظنونهم. فإذا خرجوا للحرب، طوقت المرأة بما يسمى «حزام العفة» حتى لا تكون مطمعاً لشهوات الرجال ونزواتهم.

وكانت المرأة عند اليهود والنصارى تعتبر أصل الشرور ومنبع الخطيئة، وهى نجسة وخاصة فى أيام حيضها، ومن لامسها يكون نجساً سبعة أيام، وهى عندهم سبب خروج آدم من الجنة، فهى التى أغرته بأكل التفاحة «الشجرة المحرمة» وهى سبب اللعنة الأبدية التى نزلت بآدم وذريته.

ففى التوراة المحرفة، فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين جاء ما يلى: «وكانت الحية أصل الحيوانات البرية، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله تعالى لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

قالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، أما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها، ولا تمساها لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونا كالإله عارفين الخير والشر.

فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل وانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة.

فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟

فقال له: سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان واختبأت؟

فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا

تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجر.

فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذى فعلت؟

فقالت المرأة: الحية غرتنى فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جموع الوحوش البرية، وعلى بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه».

وهذه الأضاليل والمفتريات يخلو منها كتاب الله تعالى الذى أنزله ليكون خاتماً للكتب السماوية، وحفظه من التحريف والتبديل قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

ويقول تعالى عند ذكره لقصة آدم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[2].

وقال أيضاً:

﴿قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3].

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩.

(٢) سورة طه الآيات: ١١٥- ١٢٢. (٣) سورة البقرة الايات: ٣٥- ٣٧.

فالمرأة ليست سبباً للخطيئة، وليست هى التى وسوست لآدم ولكن هى وزوجها كانا هدفاً لوسوسة الشيطان. والخطيئة فى منهج الإسلام فردية والتوبة فردية، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده- كما تقول نظرية الكنيسة، وليست هناك تكفير لاهوتى وإنما خطيئة آدم شخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(١).

وليست المرأة شيطاناً كما يقول القديس «بونا» الذى كان يقول لتلاميذه: «إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم رأيتم كائناً بشرياً. وإذا رأيتم امرأة فلا تظنوا أنكم رأيتم كائناً وحشياً، إنما الذى ترون هو الشيطان بذاته».

أين هذا من قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٢).

وقول الرسول ﷺ: «النساء شقائق الرجال»(٣).

من هذا نرى أن الإسلام قد كرم المرأة وأعلى من شأنها لأنها هى الأم الذى قال عنها الرسول ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات»(٤).

وعندما جاءه أحد الصحابة وقال له: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال الرسول ﷺ: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك»(٥).

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا

(١) سورة طه الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الروم الآية: ٢١.

(٣) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن عائشة ﷺ ضعفه الترمذى وحسنه بعضهم.

(٤) الحديث رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم عن معاوية بن جهامة.

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب (٢) ومسلم فى البر (٤) وابن ماجه فى الوصايا (٤) وأحمد ابن حنبل فى المسند (٢: ٣٢٧، ٣٩١) حلبى.

يَبْلُغَنَّ عندكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(١).

وهى زوجة: تعامل بالرفق واللين يقول الرسول ﷺ:

«رفقاً بالقوارير يا أنجشة».

والزوجة ستر ووقاية لزوجها. وهو كذلك قال تعالى:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٢).

وهى ابنة يقول الرسول ﷺ:

«من رزق من البنات بشىء فأحسن إليهن وأدبهن كن له ستراً من النار»(٣).

وعن عقبة بن عامر يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

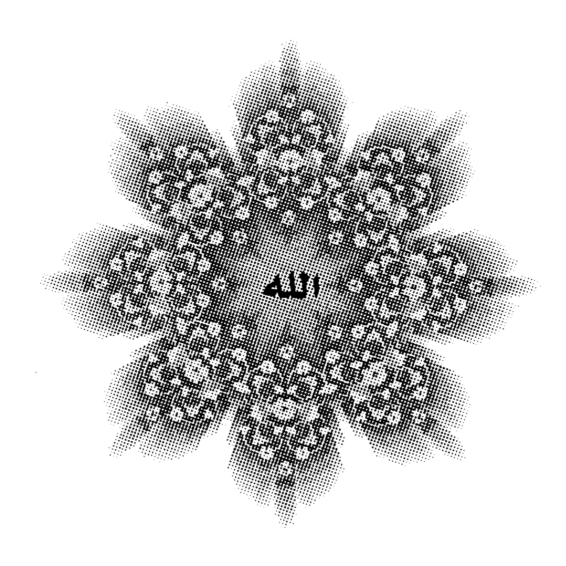
«من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة»(٤).

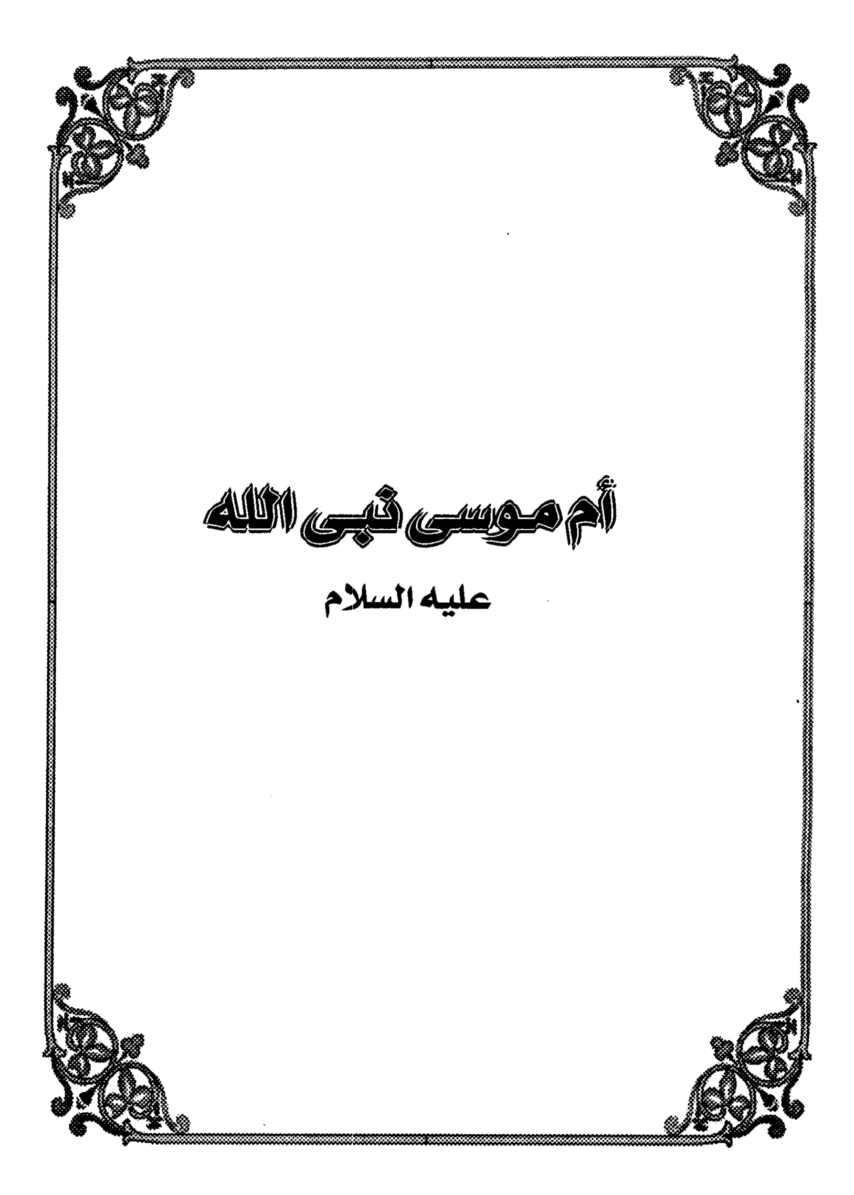
(١) سورة الإسراء الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

(٣) رواه الإمام مسلم فى كتاب الأدب.

(٤) رواه ابن ماجه فى كتاب الأدب (٣) باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم (٣٦٦٩).


الله

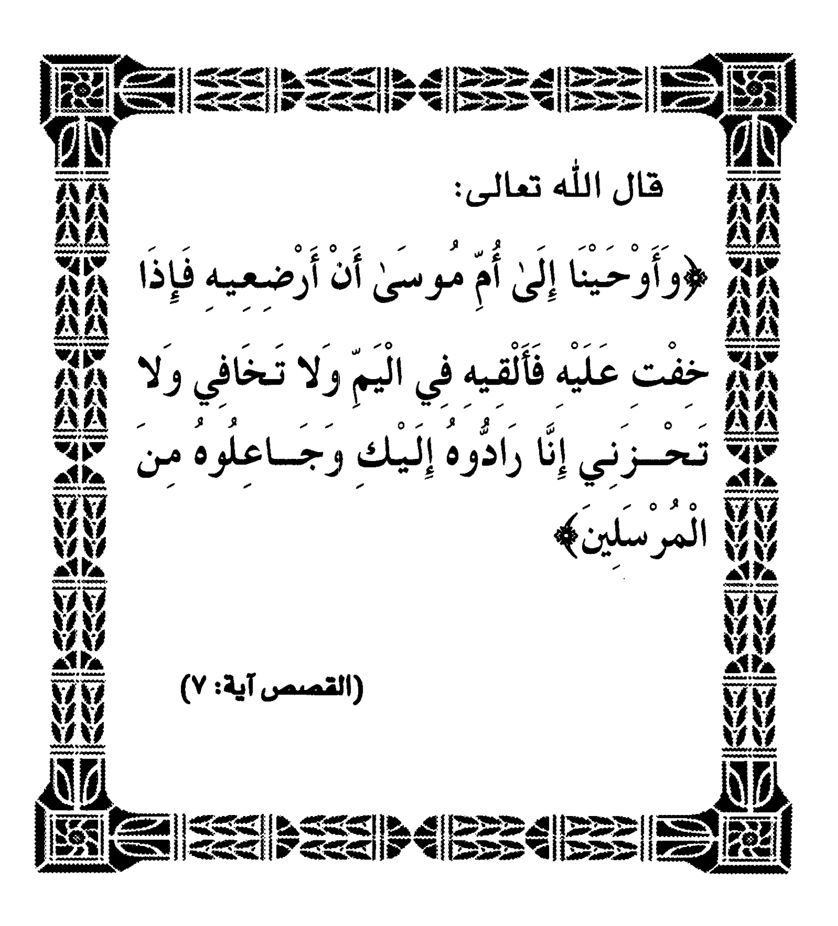


أم موسى نبى الله

عليه السلام


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(القصص آية: ٧)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات في: موسى عليه السلام وأمه.

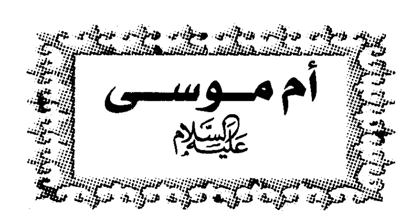
قال ذلك الإمام ابن كثير في التفسير (٣: ١٤٧- ١٤٨).

وقاله الفخر الرازي في التفسير (١١: ٥٠- ٥١).

وقاله الإمام القرطبي في التفسير (١١: ١٩٦- ١٩٧).

وقاله صاحب الدر المنثور (٤: ٢٩٦- ٢٩٧).

فمن هي أم موسى عليه السلام..؟



حياتها ونشأتها فى مصر المحروسة

من هى أم موسى عليها السلام؟ وأين ولدت؟ وفى أى البلاد ترعرعت؟ وما هو الدور الذى قامت به فى حياة موسى عليه السلام؟

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تقول: إنها تسمى «يوكابد» بنت لاوى، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم كثيراً قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾(١).

وقال عز من قائل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وأيضاً: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾(٣).

وجاء ذكرها فى التوراة أيضاً من الإصحاح الثانى من سفر الخروج: «واتخذ عمران «يوكابد» زوجة له فولدت له هارون وموسى».

وأيضاً: «تزوج عمران من عمته «يوكابد بنت لاوى»، ولم يكن زواج الأقارب محرماً فى ذلك العهد، وإنما التحريم قد جاء فيما بعد على يد موسى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر».

(١) سورة القصص الآية: ٧. (٢) سورة القصص الآية: ١٠.
(٣) سورة القصص الآية: ١٣.

ولا شك أن «يوكابد»- كان مسقط رأسها مصر- وفتحت عينيها على مياه نيلها العذب، وهى تنساب فى سهولة ويسر نحو الشمال، واستمتعت بالخضرة اليانعة التى تكسو جلَّ أرضها.

إنها مصر قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. فى قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾(1)

قال يعنى مصر.

وتعد مصر من خزائن الأرضين لقول يوسف ﷺ لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(2)

ففعل فأغاث الله الناس بمصر وبما فيها من خيرات. ولم يذكر الله عز وجل فى كتابه مدينة بعينها بمدح غير مكة ومصر.

قال الله تعالى على لسان فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾(3)

وهذا تعظيم ومدح لمصر. بما حباها الله من نعم وخيرات.

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾(4)

فمدحت لما فيها من الأمن والأمان. ولذلك أوحى الله تعالى لرسوله موسى ﷺ كما ذكره القرآن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(5).

ولا تذكر المصادر متى تم اقتران يوكابد بعمران، ولكنها تذكر أنها أنجبت منه بنتاً اسمها مريم، ولعلها أكبر من هارون وموسى عليهما السلام- كما جاء ذكرها فى القرآن قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا

(1) سورة المؤمنون الآية: ٥٠.
(2) سورة يوسف الآية : ٥٥.
(3) سورة الزخرف الآية: ٥١.
(4) سورة يوسف الآية: ٩٩.
(5) سورة يونس الآية: ٨٧.

يَشْعُرُونَ﴾(١).

ولكن فى عهد أى ملك من الملوك ولدت يوكابد موسى عليه السلام.

يتفق المؤرخون على أن ولادة موسى عليه السلام كانت فى عهد فرعون أعتى الفراعنة على الله تعالى وأقساهم قلباً وأطولهم عمراً، ولقد عمل على تصنيف بنى إسرائيل، فصنف بعضهم بالبناء. وصنف آخر للزراعة والحرث، وصنف ثالث يتولون الأعمال القذرة.

ومن لم يكن منهم من أهل الحرف فعليه الجزية الباهظة ولذلك عبر القرآن عن فعل فرعون بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾(٢).

وكانت زوجة فرعون امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت امرأة مؤمنة ولقد حكى القرآن مقولتها بقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

وأسلمت على يد موسى عليه السلام.

وتقول بعد المصادر إن فرعون عمر فى قومه أربعمائة سنة يسومهم العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم فبعث موسى عليه السلام.

وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله، أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها، وأحرقت القبط، وتركت بنى إسرائيل، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه.

فقالوا: يولد فى بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك، وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه. وما كاد فرعون يسمع ذلك حتى أمر رجاله بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل، فجمع القوابل من النساء وقال لهن: «لا يسقط على أيديكن غلام

(١) سورة القصص الآية: ١١. (٢) سورة البقرة الآية: ٤٩.

(٣) سورة التحريم الآية: ١١.

من بنى إسـرائيل إلا قـمتن بقـتله، ولا جـاريـة إلا تركـتـهـا للخـدمـة» ووكل بهن رجال شرطته والبصاصين من قومه.

ولما لا يفعل ذلك أليس هو القائل لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(١)

لقـد طغى وتجبـر ونسى الإله الأعظم، فـلابد أن تنزل به القـارعـة كـما نزلت على غيره من قبله.

قـال مـجـاهد: لقد بلغنى أنه كـان يأمـر بالقصب فيشق ثم يـجـعل أمـثـال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يؤتى بالحبالى من نساء بنى إسـرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن، حتى أن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظل تطؤه لتتقى به حد القصب على قدميها لما بلغ من جهدها.

إن فـرعـون الذى عـلا فى الأرض لم يقتل الأطفـال فـحـسـب. ولم يـسـقـط الأجنة من بطون الأمهات وكفى. ولكنه قتل أيضاً عاطفة الأمـومة، واستل من قلوبهن الرحمة والشفقة.

واسـتـمـر فى فعله ذلك حتى دخل عليـه رءوس القبط وقـالوا له: إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا ولا طاقة لنا به.

فأمر فرعون عندها بذبح الولدان سنة وتركهم سنة. فولد هـارون عليه السلام فى السنة التى لا يذبح فيـهـا أحـد فـتُـرك. ثم مـاذا؟ كـان الحـمل بمـوسـى فى العـام الذى أمـر فـيـه بقـتل الولـدان، فلمـا جـاء أوان وضـعـه حـزنـت أمـه حـزنـاً شـديـداً واشـتـد غـمـهـا وقلقـهـا فـمـاذا تفـعل؟ لو كـان الحـمـل يبقى فى بطنهـا إلى الأبد لاستراحت.. ولو كان فى الإمكان الفرار به إلى أرض الله الواسعة لفرت.

إذن ليس هنـاك من حيلة إلا الصبـر، عندهـا أسلمت أمرهـا إلى الله تعـالى وأودعت الذى فى بطنهـا إليه، وهو الله تعـالى الذى لا تضيع ودائعـه. وما هى إلا أيام قليلة حتى ولدت هذا الولد المبارك الذى سمى فيما بعد باسم موسى عليه السلام.

(١) سورة القصص الآية: ٣٨.

ولما حملته بين يديها طار عقلها وجن جنونها وأوشكت أن تكتم أنفاسه وتسلمه للموت بيديها بدلاً من أن تسلمه إلى قتلة فرعون. عندها كان أمر الله تعالى الذى ينزل بالرحمة، ويرفع العذاب عن عبيده، كان أمر الله الذى لا يرد، وقضاؤه الذى ينفذ قال تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

لا تخافى يا أم موسى عليه من الغرق. ولا تخافى عليه من القتل. ولا تحزنى إذا قمت بإلقائه فى اليم. ولا تحزنى لفراقه تلك اللحظات المعدودة من عمر الزمن ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

واستجابت أم موسى لأمر ربها وكلفت رجلاً يسمى «حزقيل» الذى صار فيما بعد «مؤمن آل فرعون» أن يصنع لها تابوتاً يلقى فى اليم فلا ينفذ منه الماء، وثقيلاً لا تلعب به الأمواج، ومجوفاً حتى لا يسقط فى القاع. وعندما صنع التابوت وأحضره إليها حمدت الله كثيراً، وألقت فى داخله كمية من القطن المحلوج، حتى يكون هيناً ليناً على طفلها، ثم أضجعته فيه وأسلمته إلى اليم.

ويا لها من لحظات قاسية مؤلمة على قلبها أن تلقى بفلذة كبدها إلى المجهول وأن تسلمه إلى الضياع والهلاك، وأخذ الشيطان يوسوس لها قائلاً: ما صنعت؟ ولماذا فعلت؟ وأى جرم ارتكبت أيها المرأة؟ لو ذبحته بيديك لكان خيراً، لو أسلمته للقتلة لكان فى إمكانك أن تسكبى على جسمانه الدمعة الأخيرة؟؟

ولكن الله تعالى عصمها من وسوسة الشيطان وربط على قلبها لتكون من المؤمنين فثابت إلى رشدها وتذكرت وعد الله لها ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين الأشجار ونباتات الماء عند قصر فرعون، أمام روضته التى هى ملتقى

(١) سورة القصص الآية: ٧.

وصيفات زوج فرعون وجواريه. واستقر التابوت هادئاً مطمئناً تحرسه عناية الله وترعاه.

يا سبحان الله لقد ألقى هذا الطفل فى اليم حتى يكون بعيداً عن تلك البلاد وينقله الموج إلى آفاق بعيدة، لا يصل إليه جبروت فرعون ولا تطوله أيدى القتلة المجرمين.

فمن الذى حول مسار هذا التابوت حتى يذهب إلى قصر الجلاد؟

ومن الذى حمى التابوت وهو فى عرض البحر من الطيور الجارحة التى تريده طعمة لها؟

من الذى جعل الموج هادئاً ليناً حتى لا يقذف بالتابوت إلى قاع البحر فيكون الطفل طعمة سائغة لحيتانه وحيواناته؟ من فعل ذلك.. أهى الصدفة البلهاء؟

أهى الطبيعة العمياء كما يقول العلمانيون؟

إن الذى فعل ذلك وأمر به- هو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء، وكل شىء عنده بمقدار، وكل شىء عنده بميزان.

ونزلت الجوارى إلى صفحة النهر- كما اعتدن أن ينزلن كل يوم- يدغدغ أجسادهن الغضة رزاز الماء الجميل.

ويداعب شعورهن نسمات الهواء العليل.

وتلامس أناملهن الرقيقة ثمار الأشجار التى تتدلى من أغصانها إلى صفحة الماء لتقبلها قبلة الشكر والعرفان.

وكم كانت دهشتهن وهن يشاهدن هذا التابوت الذى لا شك يحمل ذهباً وفضة فتزاحمن على حمله، وكل منهن تريد أن تحظى بتقديمه إلى سيدة القصر آسيا زوجة سيدهن فرعون.

ولما استقر التابوت بين يدى آسيا، وكشف عنه الغطاء شاهدت هذا

الطفل الجميل ينام فى داخله، يضع أنمله فى فمه، وعيناه تحملقان فى الفضاء العريض وكأنه عابد يناجى ربه، أو ناسك يقبع فى صومعته.

وألقى الله تعالى محبته على قلبها، فأحبته حبّاً شديداً وأخذته بين ذراعيها تضمه وتقبله، وكأنها بهذا الطفل حازت الدنيا بأسرها بين يديها.

وكيف لا تحبه آسيا، وكيف لا يستقر حبه فى قلوب كل المؤمنين، والله تعالى يقول:﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(1).

ولكن ما كاد خبر تواجد هذا الطفل يسرى بين أجواء القصر حتى برز الموكلون بالذبح يريدون الإجهاز عليه، وكتم أنفاسه حتى يصير فى عداد المقتولين الذين سفكت دماؤهم بيد التأله الكاذب والعدوان الغاشم.

ولكن المرأة المؤمنة رددتهم عنه ردّاً جميلاً قائلة:

«انصرفوا فإن أتى فرعون استوهبته منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم، وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم» إنه منطق العقل والحكمة، منطق الإيمان والسلام.

وانطلقت المرأة المؤمنة إلى فرعون تحمله على يدها، وترعاه بعينيها، وتبتهل إلى ربها أن يجيبها إلى طلبها ويحقق لها رغبتها فى ترقيق قلب فرعون على الطفل وعندما كانت بين يدى فرعون قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(2).

وخضع الجبار العنيد، وسلبت قوته وإرادته وقال: قد فعلت. وغردت الدنيا فى قلب آسيا، وعادت به من حيث أتت تحمل كنزها، وهى لا تدرى أن هذا الطفل الوليد سيكون رسولاً يوحى إليه من ربه، يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد.

إنه رسول الله سيحطم الألوهية المزيفة، ويقضى على الجبروت المتأله.

(1) سورة طه الآية: ٣٩.
(2) سورة القصص الآية: ٩.

إنه رحمة الله إلى الأرض الذى سيقول فيما بعد لفرعون ومعه أخوه هارون: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾(١).

عن الضحاك عن ابن عباس- ﷺ- أن بنى إسرائيل لما كثروا بأرض مصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصى، ووافق خيارُهم أشرارَهم ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وصدق فيهم قول الله تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(٢).

عندها سلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب فذبحوا أبناءهم وأبقوا نساءهم للتسخير والخدمة.

ويقول بعد رواة التاريخ: إن صانع التابوت عندما سلمه إلى أم موسى انطلق إلى الذباحين ليخبرهم بأمر الغلام. فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق، ولم يبين، فجعل يشير بيده، فلم يدر الذباحون ما يريد، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم: اضربوه. فضربوه وأخرجوه. فلما خرج صانع التابوت وذهب إلى بيته، رد الله لسانه فتكلم.

فانطلق أيضاً مرة أخرى يريد الذباحين ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يستطع الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه.

وبقى فترة على ذلك لا يتكلم ولا ينطق، لا يتكلم ولا يرى، عندها التجأ إلى ربه إن رد عليه بصره ولسانه ألا يفعل شيئاً فعلم الله منه الصدق، فرد عليه لسانه وبصره، فخر لله ساجداً، وعلم أن ذلك من الله تعالى ولا راد لقضائه وقدره.

---

(١) سورة طه الآية: ٤٧.

(٢) سورة المائدة الآيات: ٧٨- ٨٠.

وانطلقت أم موسى بالتابوت وألقته فى البحر بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر. وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها، وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاثة مطالب ترفعها إلى أبيها، وكان بها برص شديد، وقد جمع لها فرعون الأطباء من مصر وغيرها والكهان والسحرة، فنظروا فى أمرها وقالوا: أيها الملك إنا لا نرى برأها إلا من قبل البحر، شىء يوجد فيه شبيه بالإنسان فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا فى ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس.

فلما كان فى يوم الإثنين غدا فرعون إلى مجلس له كان على شاطئ النيل ومعه زوجته آسيا بنت مزاحم، وأقبلت بنت فرعون وجواريها حتى جلسن على شاطئ النيل يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن فبينما هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج.

فقال فرعون: إن هذا لشىء فى البحر قد تعلق بالشجر ائتونى به. فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه. وأخذوا فى معالجة فتح الباب فلم يقدروا على ذلك، وأرادوا كسره فأعجزهم أيضاً.

عندها دنت منه آسيا فرأت فى جوف التابوت نوراً لم يره غيرها للأمر الذى أراده الله تعالى من إكرامها وهدايتها إلى الإيمان، وأخذت فى معالجة التابوت ففتح على يديها. فإذا هى بصبى صغير فى مهده والنور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبناً، فألقى الله تعالى محبة موسى فى قلبها، وأحبه فرعون وعطف عليه.

وأقبلت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت منه فى الحال، فقبلته وضمته إلى صدرها. فقالت الحاشية: أيها الملك إنا نظن أن المولود الذى تحذر منه هو هذا والرأى أن ترمى به فى البحر، أو تقتله. فهمَّ فرعون أن يأمر الذباحين بقتله، ولكن آسيا سبقتهم إلى ذلك

واستوهبته منه فوهبه لها. ثم قال لزوجته سمى الغلام. فقالت على الفور: هو موسى لأنه وجد بين الماء والشجر.

وأقيمت الأفراح وتزينت الدولة أن زوجة رب الدولة قد وهبها الله ولداً بعد أن حرمت منه، إذن لتأتى كل المرضعات، ولتخف إلى ساحته كل الحاضنات، ولكن الطفل يتلوى من الجوع يرفض جميع المرضعات فى إباء وشمم. إنه يرفض كل ثدى يقدم إليه، وكل مرضعة تريد أن تضمه إليها، وسرى فى الكون كله قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾(1).

إن التحريم هنا من الله فكيف يقدم على شىء حرمه الله عليه؟ ولكن أهل فرعون يخشون عليه الذبول أو الموت فلابد من مرضعة، ولابد من الرضاعة، ووسط هذه الحيرة والقلق، تظهر أخته التى قالت لها أمها قصيه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾(2).

فقالوا لها: وما يدريك؟ لعلك تعرفين أهله؟

فقالت: لا. ولكنهم يحرصون على مسرة الملك، ويرغبون فى ظئره.

فقالوا: من هى؟

قالت: أمى. فقيل: لها لبن؟

قالت: نعم، لبن ابنها هارون، وكان ولد فى سنة لا تقتل فيها الصبيان.

فقالوا: صدقت، ائتينا بها.

فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فأتت فلما وضعته على ثديها ودثرته بحجرها نزل اللبن حتى ملأ جنبيه. عندها انطلق البشير يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها فلما شاهدت تعلق الطفل بثدييها.

قالت لها: امكثى عندى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً مثل حبه قط، ولكن المرأة الواثقة من وعد الله تعالى لها.

(1، 2) سورة القصص الآية: 12.

قالت فى إباء وشمم: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيعوا، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى، ولا آولى له إلا خيراً فعلت. وإلا فإنى غير تاركة بيتى وولدى. ولم يكن أمام امرأة فرعون إلا أن تطيع وتذعن لما قالته المرأة.

وهكذا عاد الطفل إلى أمه وصدق وعد الله تعالى لها فرده إليها قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

لقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة، معافى فى بدنه مرموقاً فى مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير العين وقد صاغت يد القدرة الإلهية الحلقة الأولى من تدبيرها المحكم.

وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه من كل سوء، فلما كبر وترعرع رغبت آسية أن تراه، فلما دخل عليها أكرمته وفرحت به، وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ثم قالت لها: انطلقى به إلى فرعون ليكرمه، فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعه فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعيرات، وكان فرعون طويل اللحية، ويقال: أنه لطم وجهه، وفى بعض الروايات: أنه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير، فضرب به على رأس فرعون فغضب غضباً شديداً وتطير منه.

وقال: هذا عدوى المطلوب ووسوس له الشيطان بذلك فأخذ الخوف بمجامع نفسه فلما حدث هذا له: أرسل إلى الذباحين ليقتلوه. فبلغ ذلك آسية، فجاءت تسعى إلى فرعون.

وقالت له: ما بدا لك فى هذا الصبى الذى قد وهبته لى، فأخبرها بما فعل موسى.

فقالت له: إنما هو صبى لا يعقل، وأنا أجعل بينى وبينك أمراً تعرف به

(١) سورة القصص الآية: ١٣.

الحق، وأضع له حليّاً من الذهب والياقوت، وأضع له جمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه. وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبى؟؟

ثم وضعت له طستاً فيه الذهب والياقوت، وطستاً آخر فيه الجمرة فمد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة، ووضعها فى فيه فجاءت على لسانه فأحرقته، وذلك ما حكاه القرآن الكريم عند قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾(1).

عندها قالت له آسيا ألا ترى إلى فعله وأنه صبى لا يعقل، فكف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء.. فلم يزل عزيزاً مكرماً فى بيت فرعون وحببه الله إليه وإلى الناس كلهم حتى منَّ الله عليه وأكرمه بالرسالة.

ونسأل التاريخ أين أم موسى عندما دخل ابنها المدينة على حين غفلة من أهلها؟

وأين هى عندما خرج من المدينة خائفاً يترقب؟ وطلب من ربه تعالى أن ينجيه من القوم الظالمين.

هل كانت على قيد الحياة؟ تراقب خطوات ابنها وهو يخطو نحو المجهول أم أنها فارقت الحياة قبل ذلك.

إن كتب التاريخ والكثير من المصادر لا تذكرها بعد ما كان بينها وبين آسية زوجة فرعون إلا لماماً، رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته.

---

(1)سورة طه الآية: ٢٧.

أسباب النزول

عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾(١).

قال: فسألت عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأنجز ما وعدنى من حديث الفتون. فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم عليه السلام من أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً.

فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليه السلام، فلما هلك قالوا: ليس هذا كان وعد الله لإبراهيم. قال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً إلا ذبحوه ففعلوا.

فلما رأوا أن الكبار يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون قالوا يوشك أن يفنى بنو إسرائيل فتصيروا تباشروا الأعمال والخدمة التى كان بنو إسرائيل يكفونكم. والرأى أن تقتلوا أولادهم عاماً، ودعوا عاماً لا تقتلونهم، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون فتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدت علانية آمنة، حتى إذا كان فى العام التالى حملت بموسى عليه السلام، فوقع فى قلبها الهم والحزن، فذلك من الفتون يا ابن جبير لما دخل عليه فى بطن أمه ما يراد به، فأوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة طه الآية: ٤٠.

(٢) سورة القصص الآية: ٧.

وأمرها إذا ولدته أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ما أمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، وقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلىَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، فانطلق به الماء إلى أن أوفى عند مستقى جوارى امرأة فرعون فرأينه فأخذنه فهممن أن يفتحن الباب.

فقالت بعضهن لبعض إن فى هذا التابوت لمالاً وإنا إن فتحناه فلم تصدقنا امرأة الملك لما وجدنا فيه فحملنه بهيئته لم يحركن منه شيئاً حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه الغلام فألقى عليها محبة لم تك مثلها على أحد من البشر قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شىء، إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير؟؟

فقالت للذباحين: إن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل، وإنى آتى فرعون فاستوهبه منه فإن وهبه لى فقد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم. فلما أتت به فرعون قالت: قرة عين لى ولك لا تقتلوه. قال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لى فيه.

قال الرسول ﷺ: «والذى يحلف به لو أقرَّ فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه الله كما هدى امرأته، ولكن الله عز وجل حرمه ذلك».

عندها أرسلت امرأة فرعون إلى من حولها من كل امرأة لها لبن تختار له ظئراً، فكلما أخذته امرأة لترضعه لم يقبل ثديها. حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع عن اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً، يأخذه منها فلم يتقدم أحد.

وأصبحت أم موسى والهة قالت لأخته قصيه، واطلبيه هل تسمعين له ذكر؟ أحى أم قد أكلته دواب البحر؟ ونسيت الذى كان وعدها الله، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون. فقالت من الفرح: حين أعياهم الظآئر أنا

أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فقالوا: وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت الأخت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى جانب الملك رجاء شفقته فتركوها فانطلقت إلى أمه فأخبرتها الخبر.

فجاءت فلما وضعته فى حجرها نزل اللبن من ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجد لابنك ظئراً، فأرسلت إليها. وقالت لها: امكثى عندى ارضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئاً قبل مثل حبه.

قالت: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى ولا آلوه خيراً فعلت، وإلا فإنى غير تاركة بيتى وولدى، وذكرت أم موسى ما كان الله عز وجل وعدها به فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك، وأيقنت أن الله عز وجل منجز وعده فرجعت بابنها من يومها[1] وصدق ربى فى قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) أخرجه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد، والنسائى، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه.

(٢) سورة القصص الآية: ١٣.



تذييل

المرأة فى شريعة الإسلام

المرأة فى شريعة الإسلام

ما موقف الإسلام من المرأة بعامة، سواء أكانت زوجة أو أم أو ابنة؟

هل يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة؟ هل الإسلام يعتبر المرأة أقل من الرجل فى الحياة العامة؟ أم أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ولم يَنقص منها شىء؟

وما موقف المرأة من قضية الزواج هل تجبر على الزواج من رجل لا تريده؟

إن المستعرض لشرائع الإسلام يرى أن للمرأة الحق فى المشاركة البناءة فى تكوين الأسرة جنباً إلى جنب مع الرجل، والمشاركة فى الحياة العامة وأعطاها نفس الحق الذى منحه للرجل، وحمَّلها المسئولية كاملة فى إصلاح المجتمع، ويظهر ذلك جلياً فى مبايعة النساء للرسول ﷺ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وهذه القواعد التى أمر بها الإسلام هى:

أولاً: عدم الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ثانياً: عدم إتيان الحدود: السرقة، والزنا، والقتل بعامة، وعدم قتل الأولاد خاصة، إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات، كما أنه يشمل قتل الأجنة لأى سبب من الأسباب. لأن النساء أمينات على ما فى أرحامهن.

ثالثاً: ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

(١) سورة الممتحنة الآية: ١٢. (٢) سورة لقمان الآية: ١٣.

قال ابن عباس- ﷺ- يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن، وكذلك قال مقاتل: ولعل هذا التحفظ- بعد المبايعة على عدم الزنا- كان للحالات الواقعة فى الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال، فإذا جاءت بولد نظرت أيهم أقرب شبهاً فألحقته به، وربما اختارت أحسنهم فألحقت به ابنها وهى تعلم من أبوه.

رابعاً: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمرهن به. لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(١).

وروى أن النبى ﷺ عندما قال فى بيعة النساء: «على ألا يشركن بالله شيئاً».

قالت هند بنت عتبة وهى منتقبة خوفاً من النبى ﷺ أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم أحد: «والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال» وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد.

فقال النبى ﷺ: «ولا يسرقن».

فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصيب من ماله قوتنا.

فقال أبو سفيان: هو لك حلال. فضحك النبى ﷺ وعرفها وقال: أنت هند؟

فقالت عفا الله عما سلف.

ثم قال: «ولا يزنين»

فقالت هند: وهل تزنى الحرة؟

ثم قال: «ولا يقتلن أولادهن أى لا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة» فقالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر فأنت وهم أبصر.

(١) سورة النساء الآية: ٥٩.

كذلك منح الإسلام المرأة حق الهجرة، والفرار بدينها إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(١).

وأعطى الإسلام المرأة حق مفارقة الزوج إذا أصر على كفره قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾(٢).

كذلك سوى الإسلام بين المرأة والرجل فى حقها فى الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

ولا فرق بين الرجل والمرأة إلا بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

وقال أيضاً: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾(٥).

والإسلام منح المرأة حرية مطلقة فى الزواج من الرجل المناسب لها سواء أكانت بكراً أم ثيباً، فلا إجبار لها على زوج لا ترغب فيه، بل من حقها الزواج بمن تريد شريطة أن يكون متكافئاً لها فى الدين والأخلاق، والمزايا النفسية الأخرى.

ولقد بين الرسول ﷺ ذلك بقوله: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن. قالوا يا رسول الله: وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت»(٦).

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٠. (٢) سورة الممتحنة الآية: ١٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.

(٤) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٥) سورة آل عمران الآية: ١٩٥.

(٦) رواه البخارى فى كتاب النكاح (٦: ١٩١).

ولم يكن أبداً فى تاريخ المسلمين إكراه المرأة على الزواج من رجل لا تريده من ذلك ما أخرجه النسائى بسنده عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ وقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه وأنا كارهة له. ولا أرغب فى الزواج منه. فأرسل النبى ﷺ إلى أبيها وعندما جاء جعل الأمر إليها. فقالت:

«يا رسول الله إنى أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء»(١).

يقول الدكتور عبد الواحد وافى: وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون، وفى جميع الحقوق المدنية سواء فى ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة. فالزواج فى الإسلام يختلف عن الزواج فى معظم أمم الغرب المسيحى فى أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية، ولا أهليتها فى التعاقد ولا حقها فى التملك، بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها وبكامل حقوقها المدنية، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات، وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما إلى ذلك، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكاً مستقلاً.

ثم يقول:

ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها. قلَّ ذلك أو كثر قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢).

وإذا كان لا يجوز لزوج أن يأخذ شيئاً ممن سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل إلا أن يكون ذلك

(١) رواه النسائى فى كتاب النكاح باب البكر يزوجها أبوها وهى كارهة (٦: ٧١).

(٢) سورة النساء الآيتان: ٢٠، ٢١.

برضاها، وعن طيب نفس منها .. قال تعالى:

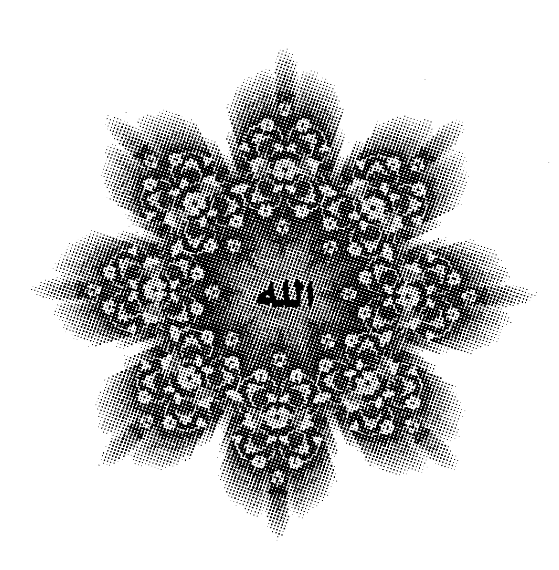
﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾(١).

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز للمرأة أن تكون ملكة أو رئيساً لدولة؟

إن الرسول ﷺ يقول:

«لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة»(٢)

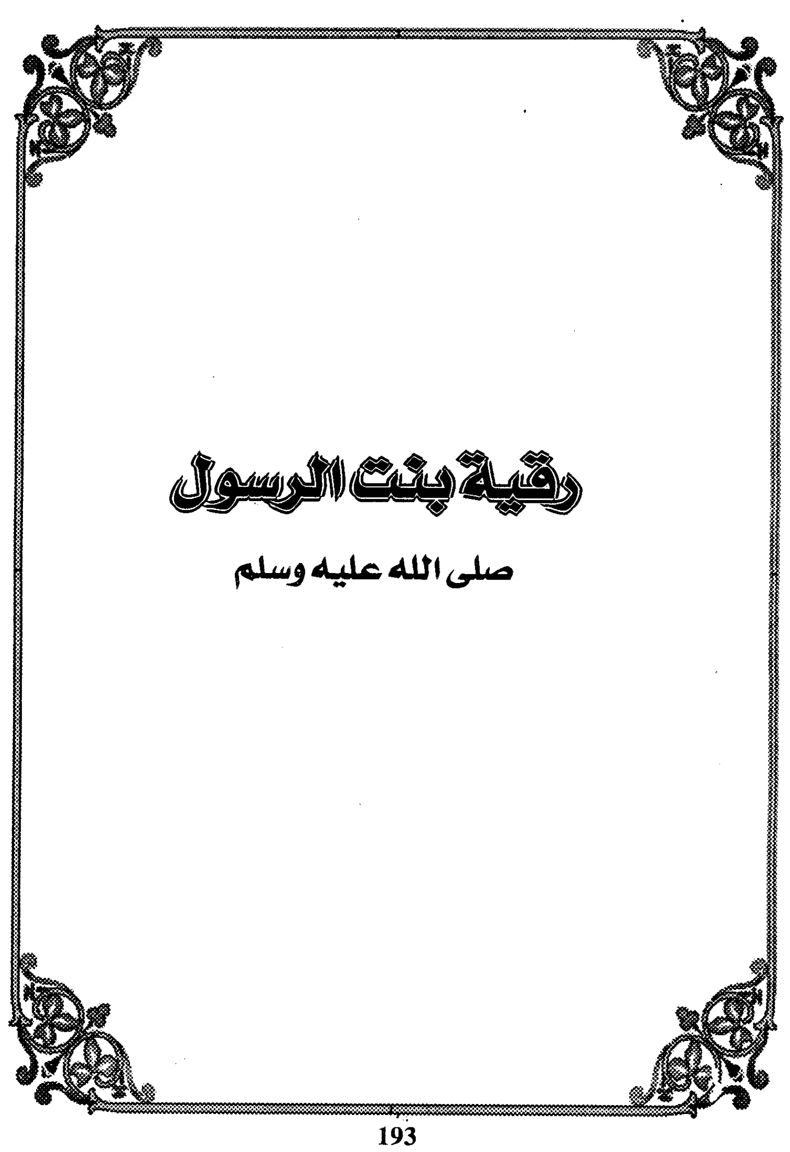
قال ذلك لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى(٣).



(١) سورة النساء الآية: ٤.

(٢) الحديث رواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٣) راجع كلمة وافية عن اشتغال المرأة بالسياسة فى الجزء الأول عند الحديث عن عائشة أم المؤمنين.

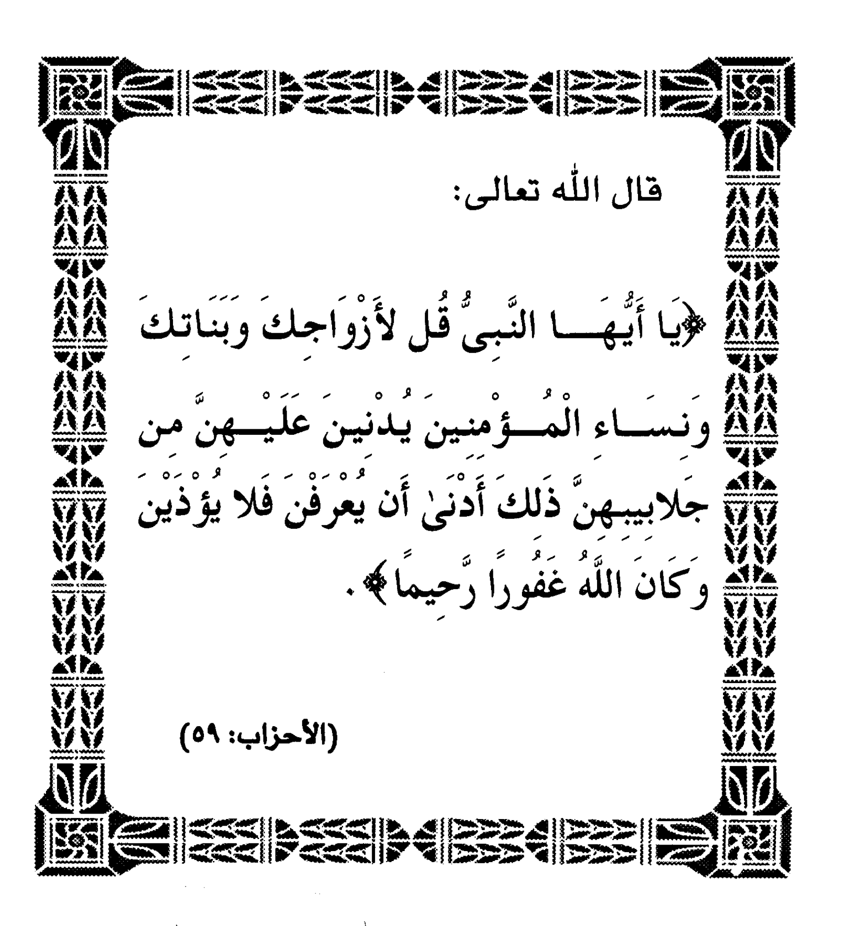


رقية بنت الرسول

صلى الله عليه وسلم


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(الأحزاب: ٥٩)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من علماء التفسير ورجال الحديث نزلت هذه الآية فى زوجات النبى وبناته رضوان الله عليهم.

قال ذلك الإمام القرطبى فى التفسير (١٤: ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣).

وقاله الإمام الطبرى فى التفسير (٢٢: ٤٥، ٤٦، ٤٧).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٣: ٥٢٦، ٥٢٧).

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علوم التفسير (٦: ٤٢١، ٤٢٢).

فكيف نقدم صورة عطرة عن حياة رقية بنت الرسول ﷺ



حياتها ونشأتها

ريحانة من رياحين الجنة.

ونسمة رخية من نسمات الربيع الفواحة.

ونور ملأ بيت النبوة ضياء وبهاء، وبسمة حلوة، ووردة متفتحة ترسل شذاها فتملأ القلوب حبّاً وصفاء.

وكيف لا تكون كذلك وقد نشأت وترعرعت فى بيت أبيها محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين، والرحمة المهداة من رب العالمين إلى دنيا الناس محمد بن عبد الله الذى عرف بين قومه- قبل بعثته- بأنه الصادق الأمين. ووصفه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وقال عليه السلام: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

وأمها خديجة بنت خويلد: أم المؤمنين، وسيدة نساء قريش، وأول زوجة دخل بها الرسول ﷺ، فكانت نعم الزوجة وقفت خلفه تشد من أزره وتعينه على حمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة حتى قال عنها رسول الله ﷺ بعد موتها:

(١) سورة القلم آية رقم: ٤. (٢) سورة الأعراف آية رقم: ١٩٩.

«آمنت بى إذ كفر بى الناس.

وصدقتنى إذ كذبنى الناس.

ورزقنى الله منها الولد»(١).

فرقية سليلة بيت النبوة بيت الإيمان والتقوى.

بيت الإخلاص والوفاء.

بيت العفاف والطهر. تسمعت أذناها ووعى قلبها الوحى المتتابع على رسول الله ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاماً بدءاً من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢).

إلى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(٣).

ولقد مرت طفولتها هادئة طيبة، وكانت مثل لداتها اللاتى عشن على بطحاء مكة، تجرى وتقفز، وتترقب هطول المطر الذى يبلل شعرها وثوبها، وتخرج إلى الأرض الفضاء التى لا يحدها البصر، لتشاهد الأغنام وهى تلتهم العشب الكثير وحولها أطفالها يلعبن ويمرحن وتراقب عن بعد مجموعات الإبل وهى تنزل بأعناقها الطويلة إلى صفحة الغدير لتعب من الماء العذب حتى ترتوى.

وتسمعت أذناها إلى قيثارة الشعراء وهى ترسل أنغامها الشجية لتوقظ الوسنان، وتخفف من آلام الحيران، ويتداح صداها عبر أغصان الشجر الملتف، والنخيل المتشابك، وأكف الضارعين فى البيت الحرام وهى مرفوعة عبر الأفق، وكأنها تلاحق النجوم فى علوها- والشفاة الظامئة الحيرى، والتى

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند ومجمع الزوائد: ٩: ٢٢٤.

(٢) سورة العلق الآيات من ١- ٥.

(٣) سورة المائدة آية: ٣.

تطلب من ربها فى ضراعة وخشوع العفو والمغفرة.

ولقد شاهدت- رقية وامتلأ قلبها الصغير- بالحزن والأسى من كفار قريش وهم يعلنون الحرب على أبيها وأتباعه المستضعفين بلا هوادة أو توقف. وكيف كانوا يوثقونهم بالحبال، ويلقونهم على الرمال الحارقة وتحت أشعة الشمس الملتهبة، ويضعون فوق صدورهم وبطونهم الأحجار الغليظة، حتى يعودوا إلى عبادة أوثانهم وأصنامهم- وهم يقولون فى صوت شجى ملئ بالإيمان والتقوى «أَحد، أحد».

وتسمعت أذناها وأدمى قلبها وحشية أبى جهل وهو يبقر جسد سمية أم عمار بن ياسر حتى لفظت أنفاسها وانطلقت روحها المؤمنة إلى خالقها.

وكذلك ألوان العذاب المختلفة التى صبت على بلال، وصهيب الرومى، وعبد الله بن مسعود وبقية المستضعفين من المؤمنين ولقد زادتها هذه الرؤى إيماناً وقوة بهذا الدين الذى جاء به أبوها من خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت وسارت بها الحياة تتابع خطوات أبيها، فى الدعوة إلى دين الله، ودخول المؤمنين أفواجاً فيه. وتساعد أمها خديجة فى أعمال البيت، وإعداد الطعام، حتى أصبحت فتاة يافعة تضع أولى خطواتها الطاهرة على عتبات الأنوثة.

وجاء يوم شاهدت رقية بيت أبيها ممتلئًا بأعداد كثيرة من بنى هاشم ويضم أعمامه وأبناء عمومته، وأقاربه، ثم أعد لهم الطعام والشراب فأكلوا وانصرفوا.

عندها تقدمت رقية إلى أمها سائلة عن سبب وجود هذا الجمع الكبير الذى لم يسبق أن اجتمع مثله فى بيتهم.

وألقت أمها على أذنيها أن أبا لهب عم والدها قد جاء ومعه أقاربه يطلب رقية وأختها أم كلثوم زوجتين لابنيه عتبة ومعتب.

وتسمعت رقية إلى هذا الخبر، وأحست أن أمها ليست سعيدة بذلك لأنها لا تستريح كثيراً لأبى لهب وزوجه، لوقوفهم فى وجه الدعوة ومحاربتهم لأبيها؟

قالت رقية: هل تم عقد الزواج يا أماه؟

وردت خديجة- والألم يعصر قلبها- نعم يا ابنتى.

قالت رقية: لا أقبل أن أتزوج ممن يقفون فى وجه الدعوة التى جاء بها أبى يا أماه.

قالت الأم: وأنا كذلك يا ابنتى لا تستريح نفسى أن أزوجكما ممن يحارب أباكما. ولكن علينا أن نتذرع بالصبر، وسيجعل الله لنا مخرجاً من هذا الأمر.

ولم يمض على هذا العقد الذى أبرم بحضور بنى هاشم- إلا شهوراً قليلة حتى كان حكم الله تعالى على أبى لهب وزوجه ينزل وحياً من السماء على رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾(١).

عندها جن جنون زوجة أبى لهب وسعت خلف الرسول ﷺ لتنال منه، وخصوصاً بعد أن تناقل المجتمع القرشى هذه الآيات البينات، ورددها الرجال والنساء وأخذ الفتيان والفتيات فى قراءتها وترتيلها فى غدوهم ورواحهم.

وعادت الحرب من جديد بين بيت النبوة وبيت أبى لهب- والذى كانت قد توقفت بعض الوقت من أجل عقد القران بينهما.

وتدخلت زوج أبى لهب مع ولديها تطلب منهما تطليق ابنتى محمد الذى يهجو أباهما وأمهما.

ولقد كذبت فى ذلك، لأن محمداً عندما قال هذا الكلام لم يقله من

(١) سورة المسد كاملة.

عنده، ولكنه وحى من الله تعالى: ولا يستطيع بأى حال من الأحوال كتمانه أو التوانى فى تبليغه ولو فعل ذلك لكان عاصياً لربه. قال تعالى لنبيه:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(١).

وتحقق للأم ما أرادت وتم طلاق رقية وأم كلثوم. هل فرحت رقية وأم كلثوم بذلك؟ هل أصابهما الحزن والألم؟ الله وحده هو العليم بذلك.

لأن المرأة: قادرة على تحمل آلامها وإخفائها وكتم أحاسيسها وأشجانها حتى عن أقرب المقربين إليها..

ومرت الأيام وتوالت الشهور وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يطلب رقية زوجاً له: ومن يرد عثمان ولا يزوجه.. لا أحد.

لأن عثمان رضي الله عنه كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن وعثمان كان حيياً: والحياء شعبة من الإيمان. وقال عنه الرسول ﷺ إن الملائكة لتستحى منك يا عثمان. وتم عقد القران وزفت رقية إلى عثمان رضي الله عنهما وغردت لهما الدنيا، وسعدت بهما الحياة.

لقد كان عثمان كريماً على أهله، وكريماً لجماعة المسلمين، وكريماً على زوجه، ما طلبت منه شيئاً إلا حقق طلبها فوراً ولا أشارت على شىء إلا كان بين يديها.

وكيف لا يفعل ذلك وهى ابنة أحب الناس إلى قلبه، الذى هداه إلى الإيمان ونقله عن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الأحد وخصه بابنته: رقية المملوءة إيماناً وتقوى، وأجمل النساء خَلقة وخُلقاً، وهى تبادله المودة والمحبة من يوم أن زفت إليه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ولكن تبعات الدعوة كانت تؤخر عثمان مع أبيها بعض الوقت، وكان هذا يشغلها ويقلق بالها. ولكن ما يكاد عثمان يفتح الباب عليها ويطل بطلعته

(١) سورة المائدة آية رقم: ٦٧.

عليها حتى تحس أن الدنيا كلها قد حازتها وتملكتها وتحولت بين يديها إلى جوقة ترسل ألحانها العذبة وأنغامها الشجية لإسعاد الزوجين المتحابين. واستمر ذلك لفترة قصيرة.

لأن المشركين فقدوا عقولهم وهم يرون أن هذا الدين الذى جاء به محمد لا يسمع به أحد إلا دخل فيه. فأخذوا فى شن الحرب الضروس على أتباع هذا الدين من المستضعفين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هم فيه من التنكيل والتعذيب قال لهم:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

واستجاب المسلمون لأمر نبيهم وخرجوا زرافات ووحداناً إلى أرض الحبشة مخافة أن يفتنهم الكفار عن دينهم. فكانت أول هجرة فى تاريخ الإسلام، وكان أول المهاجرين الصحابى الجليل عثمان بن عفان، وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ولقد أبطأ خبر وصولهما إلى أرض الحبشة فكان الرسول دائماً يسأل عن أخبارهما، حتى قدمت امرأة من قريش، فقالت: يا محمد قد رأيت «صهرك» ومعه امرأته.

قال عليه السلام: على أى حال رأيتهما؟

قالت: رأيته قد حمل امرأته على دابة وهو يسوقها.

فقال رسول الله ﷺ صحبهما الله فى رحلتهما هذه، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد هجرة لوط عليه السلام.

ثم استقر بهم المقام فى أرض الحبشة بخير دار إلى خير جار، آمنين على دينهم ولم يخشو فيها ظلماً. فلما رأت قريش ما هم فيه من أمن وأمان اجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشى ليخرجهم من بلاده، فبعثوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة قبل إسلامهما، وحمَّلوهما بالهدايا للنجاشى

ولبطارقته. وساروا حتى قدموا على النجاشى فقالا له:

«إنما قدمنا عليك أيها الملك بشأن مجموعة من سفهائنا فارقوا قومهم، وآباءهم وأهليهم وابتدعوا ديناً جديداً، ولم يدخلوا فى دينك فتمنعهم لذلك».

فغضب الملك ثم قال: لا لعمر الله لا أردهم عليهم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجئوا إلى بلادى، واختاروا جوارى على جوار غيرى فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ولم أخل بينهم وبين أعدائهم. ثم أرسل إليهم. فلما جاءوا دخلوا عليه وسلموا ولم يسجدوا له.

فقال: أيها الرهط ألا تخبرونى ما لكم لا تحيونى كما يحيينى من أتانا من قومكم؟

قالوا: لا نسجد إلا لله.

فقال النجاشى: ما هذا الدين الذى أنتم عليه؟ وفارقتم دين قومكم ولم تدخلوا يهودية ولا نصرانية.

فقال جعفر بن أبى طالب: أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسىء الجوار، يستحل المحارم بعضنا من بعض فى سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيّاً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الأرحام، ونحمى الجوار، ونصلى لله عز وجل، ونصوم له، ولا نعبد غيره. فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به منه عند الله، فعدا علينا

قومنا فعذبونا ليفتنونا عن ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشى: هل معك شىء مما جاء به؟

فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: «إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى، انطلقوا راشدين، لا والله لا أردك عليهم أبداً».

وفى الغد: ذهب إليه عمرو بن العاص وقال: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه؟

فبعث إليهم: تقول رقية بنت الرسول ﷺ وزوجها عثمان: فلما جاء الرسول لم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض ماذا تقولون له فى عيسى..؟ فقالت رقية وزوجها: نقول والله الذى قاله الله فيه، والذى أمرنا نبينا أن نقوله فيه، فدخلنا عليه وعنده بطارقته. فقال: ما تقولون فى عيسى ابن مريم...؟

فقال له جعفر: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشى عوداً من الأرض بين أصبعيه وقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود.

ثم قال: اذهبوا فأنتم آمنون فى أرضى، من سبكم غرم، ومن سبكم غرم، من سبكم غرم ثلاث مرات.

وكانت فرحة رقية لا تقدر بانتصار المسلمين المهاجرين على كيد قريش وتدبيرها وقول النجاشى لهم: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى نجد فى الإنجيل، وأنه الرسول الذى بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذى أحمل نعليه.

ووسط هذه الفرحة الغامرة بالانتصار على وفد قريش، تصل أخبار إلى الحبشة بإسلام أهل مكة، والتصالح بينهم وبين رسول الله ﷺ. وتصايح المسلمون نساؤهم ورجالهم وأطفالهم العودة إلى أرض الوطن، وذهب وفد منهم إلى النجاشى يشكرونه على حسن الضيافة. ويستأذنونه فى العودة إلى بلادهم. ففرح النجاشى لإسلام قريش والتفافهم حول نبى الأمة وخاتم النبيين. وزودهم بما يحتاجه المسافر من طعام وغذاء وقدم الهدايا لهم، وحمَّلهم الهدايا لرسول الله ﷺ وسألهم أن يطلبوا منه الدعاء للنجاشى، وأن يرزقه الهداية والتوفيق.

وانطلقت قافلة من ثلاثة وثلاثين شخصاً يعبرون البحر الأحمر ويقطعون الصحراء، وفى مقدمتهم عثمان بن عفان وزوجه رقية، وظلوا يغذون السير وأحلامهم تتطاير أمامهم وتسبقهم حتى وصلوا إلى مكة، وكانت الصدمة الكبرى لهذه القافلة المؤمنة- عندما شاهدوا فوق شعاب مكة وعلى صخورها الملتهبة المسلمون مقيدون والمشركون يسومونهم سوء العذاب.

إذن لا زالت مكة كما تركوها، ولم يزل رجال الكفر لهم المنعة والسلطان، إذن ماذا تفعل هذه القافلة؟

أتعود من حيث أتت، وفى ذلك من المخاطر ما فيه، وقد ينفد منهم الغذاء والماء، ويكون فى ذلك الموت المحقق، وتصير أجسادهم لقمة سائغة

لذئاب الجبال، وصقور الجو.

ولكن كيف يعودون وبينهم وبين الأهل والأحباب بضع خطوات والحنين إليهم طاغ، واللهفة لرؤياهم لا تحتمل التأجيل، وما هى إلا لحظات قليلة حتى هبط الليل بغلائله السود وتحولت مكة إلى قطعة من الظلام الدامس، عندها تسلل وفد القافلة إلى داخل مكة وكلهم يتحسس طريقه ليصل إلى بيته دون أن تلحظه عين، أو ينكشف ستره ووصلت رقية إلى منزل أبيها منزل الأمان والأمن، ومسرح الطفولة والأنوثة، وكان لقاء حاراً وفرحة غامرة بين رقية وأخواتها اختلطت فيها الابتسامات بالدموع، ورفرفت القلوب فرحة ومهللة.

ولكن رقية لم تسمع صوت أبيها، ولم تسمع حفيف أقدامه وهو يأتى مهرولاً للسلام عليها، كما كان يفعل سابقاً معها، عندما كانت تأتى من بيت زوجها وسألت أم كلثوم أين أبى؟

وجاء الجواب سريعاً من أختها لقد ذهب أبى إلى خارج البيت ليتفقد بعض أحوال المسلمين المستضعفين وسيعود قريباً بمشيئة الله.

وحمدت رقية الله كثيراً على سلامة أبيها، ثم تمتمت بينها وبين نفسها وهى تمسح المكان بعينيها أين أمى؟ ثم تخيلت أنها تقبع فى حجرته حتى يعود الزوج من الخارج، ولكن لِمَ لَمْ تخرج للسلام عليها؟، ألم تسمع صوتها؟، وكيف لم تصل إلى مسامعها ضحكاتها الرنانة المجلجلة؟، هل بها وعكة؟، أم أصابها مكروه حال بينها وبين الحركة؟

نظرت فى عيون أخواتها وشاهدت دموعهن تنساب بغزارة على خدودهن وتبادر إلى ذهنها شيئاً. عندها أحست أن سكيناً تغرز فى صدرها. لقد حرك مجيئها الشجن عند اخواتها وجدد الحزن والأسى فى قلوبهن لموت الأم الغالية الحبيبة.

عندها صرخت رقية زاهلة متهالكة يا أماه يا أماه واندفعت نحو غرفتها وانكبت على فراشها تسكب الدموع الغزار، ويكاد قلبها ينفرط بين جنبيها.

ثم أخذت تسبح إلى بعيد أهكذا هى الحياة لحظات قصار تمضى بطيئة متأنية أو سريعة متهرولة، ثم تذهب دون أن يستطيع أى فرد فيها أن يهيئ للآخرين لحظة وداع قبل مغادرتها.

«إنا لله وإنا إليه راجعون».

لم يطل مقام رقية كثيراً فى مكة فقد أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة. وهاجرت رقية مع زوجها إلى يثرب بلد الأنصار، الأنصار الذين تسابقوا إلى إيواء المهاجرين والترحيب بهم حتى ليذكر التاريخ أنه لم ينزل مهاجر فى بيت الأنصار إلا بقرعة لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه من الأنصار أكثر بكثير من عدد المهاجرين الفارين بدينهم.

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الصادقة والعاطفة النبيلة والإيثار الكبير بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١).

ولم يكتف الأنصار بما قدموه من بذل وإيثار، ولكنهم كانوا دائماً فى الصفوف الأولى فى المعارك التى خاضها الإسلام يشدون أزر إخوانهم ويدافعون عن نبيهم ويحملون مبادئ الدين، وتعاليم الإسلام إلى الأصقاع البعيدة والبلاد النائية حتى قال الرسول ﷺ عقب إحدى المعارك- مخاطباً الأنصار-:

«فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا طريقاً وسلك الأنصار طريقاً لسلكت طريق الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»(٢).

(١) سورة الحشر آية رقم: ٩.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التمنى (٩) ومناقب الأنصار (١، ٢) والمغازى ٥٦ ومسلم فى الزكاة ١٣٣، ١٣٤ والترمذى فى المناقب ٦٥، وابن ماجه فى المقدمة ١١، وأحمد بن حنبل فى المسند (١: ٥، ٣، ٤١٠) «حلبى».

وعلى أرض يثـرب الجنة الخضـراء عـاشت رقـيـة أجـمل أيام حيـاتهـا مع زوجها وأخواتها وأبيها، وما كاد يستقر بها المقام فى مدينة الرسول ﷺ حتى أحست رقية بجنين فى بطنها إنها ستصبح أماً عما قريب، وسيصبح عثمان أباً. وما كادت تزف البشرى إلى زوجها حتى أحس كلاهما بأن الله تعالى أراد أن يعوضهما خيراً عن أيام الحرمان التى قضياها وهما يقطعان الصحارى ويركبان البحر فراراً بدينهم إلى أرض الحبشة، ثم الهجرة مرة أخرى إلى يثرب الحبيبة، وقاما فجددا طهورهما ثم توجها إلى خالقهما بالصلاة شكراً له.

إن رقـيـة بالرغم من مضـاعفـات الحمل وآلامه تتفـانى فى خدمـة زوجـهـا وتصنع له كل ما يحتاجه من طعام وشراب، وتهىء له فراشه، وتعمل على راحته.

وكان زوجها عثمان يتفانى فى خدمة الإسلام والمسلمين، ويقدم لهم كل ما يدعم الدعوة ويدفعها إلى الانتشار فى أقطار الأرض الأربعة، لقد اشترى للمسلمين من خالص ماله بئر رومة وكانت ملكاً ليهودى، وكان يبيع ماءها للمسلمين بأثمان عالية فقال الرسول ﷺ: «من يشترى رُومة ويجعلها خالصة للمسلمين، وله بها مشرب فى الجنة».

فقال عثمان: أنا يا رسول الله. وتم شراؤها ووهبها لجماعة المسلمين.

وقال الرسول ﷺ: «من يزيد فى مسجدنا، فاشترى عثمان ﷺ موضع خمس سوار فزاده فى المسجد».

وجهز عثمان من خالص ماله جيش العسرة الذاهب لمعركة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الألف بخمسين فرساً. حتى قال الرسول ﷺ: «ما ضر عثمان ما يفعل بعد ذلك».

وفى ليلة مقمرة صافية، والنسيم العليل يداعب أشجار المدينة، وعثمان ابن عفان رضي الله عنه جالس فى محرابه يرتل آيات الله سبحانه وتعالى ويناجى ربه، حتى إذا اقترب الهزيع الأخير من الليل، سمع صوتاً مكتوماً ينطلق من

حجرة رقية رضي الله عنها فتسلل مسرعاً إليها فوجدها مستيقظة تعانى من ألم الطلق، وتتقلب على فراشها يمنة ويسرة، فعرف عثمان ما تعانيه. وانطلق مهرولاً إلى الخارج ثم عاد مسرعاً تتبعه فى خطوه قابلة المدينة، وأدخلها على رقية ثم عاد إلى صلاته وتسبيحه، ومناجاة ربه أن يخفف عن رقية. وفى أقل من ساعة زمنية، طرق سمع عثمان صوت الطفل الذى استهل صارخاً، فسجد لله شكراً. وما كاد ينفلت من سجوده حتى اقتربت منه القابلة وبشرته بمولود ذكر، وأخبرته أن أم الطفل بصحة جيدة وتطلب أن تراك، وهرول مسرعاً إلى رقية والتقت عيناهما المملوءتان بالفرح والسرور، وخيل لهما أن الدنيا جميعها تشاركهما هذه الفرحة، وامتدت يد رقية تحمل الطفل الوليد لتضعه بين يدى والده، فأخذه منها وطبع على جبينه قبلة ثم رده مرة أخرى إلى رقية قائلاً: يا أم عبد الله بارك الله فيك، وأقر الله عينيك به.

ثم خرج مسرعاً ليزف الخبر إلى رسول الله ﷺ بحفيده الجديد، وكذلك أخوات رقية، أم كلثوم وزينب وفاطمة بشرهن بهذا الوليد.

وما هى إلا لحظات حتى امتلأ البيت على رقية مهنئين وفرحين، وأصبح لرقية من هذا اليوم أنيس يملأ وحدتها، وطفل أكمل سعادتها وانشغل وقتها بالعناية به والرعاية له.

وسارت بهما الحياة وهى مملوءة غبطة وفرحاً، ولما لا تكون كذلك؟ وابنها عبد الله ينمو جسمه ساعة بعد ساعة، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام حتى اقترب من سن السادسة من عمره. وأراد الله أمراً حيث كان الطفل فى ردهة المنزل وهو سابح فى نومه، اقترب منه ديك ونقره عدة نقرات فى وجهه وعينيه.

وانخلع قلب الوالدين وهما يشاهدان الطفل أمامهما والدماء تسيل من جميع أجزاء وجهه- وهو يصرخ ويتألم- وهما لا يستطيعان التخفيف عنه أو رفع الألم الذى لا يحتمله طفل فى مثل سنه.

وكان جده رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتى لحمله والدعاء له ولكن الآلام قد برحت به، وجاءه أجله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(١).

ففارق الدنيا ذاهباً إلى ربه ليصبح عصفوراً من عصافير الجنة.

وجلس عثمان فى بيته يجتر أحزانه ويحبس دموعه وزوجه كذلك حتى ينفطر قلبه، ويضيق صدره، عندها يلجأ إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ليمنحه الصبر والسلوان.

ومرت الأيام وتوالت الليالى، وذكرى عبد الله لا يغيب عنهما ولا تفارق مخيلتهما. حتى جاء يوم وسرى فى أنحاء المدينة، خبر قريش وهى تعد العدة لحرب محمد وصحبه..

وقد أصدر الرسول ﷺ أمره لجماعة المسلمين بإعداد العدة والخيل للوقوف فى وجه هذه الفئة الباغية، وكان عثمان رضي الله عنه أحد المسلمين الذين شغلهم هذا الأمر فانشغل به، وأخذ يعمل فى تجميع العدة والعتاد لهذا اليوم، ولقد وجد فى ذلك شغلاً عما هو فيه، وتخفيف الصدمة التى أحدثتها وفاة ابنه عبد الله.

أما رقية رضي الله عنها فقد جلست فى بيتها والوحدة تجدد أحزانها وتنكأ جراحها، وتشعل آلامها، وفى وسط هذا كله سمعت رقية برجة فى المدينة، وجلبة بين طرقاتها، وأصوات عالية تطرق أذنيها ولكنها لا تتبين معانيها ماذا يكون هذا..

وجاءها الخبر، إنه جيش الإسلام الخارج إلى مشارف ماء بدر لملاقاة هؤلاء المشركين المغيرين، وأخذت رقية تتأمل جيش الإسلام جيش النصر، وعلى كتيبة منهم شاهدت زوجها عثمان بن عفان وبجواره عبد الله بن مسعود يحمل الراية وينادى بالمسير، ولكن ما كاد الجيش يغز السير إلى بدر حتى شاهد رسول الله ﷺ عثمان بن عفان حتى أمره بالنزول والبقاء فى المدينة لرعاية شئون رقية فى محنتها هذه والتخفيف من آلامها. واستجاب

(١) سورة الرعد آية رقم: ٣٨.

عثمان لأمر قائده.

وانطلق الجيش إلى غايته وعاد عثمان إلى المدينة، وذهب إلى بيته وشاهد رقية، وهى لا تقوى على الوقوف، من مرض حلَّ بها فجأة، فأذهب نضارتها، ونحل جسمها، وحولها إلى هيكل من العظم تحمله قدمان هشتان..

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة على عثمان ورقية وقلقهما على رسول الله وصحبه من هذه الفئة الباغية يزداد حتى جاء البشير بانتصار المسلمين على عصابات الشرك والكفر، وعمت الفرحة أرجاء المدينة، وقامت رقية من فراشها وكأنها لم تصب بمرض قط..

وما هى إلا أيام قليلة حتى عاد رسول الله ﷺ ومعه المسلمون وعلى رؤوسهم تيجان النصر والفخار. إنهم الفئة المؤمنة الذين سينداحون عما قريب إلى أركان الأرض الأربعة لنشر دين الله ورفع راية التوحيد حتى قال الله تعالى عنهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾(١).

وما كاد الرسول ﷺ تطأ أقدامه أرض المدينة حتى هرول مسرعاً إلى بيت عثمان ليطمئن على رقية، ولقد كانت فى ذلك الوقت نشيطة مرحة، ووجهها مشرقاً وعيناها تمتلآن بالنضارة والحبور ورفعت نظرها فإذا أبوها أمامها فمدت ذراعها إليه ولكنه أخذها بين أحضانه وطبع على جبينها قبلة، وكأنها كانت قبلة الوداع الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا.

ثم انطلقت روحها إلى بارئها بعد أن ألقت على زوجها وإخوتها وأبيها آخر نظرات الحياة.

رحمها الله رحمة واسعة، وأسكنها فسيح جناته، إنه سميع الدعاء.

(١) سورة الفتح آية رقم: ٢٩.

أسباب النزول

لما كانت عادة العربيات التبذل، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكره فيهن، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن.

وكنَّ يتبرزن فى الصحراء قبل أن تتخذ الكنف- فيقع الفرق بينهن وبين الإماء فتعرف الحرة بسترها فيكف عن معاكستها من كان عزباً أو شاباً. وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تخرج للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أمة فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ونزلت الآية بسبب ذلك.

قوله تعالى: ﴿من جلابيبهن﴾.

الجلاليب جمع جلباب وهو ثوب أكثر من الخمار، وروى عن ابن عباس، وابن مسعود أنه الرداء، وقد قيل إنه القناع، والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البدن.

وفى صحيح مسلم عن أم عطية رضي الله عنها قلت يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟

قال: «لتلبسها أختها من جلبابها»(١).

واختلف الناس فى صورة إرخائه فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعبيدة السلمانى: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها.

وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقال الحسن: تغطى نصف وجهها.

(١) الحديث أخرجه البخارى فى العيدين ٣٠، والحيض ٢٣، ومسلم فى العيدين ١٢، والترمذى فى الجمعة ٣٦، وابن ماجه فى الإقامة ١٦٥، وأحمد فى المسند ٥: ٨٤ «حلبى».

فأمر الله سبحانه وتعالى جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

وقد ثبت أن النبى ﷺ استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن، وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة»(١).

وروى أن دحية الكلبى لما رجع من عند هرقل، فأعطاه النبى ﷺ قبطية فقال: «اجعل نصفها لك قميصاً واعط صاحبتك النصف تختمر به» ثم قال: «مُرْها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف».

وذكر أبو هريرة رضي الله عنه رقة الثياب للنساء فقال: «الكاسيات العاريات الناعمات المتنعمات».

ودخل نسوة بنى تميم على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قُبطِى معصفر فلما رأتها قالت: «لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا الثوب».

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج فى أطمارها أو أطمار جارتها مستخفية لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها..

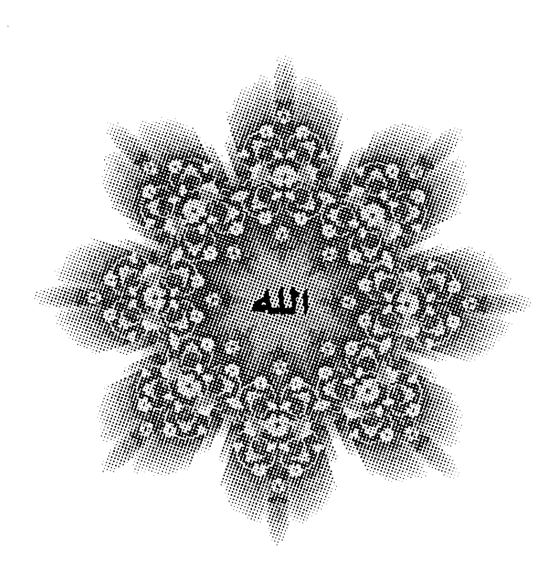
(١) الحديث ذكره القرطبى فى التفسير ١٤: ٢٤٤ ط دار الكتب المصرية.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم فى اللباس ٣٤ باب النساء الكاسيات العاريات ١٢٥ (٢١٢٨) وابن ماجه، وأحمد بن حنبل (٢٢٣٢، ٢٥٦). وهذا الحديث من معجزات النبوة فقد وجد هذا الصنف فى هذا العصر فى بلاد المسلمين ومعنى كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها، وقيل معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه، وقيل معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها وأما مائلات فقيل معناه عن طاعة الله مميلات أى يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، وقيل مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، ومعنى رؤسهن كأسنمة البخت أى يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها.

وكان عمر إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة محافظة على زى الحرائر. وقد قيل: إنه يجب الستر والتقنع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء، وهذا كما أن أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله:

«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(١).

حتى قالت عائشة ﵂: «لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل.



(١) الحديث أخرجه البخارى فى الجمعة (١٣) ومسلم فى الصلاة (١٣٥، ١٣٦) وأبو داود فى الصلاة (٥٢) وصاحب الموطأ (١٢) وأحمد بن حنبل فى المسند (٢: ٣٦، ٤٣) «حلبى».



تذييل

حرص الإسلام على إيجاد المجتمع النظيف

حرص الإسلام على إيجاد المجتمع النظيف

يحرص الإسلام على إيجاد المجتمع المسلم النظيف، الذى لا تعرى فيه الأجساد ولا تكشف العورات، ولا تهاج فيه الشهوات، ولا يبتلى بالاختلاط الجنسى التى يتم بين الرجل والمرأة بعيداً عن شرع الله، وفى غفلة من قوانين وأعراف المجتمع ولهذا قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة رضي الله عنها قالت إن لنساء قريش لفضلاً وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله، وإيماناً بالتنزيل لما نزلت فى سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه،

(١) سورة النور آيتان: ٣٠، ٣١.

فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان(١).

فالإجابة فورية لأمر الله تعالى ولا تكاسل أو تهاون فيما يفرضه الله تعالى على عباده.

والجنس فى الإسلام دافع من أقوى الدوافع لدى الإنسان، وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى. هذه الحكمة هى تعمير الكون وإقامة الخلافة فى الأرض، واستمرار الحياة فيها.

والجنس فى الإسلام ليس هو ينبوع القذارة والخطيئة كما يدعى أصحاب بعض المذاهب والديانات السابقة.

وليس- وحده- هو الطاقة المحركة لكيان الإنسان كما قال «فرويد» ومدرسته الذى أثبت العالم فشلها وضلالها.

وليس هو مسألة «بيولوجية» تؤدى على قارعة الطريق أو خلسة بين اثنين كما يفعل بعض دعاة المدنية الحديثة.

وليس هو رجلاً لكل النساء أو امرأة لكل الرجال كما يفعل دعاة العلمانية والرأسمالية- ومن سار سيرهم.

وإنما هو دافع، ودافع نظيف، وله وظيفة محددة قال الله تعالى:
﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾(٢).

إن التعبير بالحرث يناسب هذا الواقع لأنه واقع إخصاب وتوالد ونماء وما دام حرثاً فأتوه بالطريقة التى تشاءون فى موضع الإخصاب الذى يحقق غاية الحرث، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى فيكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم واستيقنوا من لقاء الله الذى يجزيكم بما قدمتم.

(١) الحديث أخرجه البخارى فى التفسير ١٢ باب «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» برقم ٤٧٥٨، ٤٧٥٩ عن صفية بنت شيبة، وأخرجه النسائى من رواية ابن المبارك.

(٢) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾(١).

وبذلك حدد منهج القرآن العلاقة الجنسية بتلك الصورة الموحية الجميلة صورة الأرض التى تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تنبت وتأتى ثمرة جديدة من نفس النوع.

والجنس بهذا التصور وسيلة لبقاء النوع الإنسانى وانتشاره قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(٢).

وهو وسيلة السكن والراحة والمودة والرحمة قال تعالى:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

إن هذه الصلة التى تكون بين الرجل وزوجه، هى صلة المودة والرحمة صلة فيها السكن للنفس والعصب. صلة فيها الرحمة للجسم والقلب. صلة فيها استقرار الحياة والمعاش.

وأنساً للأرواح والضمائر، واطمئناناً لكل من الرجل والمرأة. إن المؤمن يدرك حكمة الله سبحانه وتعالى فى جعل كل من الجنسين موافقاً للآخر ملبياً لحاجته الفطرية سواء أكانت هذه الحاجة نفسية، أو عقلية، أو جسدية بحيث يجد فى رحابها الراحة والطمأنينة والاستقرار، لأن فى تركهما النفسى والعصبى والعضوى ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما فى الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما فى النهاية لإنشاء هذه الحياة الجديدة.

هذا هو رباط الجنس فى منهج القرآن، وهذه هى العلاقة الجنسية فى قواعد الإسلام، والمتأمل فى ذلك يجد أن منهج القرآن يختلف عن كل

(١) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.
(٢) سورة النساء آية رقم: ١.
(٣) سورة الروم آية رقم: ٢١.

المناهج الأرضية فى هذه المسألة.

فالجنس ليس تسافداً كتسافد الطيور على الأشجار، وليس تصارعاً على المرأة الجميلة فى الحانات والأندية كما تتصارع فصائل الكلاب على الأنثى وليس عملية تتم فى الظلام بلا عقود أو شهود.

وإنما هو سكن يلجأ إليه الرجل، ليجد فى أنسه الراحة، وفى قربه الأمن والاستقرار.. والهدوء والاطمئنان.. وهو أولاً وأخيراً مودة ورحمة..

وبهذا ينشأ الأطفال- الزغب- فى هذا الجو، جو الدفء والحنان والرعاية، والجنس فى منهج القرآن أيضاً وسيلة الإحصان والعفة وسيلة الستر والوقاية. قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١).

لباس للستر والحفظ، يستر الجسد فلا ينكشف، ويستر العورة فلا تبين، يستر عورات الإنسان ونتوءات جسمه. يستر عيوبه الجسدية والخلقية والجنسية.

يستر جهله وطيشه وفلتات لسانه، يستر ضعفه أو شرهه ويخفى أسراره التى لا يجب أن تعرض خارج نطاق الزوجين.

ووقاية للرجل والمرأة عن التفكير فى الفحشاء أو ارتكابها، وتلطيف لوقدة الشهوة وفوران الرغبة. كما يلطف الثوب الساتر أذى الهاجرة وقسوة الزمهرير.

لهذا كان منهج القرآن يعمل على تشجيع الأفراد على الزواج ويحثهم عليه ويصل فى بعض هذه التوجيهات إلى درجة الأمر.

قال الله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(٢).

ويقرر أن لهم أجراً فى ذلك لا يقل عن أجره فى أى عمل من أعمال الدنيا يؤديه. يقول الرسول ﷺ: «وفى بضع أحدكم صدقة».

(١) سورة البقرة آية رقم: ١٨٧.   (٢) سورة النساء آية رقم: ٣.

قالوا: يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر..؟»

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: «فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»(١).

ومنهج القرآن يرفع الجنس إلى مستوى بعض العبادات. ففى حديث الرسول ﷺ:

«حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(٢).

والجنس فى منهج الإسلام، لا يتم إلا بعقد موثق ورضا وقبول وشهود يشهدون على هذا العقد.

فإذا تم على غير هذه الصورة فهو الفاحشة والمنكر، قال الله تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

يقول الأستاذ محمد قطب: لأن هذه الفتاة التى تسلم فى جسدها لرجل ليس بينها وبينه عقد موثق مثلها كمثل الحارس الذى يدعو الناس إلى سرقة المال الذى يحرسه.

فذلك لا يعطى الناس الحق فى السرقة، لأن الحاري لا يملك المال فى الحقيقة، وهذه الفتاة الحارسة على عرضها لا تملك التصرف فيه ولا دعوة الناس إلى اغتصابه، لأنه ليس عرضها وحدها، ولكنه عرضها وعرض والديها وعرض أسرتها وعرض الإنسانية المسلمة.

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب الزكاة بيان بأن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ٥٣.

(٢) الحديث رواه النسائى فى عشرة النساء (١)، وأحمد بن حنبل فى المسند (٣: ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) «حلبى».

(٣) سورة النور آية رقم: ٢.

إنه عرض الأمانة التى ائتمن الله عليها البشر، وينبغى أن يردوا الأمانة نظيفة، كما تلقوها كاملة ولا يسلموها إلا بحقها الذى نص عليه صاحب الحق.

وهذا الذى نقوله بالنسبة للفتاة نقوله للرجل، فالرجل لا يملك من عرضه شيئاً إلا بحقه.

فإذا انحرف الإنسان عن هذا المنهج وخرج عن هذا الطريق، كان الجزاء ومع ذلك فإن منهج الإسلام يعترف بالضعف الإنسانى قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(١) .

ويعامله منهج الإسلام على أساس هذا الضعف فيغفر له زلاته ما دام لم يصر عليها قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٢) .

(١) سورة النساء آية رقم: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران الآيتان: ١٣٥، ١٣٦.



زوجة موسى

عليه السلام


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(سورة القصص: ٢٦، ٢٧)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات فى زواج موسى عليه السلام.

قال ذلك الإمام الطبرى فى التفسير (٢٠: ٦٠، ٦١، ٦٢).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (١٣: ٢٦٧، ٢٦٨).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٣: ٣٩٦، ٣٩٧).

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير (٦: ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦).

فمن هى زوجة موسى عليه السلام؟



حياتها ونشأتها

هى صفوريا ابنة شعيب عليه السلام.

والدها شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام.

أرسله الله تعالى إلى أهل مدين قال فى كتابه الكريم:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

وأرسل أيضاً إلى أصحاب الأيكة قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢).

وكان شعيب حسن الصوت فارع الطول ممتلأ الجسم، وخطيباً مفوهاً وروى عن النبى ﷺ أنه قال إذا ذكر شعيب قال: «هذا خطيب الملائكة»(٣).

وأمها- كما تذكر بعض الروايات ابنة لوط عليه السلام. الذى أرسل إلى قومه،

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٥.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٧٦- ١٧٩.

(٣) ذكره الإمام القرطبى فى التفسير جـ ٩ ص ٩٠ ط دار الكتب.

وكانوا يأتون الفاحشة جهاراً قال الله تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(١).

فأرسل الله تعالى ملائكة فى صورة شباب فالتقت بهم ابنة لوط عليه السلام التى كانت تستسقى من الماء لأهلها فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم. فمكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم- خوفاً عليهم من قومها- فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هى أحسن منهم. أخشى أن يأخذهم قومك فتكون فضيحة لنا؟؟

فخرج لوط عليه السلام وجاء بهم إلى بيته، ولم يعلم بهم أحد إلا زوجته وما كادت تراهم هذه المرأة حتى خرجت إلى قومها مسرعة لتخبرهم بضيوف زوجها الملاح الوجوه الغضة أجسامهم.

فجاءوا يراودون ضيوفه عن أنفسهم فأعماهم الله وطمس على عيونهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾(٢).

ثم صب الله تعالى عليهم العذاب صباً قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٣).

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾(٤).

وآل لوط هما ابنتاه اللتان تزوج صغراهما شعيب عليه السلام فولدت له «ليا» و«صفوريا».

ثم يصمت التاريخ فلا يحدثنا من قريب أو من بعيد عن طفولة «صفوريا» ابنة شعيب عليه السلام، لقد ولدت على أرض مدين، وكان أبوها رسولاً نبياً يدعو قومه لعبادة الواحد الأحد.

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٨٠.

(٢) سورة القمر آية رقم: ٣٧.

(٣) سورة هود آية رقم: ٨٢، ٨٣.

(٤) سورة القمر آية رقم: ٣٤.

فماذا كانت حياة «صفوريا» هل نشأت نشأة مترفة؟ هل كانت تعيش فى قصر متعدد الردهات؟ أم أنها كانت تعيش عيشة الكفاف، كما كان يعيش والدها وكل الأنبياء والرسل من قبله؟

ومتى سمح لها والدها أن تشارك أختها فى رعى الغنم..؟ لا شك أنها نشأت حياة عادية، ككل الفتيات على أرض البادية: سماء مفتوحة وشمس مشرقة، وأرض مكشوفة، ونسمات عليلة، وصحة ونشاط وحيوية وحركة، ومشاركة فعالة فى شئون الحياة كلها، فلا ترف ولا خمول، ولا كسل ولا تبطل، وإنما هو جد وعمل.

ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن تلتقى بموسى الشاب الهارب من أرض مصر، بعد أن قتل نفساً عن طريق الخطأ وهو يدفعه عن أحد أقاربه من بنى إسرائيل. فأمر فرعون مصر اللحاق بالقاتل وحضوره إلى مجلس الحكم ليكون القصاص والقتل، أو قتله فى أى مكان وجد فيه.

وسمع رجل صالح من آل فرعون ما بيتته هذه الفئة الباغية من قتل هذا الشاب فلحق به وقال له:

﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(١).

فخرج موسى من أرض مصر خائفاً يترقب حتى وصل إلى أرض مدين بعد رحلة شاقة مؤلمة، وكان لقاؤه بهاتين الفتاتين اللتين تريدان أن تسقيا أغنامهما ولا تستطيعان ذلك حتى يصدر رعاة الغنم من على البئر وذكرتا أن أباهما شيخ كبير.

وقام الشاب الذى يملأ الإيمان والصدق كل جارحة من جوارحه فسقى لهما أغنامهما ثم توجه إلى ظل شجرة وتمتم بينه وبين نفسه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢).

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٠.

(٢) سورة القصص آية رقم: ٢٤.

وانطلقت الفتاتان إلى منزلهما- وشعر الوالد بمجيئهما مبكرتين على غير العادة، وقصتا على أبيهما أمر هذا الشاب الذى ساعدهما فى سقى الغنم، ولا شك أنه غريب من غير هذه الديار. وطلب الوالد من ابنته الصغرى أن تحمل رسالة له تدعوه لمقابلة أبيها:

قال تعالى:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(١).

جاءته ساترة وجهها بكم ذراعها- فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين المكان الذى جلس فيه موسى وبين منزل شعيب عليه السلام ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت جسمها وبرزت مفاتنه، فتحرج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعى خلفى وأرشدينى إلى الطريق بصوتك. حتى وصل إلى المكان الذى جلس فيه شعيب. وتلاقى الضيف والمضيف. وقرب شعيب لضيفه طعاماً.

فقال موسى: «لا آكل أنا من هذا الطعام إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً».

أى أن الذى فعله مع ابنتيه هو من الدين الذى أمر الله تعالى به فكيف يأخذ عليه أجراً..؟

فقال شعيب: ليس هذا عوض السقى، ولكن عادتى وعادة آبائى وأجدادى إكرام الضيف وإطعام الطعام فحينئذ أكل موسى.

ثم أخذ موسى يلقى على مسامع شعيب قصته مع فرعون، وما يلقاه بنى إسرائيل فى مصر على يد هذا الطاغية، حتى إنه ذبح منهم أكثر من سبعين ألف طفل، وكيف أن أتباعه وجنوده يسومون بنى إسرائيل سوء العذاب وعندما رأى أحد الفراعنة ينال من رجال من بنى إسرائيل لطمته بيدى

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٥.

فكانت القاضية.

فخرجت الشرط فى أثرى تريد قتلى، ولكن الله نجانى منهم حتى وصلت إلى بلادك هذه. عندها قال شعيب لموسى: ابشر واطمئن.

﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١).

وعندما أوشكت أيام الضيافة أن تنصرم، وأراد موسى أن يغادر بيت شعيب وشعرت الفتاتان بعزمه على الرحيل:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(٢).

إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء ومن الاحتكاك الذى لابد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال، وهى تتأذى وأختها من هذا كله، وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت، امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى الرعى والسقى، والمرأة العفيفة الروح، النظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة.

وها هو ذا شاب غريب طريد، وهو فى الوقت ذاته قوى أمين، رأت من قوته ما يهابه الرعاة فيفسحون له الطريق، ويسقى لهما، وهو غريب ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته فهى تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل، وهو قوى على العمل، أمين على المال، فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه.

وهى تقول ذلك لا تتلعثم فى هذه الإشارة، ولا تضطرب، ولا تخشى سوء الظن والتهمة، فهى بريئة النفس، نظيفة الحس، ومن ثم لا تخشى شيئاً ولا تتمتم ولا تجمجم وهى تعرض اقتراحها على أبيها.

ولقد استراح شعيب لاقتراح ابنتيه وخصوصاً بعد معايشته لموسى أيام الضيافة: فهو الشاب القوى فى جسمه، والقوى فى إيمانه والقوى فى صلته

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٥. (٢) سورة القصص آية رقم: ٢٦.

بريه. والقوى فى عمله إذا أسند إليه شىء من الأعمال، وهو الأمين على أموال الآخرين وأعراضهم، فلا يخون، ولا يختلس ولا يحابى أو يجامل فى الحق، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى هداه إلى طريقه قبل أن يكلفه بأعباء الرسالة. قال الله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(١).

وتقدم شعيب إلى موسى قائلاً له:

﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢).

ووافق موسى على ما عرضه عليه شعيب من رعى الغنم وسقى الزرع والقيام بكل ما يحتاجه شعيب من الخدمة.

قال ابن عباس- ﷺ - عندها أمر شعيب ابنته صفوريا أن تأتيه بعصا وكانت تلك العصا استودعها إياه مَلَكٌ فى صورة رجل فعندما دخلت وأحضرتها ورآها شعيب قال لها: لا إيتيه بغيرها فدخلت وألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع فى يدها إلا هى، وجعل يرددها ولكن ما كان يخرج فى يدها إلا هذه العصا.

فلما رأى ذلك شعيب أعطاها له فرعى موسى بها ثم أراد شعيب أن يأخذها من موسى فأبى أن يعطيه، فاختصما بينهما ثم تراضيا أن يجعل بينهما أول رجل يلقاهما. فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال: ضعاها فى الأرض فمن حملها فهى له.

فعالجها الشيخ فلم يطق ذلك فتركها وأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ وعلم أن له شأناً.

فلما أصبح قال شعيب لموسى: سق الأغنام إلى مفرق الطوق، فخذ عن يمينك، وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتنيناً كبيراً لا يقبل المواشى.

(١) سورة طه آية رقم: ٤١. (٢) سورة القصص آية رقم: ٢٧.

فساق المواشى إلى مفرق الطرق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، ثم نام موسى وخرج التنين من جحره، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً وحاربت التنين حتى قتلته. وعادت إلى موسى عليه السلام فلما انتبه موسى رأى العصا مخضبة بالدم والتنين مقتولاً.

ولما عاد إلى شعيب ليلاً رأى شعيب أثر الشبع باد على الأغنام فسأله عن القصة. فأخبره بها.

ففرح شعيب بذلك فرحاً شديداً وقال لموسى: «كل ما تلد المواشى هذه السنة ذات لونين فهو لك». فجاءت جميع الخراف الصغيرة تلك السنة ذات لونين».

فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة لا يدانيه فيها أحد من خلقه.

وتوالت الأيام وتتابعت السنون، وانقضى الأجل الذى حدده شعيب لموسى. عشر سنوات كاملة.

وقرر موسى أمراً لا رجعة فيه- لابد من الرحلة إلى مصر- حتى يرى أمه وأخاه هارون، ويصحب معه زوجه، الزوجة الصابرة المؤمنة الزوجة المطيعة، التى قررت أن تصحب زوجها فى رحلته لا إلى مصر فقط ولكن إلى آخر الدنيا- إن كان لها آخر ما دام فى ذلك رضاه وسعادته. وتم حزم أمتعتهما وتجهيز ما يحتاجه المسافر فى رحلة ليست بالقصيرة وزودهما أبوها بقطيع من الأغنام وبعض النوق وفرسين وسارا فى طريقهما المرسوم تباركهما دعوات شعيب وتحرسهما عناية الله ورعايته قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(١).

ونتساءل لماذا عاد: وقد خرج من مصر طريداً، وغادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يسومون العذاب ألواناً..؟ بعد أن وجد الأمن والطمأنينة فى مدين إلى جو شعيب الذى آواه وزوجه إحدى ابنتيه؟

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٩.

إنهـا جـاذبيـة الوطن والأهـل، وتعلق الإنسـان بالأرض التى ولد عليـهـا والمسرح الذى شهد حياته الأولى.

وهكذا عاد موسى فضلَّ طريقه فى الصحراء ومعه زوجه، ضل طريقه والليل مظلم والمتاهة واسعة يعرف هذا من قوله:

﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾(1).

وأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ليراها السارى فى الصحراء فتكشف له الطريق أو يجد عندها القرى والضيافة. لقد ذهب يطلب قبساً من النار، ويطلب هادياً يدله على الطريق، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى، إنها النار التى تدفئ الأرواح لا الأجساد النار التى تهدى إلى رحلة الحياة الكبرى لا تلك الرحلة القاصرة المحدودة. قال تعالى:

﴿ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(2).

إن الله اختار موسى نبيّاً ورسولاً وأمره بالاستماع لما يوحى إليه من عنده، وقواعد الاستماع أشار إليها العلماء بقولهم:

١- سكون الجوارح وغض البصر.

٢- الإصغاء بالسمع.

٣- حضور العقل والعزم على العمل.

فالاستماع الذى يحبه الله تعالى من العبد كف جوارحه فلا يشغلها فينشغل قلبه عما يسمع، وغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشىء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

إن موسى يوحى إليه من ربه، وكانت قضية الوحى الأولى لموسى عليه السلام

(١) سورة طه آية رقم: ١٠.

(٢) سورة طه الآيات: ١١- ١٥.

هو التوحيد، توحيد الخالق فلا إله إلا الله، وتوحيد العقيدة فلا دين إلا الإسلام، وتوحيد البشرية كلهم من آدم وآدم من تراب. هذه قضية الوحى الأولى وكانت الثانية الذهاب إلى فرعون لكشف الألوهية الزائفة التى يدعيها. قال تعالى:

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾(١).

إن البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، وهو رب الناس، فليس هو إلهاً خاصّاً لموسى وهارون، أو لبنى إسرائيل كما كان سائداً فى خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة.

وأيضاً لموضوع رسالتهما: «فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم» ففى هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون لاستنقاذ بنى إسرائيل. والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوها.

ثم استشهاد على صدقهما فى الرسالة: ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ تدل على صدقنا فى مجيئنا إليك بأمر ربك فى هذه المهمة المحددة عند هذا الحد ثم إبلاغ موسى وحى ربه وقد وعاه قلبه وسمعته إذناه. ثم ماذا؟

عاد إلى زوجه، وقد مكث طويلاً بعيداً عنها- عاد وهو لا يملك ناراً ولا دليلاً، ولكنها كانت تحس بالدفء والأمان، وسار وزوجته متجاورين، وشعرا أن الأرض كانت تطوى من تحت أقدامهما والنسمات الرخية تضرب صفحة وجهيهما. حتى وصلا إلى مشارف مصر. ولاحت أمامهما مدينة منف بمبانيها العالية، وشوارعها المتسعة، ونخيلها المتشابك، وأرضها المنبسطة المفروشة بالخضرة، والثمار، ونيلها الرقراق الذى ينساب فى سهولة ويسر نحو الشمال.

(١) سورة طه الآيات من: ٤٣- ٤٧.

الرحلة إلى مصر

وطرق موسى باب داره الذى لم تغيره السنون المتتابعة، ولم تؤثر فيه عوامل التعرية المتغيرة. وفتح الباب وتعانق موسى عليه السلام مع أمه عناقاً طويلاً ممتداً واختلطت دموع الفرح بالابتسامة ثم قدم لها زوجته فرحبت بقدومها أرض النيل وأخذت فى تقبيلها واحتضانها لأنها زوجة ابنها وفيها رائحته وعطره، ثم أخذت من بين يدى الزوجة حفيدها وضمته إلى صدرها وكأنها تعوض بذلك حرمان السنين الذى افتقدت فيها ولدها موسى بعد أن طارده جنود فرعون واختفى تلك السنين الطوال. وكانت فرحتها بوصول موسى إليها حيّاً بعد هذه السنين لا تقل عن فرحتها يوم رد إليها طفلاً من قصر فرعون.

وفى اليوم التالى لوصوله جلس موسى مع أخيه هارون عليهما السلام وأبلغه رسالة ربه بالذهاب معاً إلى فرعون يدعوانه إلى الإيمان برب العالمين.

قال هارون: سمعاً وطاعة لأمر ربى.

وما كادت الأم تسمع تحاور ولديها حتى انتفضت صائحة وقالت: أنشدكما الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما؟؟

وما كان موسى وهارون عليهما السلام يملكان عدم الذهاب إلى فرعون بعد أن أمرهما الله بذلك وإلا انطبق عليهما قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[1].

ثم ذهبا إلى فرعون فقال له موسى عليه السلام:

هل لك يا فرعون فى أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك فلا ينزع منك ويرد إليك.

وتبقى عندك لذة المناكح والمشارب والركوب.

فإذا مت دخلت الجنة..؟ بشرط أن تصدقنى وتؤمن بالله الواحد الأحد؟

---

(١) سورة المائدة آية رقم: ٦٧.

فوقعت فى نفسه هذه الكلمات اللينة فقال: كما أنت حتى يأتى هامان فلما جاء هامان قال له: أشعرت أن ذلك الرجل أتانى؟

قال هامان: من هو...؟

قال فرعون: موسى.

قال هامان: وما قال لك...؟

قال فرعون: قال لى: كذا وكذا.

قال هامان: وما رددت عليه..؟

قال: قلت حتى يأتى هامان فأستشيره..؟

فعجَّزه هامان وقال: قد كان ظنى بك خيراً من هذا، تصير عبداً يَعْبُدُ بعد أن كنت رباً يُعْبَدُ؟

فذلك حين خرج على قومه وقال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[1].

ثم قال لقومه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[2].

وكانت «صفوريا» زوجة موسى تتابع تحركات زوجها وتتسمع أخباره مع فرعون. ولما جاء يوم الزينة وحشر الناس ضحى من كل أنحاء مصر ليشاهدوا سحرة فرعون وتحديات موسى وأخيه هارون ذهبت «صفوريا» إلى مكان التجمع لتكون قريبة من زوجها.

وعندما قال السحرة لموسى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[3].

وما كادت «صفوريا» تشاهد فعل السحرة حتى أصيبت بحالة من الكآبة والضيق ثم غابت عن الوعى، وذلك عندما شعرت أن موسى لا يستطيع

(١) سورة النازعات آية رقم: ٢٤.   (٢) سورة الشعراء آيات: ٣٤- ٣٧.

(٣) سورة طه آية رقم: ٦٥.

مجارات السحرة فى حيلهم وأساليبهم الشيطانية.

ولم تفق «صفوريا» من غيبوتها إلا بعد حدوث الهرج والمرج من الجماهير التى شاهدت عصا موسى تلقف وتبطل سحر السحرة حتى لم يبق فى الساحة غيرها، عندها خرَّ السحرة سجداً وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾(١).

قالوا ذلك لاعتقادهم أنه لا يستطيع أن يتغلب عليهم سحر ساحر أما وقد غلبهم موسى لأن ما جاء به ليس سحراً وإنما هو من صنع العليم الخبير.

وجن جنون فرعون وأخذ يرغى ويزيد ويتوعد السحرة بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

وتمتمت «صفوريا» بينها وبين نفسها بكلمات الحمد والشكر لله تعالى الذى نصر الحق وجنده، وهزم الباطل وحزبه. وصدق ربى فى قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

إن «صفوريا» تحولت إلى داعية للنساء فى مدينة منف، داعية لعقيدة التوحيد التى هى دعوة الأنبياء جميعاً، وكانت تقول للنساء المصريات والإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ودينه واحد لا يتعدد وإن كان الرسل والأنبياء تعددوا حسب الأزمان والعصور ودين الله الذى ارتضاه لعباده هو الإسلام إسلام الوجه لله. فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل كانا يقولان وهما يبنيان البيت:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٤).

وقال الله تعالى عنهما: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(٥).

(١) سورة طه آية رقم: ٧٠.
(٢) سورة طه آية رقم: ٧١.
(٣) سورة الروم آية رقم: ٤٧.
(٤) سورة البقرة آية رقم: ١٢٨.
(٥) سورة آل عمران آية رقم: ٦٧.

ونوح عليه السلام كانت دعوته إلى الإسلام قال الله تعالى على لسان نوح:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(1).

ويوسف عليه السلام كانت دعوته إلى الإسلام قال تعالى على لسانه:

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(2).

وسحرة فرعون عندما تبين لهم الحق قالوا لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(3).

وذاع وشاع ما كانت تلقيه على النساء في دورهن. وأخذت النساء يتوافدن عليها في دارها حتى ضاقت بهن. ثم اتسعت هذه الدار وتحولت إلى محراب للصلاة والعبادة وتعليم الدين الذي جاء به موسى من عند الله تعالى: وكبر ولداها وتفرغا للحياة والعمل، وسارت بهم الحياة رخية هادئة. بعد أن غرق فرعون وجنده.

ثم ماذا...؟ لكل بداية نهاية ولكل أجل كتاب لقد جاء أجلها وذهبت روحها إلى بارئها. ودوى الكون كله بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(4).

---

(1) سورة يونس آية رقم: ٧٢.

(2) سورة يوسف آية رقم: ١٠١.

(3) سورة الأعراف آية رقم: ١٢٦.

(4) سورة الفجر الآيات: ٢٧- ٣٠.

أسباب نزول هذه الآيات

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قال عمر بن الخطاب استترت بكم قميصها وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾

يعنى أنها على الاستحياء قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره للضيافة يستحى لاسيما المرأة وفى ذلك دلالة على أن شعيباً لم يكن له معين سواهما.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ففيه إشكالات:

أحدها: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية فإن ذلك يورث التهمة العظيمة وقال ﷺ: «اتقوا موضع التهم».

وثانيها: أنه سقى أغنامهما تقرباً إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فإن ذلك غير جائز فى المرءوة ولا فى الشريعة؟

وثالثها: أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه عليه السلام كان فى غاية القوة بحيث يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى. فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على هذا القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة.

ورابعها: كيف يلقى بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفاً أو فاسقاً؟

والجواب عن الأول: أن نقول أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرّاً أو عبداً ذكراً أو أنثى فى الأخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها، وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع.

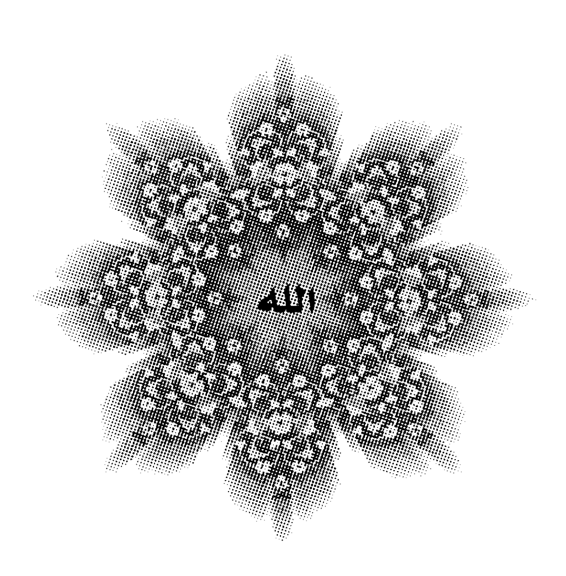
والجواب عن الثانى: أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهما طلباً للأجرة بل للتبرك برؤية الشيخ. وروى أنها لما قالت ليجزيك كره

ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب هذه عادتنا فى كل من ينزل بنا، وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار.

الجواب عن الثالث: فإن الضرورات تبيح المحظورات.

والجواب عن الرابع: لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها(1).

هذا وبالله التوفيق



(1) راجع تفسير الفخر الرازى ١٢: ٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.



تذييل

حلول الإسلام لمشكلة العنوسة

حلول الإسلام لمشكلة العنوسة...

هل يجوز للأب أن يتقدم لشاب تتوافر عنده متطلبات الزواج ويخطبه زوجاً لابنته؟

وإذا كان هذا جائز ولا غبار عليه؟

فما موقف الأب إذا عرض ابنته على من وقع عليه الاختيار ليكون زوجاً لها واعتذر الشاب عن الزواج؟؟

هل يكف الأب عن العرض ولا يعاود الكرة مرة أخرى مع غيره من الشباب؟

وإذا كان العرف فى مجتمعاتنا لا يقبل ذلك ولا يجوزه فماذا نفعل فى أيامنا هذه والعنوسة تتكاثر، وانصراف الشباب عن التفكير فى الزواج يزيد يوماً بعد يوم.

ونتساءل هل حدث فى الأزمنة السابقة من قام بعرض ابنته على راغبى الزواج من الرجال أم أن ذلك لم يحدث؟

إن صاحب كتاب «تاريخ الرسل والملوك» يقدم لنا أول حادثة عرض من نوعها كانت فى عهد النبى صالح عليه السلام:

حيث جلس شيخان عزيزان لأحدهما ابن يرغب له فى الزواج وللآخر ابنة لا يجد لها كفئاً.. فلما جمع بينهما المجلس قال والد الفتاة لصاحبه: ما يمنعك أن تزوج ابنك وقد توفرت له كل متطلبات الزواج؟

قال الآخر: لا أجد له كفئاً..؟

قال والد الفتاة: فإن ابنتى كفء له وأنا أزوجك. وتم زواج الفتى والفتاة.

وكانت الحادثة الثانية التى ذكرها القرآن الكريم عندما قال شعيب عليه السلام لموسى بن عمران: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(1).

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى، عرضها فى غير تحرج ولا التواء فهو يعرض زواجاً لا يخجل منه، يعرض بناء أسرة وإقامة مجتمع وليس فى هذا ما يخجل ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد أو الإشارة عن بعد، أو التصنع والتكلف مما نشاهده فى هذه البيئة التى نعيش فيها والتى تنحرف عن الفطرة السليمة، وتخضع للتقاليد المصطنعة الباطلة والتى تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفاءته لابنته أو أخته أو قريبته وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم، ولا يليق أن يجىء العرض من الجانب الذى فيه المرأة.

ومن مفارقات هذه البيئة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون وينكشفون بعضهم لبعض فى غير ما خطبة ولا نية زواج فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر الزواج فيهبط الخجل المصطنع وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة.

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال فى عهد الرسول ﷺ كان يتم هذا فى صراحة ونظافة وأدب جميل لا تخدش معه كرامة ولا حياء.

من ذلك أن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما تزوجت خنيس بن حذافة بن قيس.. واستشهد فى غزوة أحد- وعاشت حفصة فى بيت أبيها تجتر أحزانها، وتعيش آلامها لا يحلو لها مطعم ولا تطيب لها حياة، وأخذت زهرة شبابها تذبل ونضرتها تضوى وكان عمر- رضي الله عنه - يلحظ بعينه اللماحة وقلبه الكبير ما تعانيه ابنته من قلق وضيق، ومن حزن وألم بعد أن فقدت رجلها

(1) سورة القصص آية رقم: ٢٧.

وعاشت تجتر أيامها السابقة أيام كانت ملكة فى بيتها تناغى زوجها إذا حضر وتنتظر إيابه إذا ذهب.

فخرج عمر يبحث عن السعادة لابنته ولكن كيف؟

إنه يقدر ما تعانيه هذه الإنسانة المترملة بعد أن تعودت على الحياة الزوجية إن ذهب العالم وفضته لا يمكن أن يعوضا المرأة شيئاً عندما تفقد زوجها.. ولكن يمكن لرجل أن يعيد لها السعادة، ويوجد لها الأمل ويجمع أيامها ولياليها.

إذن لابد من زواج حفصة.. إن رجلاً آخر يمكن أن يعيد لها السعادة ويريح قلب عمر.

وعندما وصل عمر- رضي الله عنه - إلى هذه النتيجة استراح قلبه واطمأن خاطره، إن زواج حفصة ليس بمشكلة سيعرضها بنفسه على أحد المسلمين نعم. أو لا.؟

أليس فى هذا حل لمشكلته ومشكلتها أيضاً..؟

إن قلبه يكاد يتقطع كلما دخل بيته ووجد حفصة على هذه الصورة الكئيبة الحزينة التى لا تفارقها.

وبينما ينقل عمر خطواته فى إحدى الطرق الممتدة داخل المدينة وقعت عينه على عثمان بن عفان- رضي الله عنه - فاقترب منه وبادله التحية وجلسا يتكلمان وبينما هم فى ذلك لمعت الفكرة فى ذهن عمر. فقال: بكل ما يحمله قلب الإنسان من حب لابنته ورغبة فى إسعادها.. يا عثمان فأجابه: نعم يا عمر.

فقال: أتتزوج حفصة يا عثمان؟

وأخذت المفاجأة عثمان لأنه لم يفكر فى هذا الأمر من قبل ولم يكن لديه جواب. فقال: يا أخى يا عمر.. ما لى فى النساء حاجة.

عمر بن الخطاب يخطب لابنته حفصة

ولكن عمر رضي الله عنه لم ييأس، ولم ير أن فى ذلك عيباً ينقص من قدره أو يزرى بمروئته:

ثم ماذا التقي بأبى بكر رضي الله عنه وما قاله لعثمان قاله لأبى بكر: أتتزوج حفصة يا أبا بكر..؟

ولكن أبا بكر لأمر فى نفسه سكت ولم ينطق..!؟

فغضب عمر وكيف لا يغضب وهؤلاء إخوته فى الإسلام لا يتقدمون لمساعدته فى مشكلته. وعندما وقف أمام الرسول ﷺ.

قال: يارسول الله ألا تعجب..؟؟ من عثمان إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى، وعرضتها على أبى بكر. فلم يرد علىَّ جواباً.

فقال الرسول ﷺ: يا عمر قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك.

وزوج ابنتك خيراً من عثمان.

وأشرقت فى خاطر عمر لمعة مضيئة أيتزوج رسول الله ﷺ ابنته..

إن هذا شرف عظيم لم تتطاول إليه أمانيه.

أتتزوج أم كلثوم بنت الرسول ﷺ من عثمان نعم فهذه خير من حفصة.

وتتزوج حفصة رسول الله ﷺ فهذا خير من عثمان.

ونهض عمر إلى الرسول ﷺ يصافحه مهللاً وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض.

وخرج مسرعاً يزف الى ابنته وإلى أبى بكر وعثمان والمدينة كلها بشرى الخطبة المباركة.

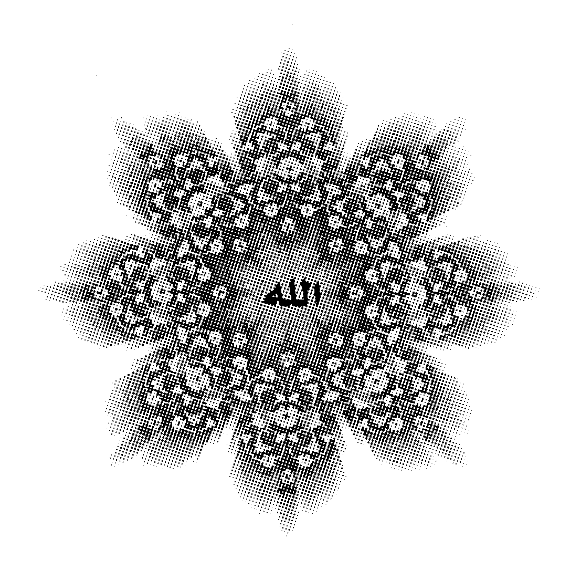
وكان أبو بكر أول من لقيه بعد خروجه من عند الرسول ﷺ فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته فمد يده مهنئاً معتذراً بقوله:

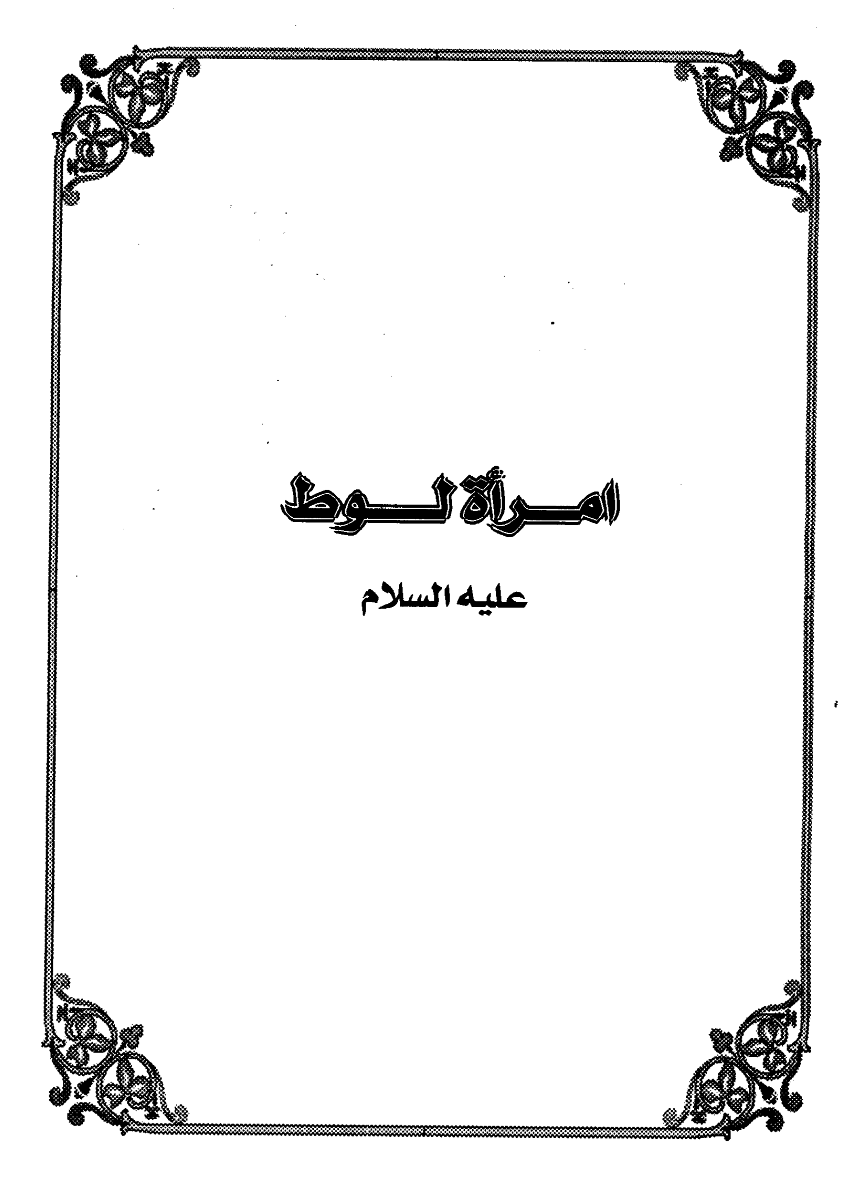
لاتجد علىَّ ياعمر. فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة. فلم أكن لأفشى سر رسول الله..؟؟

ولو تركها لتزوجتها..

ونتساءل هل يفعل أولياء أمور الفتيات فى عالمنا هذا ما فعل أجدادهم بالأمس..؟

لو تم ذلك لحلت الكثير من المشكلات.. وما عرف المجتمع جيل العوانس. ولأدت كل فتاة منهن دورها فى الحياة من إسعاد زوجها، ورعاية أطفالها. وطهارة المجتمع. فهل نحن فاعلون..؟ نرجو من الله التوفيق والسداد.





امرأة لوط

عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

(الأعراف: ٨٢- ٨٤)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى: قوم لوط وامرأته.

قال ذلك الإمام القرطبى فى تفسيره (٧ ص٢٤٦).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٢ ص ٢٣٠- ٢٣١).

وقاله صاحب الدر المنثور (٣ ص١٠٠- ١٠١).

وقاله الفخر الرازى فى التفسير الكبير (٧ ص ١٧٦).

فمن تكون امرأته..؟

امرأة لوط عليه السلام

حياتها ونشأتها ودعوتها للفجور

يقف كتَّاب السنة موقفاً عدائيّاً منها فلا يذكرونها من قريب أو بعيد.

فمن هى؟ وما اسمها؟ وأين عاشت؟ ومتى اقترنت بزوجها عليه السلام؟ أكان ذلك قبل الرسالة أم بعدها؟ كل هذه الأسئلة تبقى حائرة بالنسبة لزوج لوط عليه السلام.

أما هو فيسمى لوط بن هاران بن تارح ابن أخى إبراهيم عليه السلام. ويبدأ التاريخ فى تسجيل أعماله، ويعطى صورة واضحة عنه- عندما شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمناً به متبعاً له على دينه، مهاجراً معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور.

ولم يطل المقام بهما فى أرض الشام فرحلوا إلى مصر، وكان ملكها فى ذلك الوقت سنان بن عازان. ثم تفرقت بهم السبل. فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين.

ونزل لوط الأردن، فبعث الله إلى أرض سدوم وما يليها، وكانوا أهل كفر وفواحش، ولقد عبر القرآن الكريم عن حالتهم هذه بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾(١).

(١) سورة الأعراف الآيتان: ٨٠، ٨١.

قال عمرو بن دينار: ما كان يُرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ﷺ.

وقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾(١). يأتون الرجال: وهى فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها، فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة، فتكون هذه جريمة فاحشة، ولكنها داخلة فى نطاق الفطرة ومنطقها، فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً.

ويقطعون السبيل: فينهبون المال، ويروعون المارة، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرهاً. ويأتون فى ناديهم المنكر، ويأتونه جهاراً وفى شكل جماعى متفق عليه لا يخجل بعضهم من بعض.

روى أبو صالح عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مر بهم، ويسخرون به، وهو المنكر الذى كانوا يأتونه».

وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزجرهم عن ذلك وعده، ولا يزيدهم إلا تمادياً واستعجالاً بعذاب الله تعالى. ولذا قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٢).

حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣) فاستجاب الله تعالى لعبده لوط وأرسل الملائكة لإهلاكهم، فأقبلوا مشاة فى صورة شباب مرد حسان حتى نزلوا على إبراهيم ﷺ فاستضافهم فلما فرغوا من ذلك أخبروا إبراهيم ﷺ أن الله بعثهم لإهلاك قوم لوط فحاجهم إبراهيم فى ذلك.. قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾(٤).

ما نوع الجدل الذى استعمله إبراهيم ﷺ؟ ولماذا الجدل وهو يعلم من

(١) سورة العنكبوت الآية: ٢٩. (٢) سورة الأعراف الآية: ٧٠.
(٣) سورة العنكبوت الآية: ٣٠. (٤) سورة هود الآية: ٧٤.

هم قوم لوط؟ أخاف على المؤمنين في هذه القرية؟ إن بعض الروايات التاريخية تؤكد ذلك بقوله للملائكة:

أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قالوا: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا.

عندها نزل قول الله تعالى ينهى إبراهيم عن الجدل بقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾(١).

ثم مضت رسل الله نحو سدوم فلما انتهوا إليها لقوا لوطاً عليه السلام في أرض له يعمل فيها، فأتوه فقالوا: إننا ضيوفك الليلة. فانطلق بهم وسار بهم ساعة ثم التفت إليهم قائلاً: أو ما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرها؟ قال: أشهد بالله أنها لشر قرية في الأرض، وما أعلم أناساً أخبث منهم. فدخلوا معه منزله، وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه. وخاف عليهم من قومه فلذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(٢).

قال السدى بإسناده: «ثم خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا مدينة سدوم لقوا بنت لوط عليه السلام تستسقى الماء لأهلها. وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والأخرى غيثاً. فقالوا

(١) سورة هود الآية: ٧٦.

(٢) سورة هود الآية: ٧٧.

لها: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، لأنها خافت عليهم من قومها، ثم أتت أباها فقالت: يا أبتاه فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالاً وقالوا له خل عنك ضيافة الرجال فلذلك قوله تعالى: ﴿أولم ننهك عن العالمين﴾.

فجاء لوط إلى منزله ما يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط، وعندها تظهر امرأته مرة أخرى على مجرى الأحداث.

لقد سمعت هذا المرأة ما دار بين لوط وابنته، وأحست أن هؤلاء الأضياف صيد ثمين لقومها. وعندما شاهدتهم، ورأت نضارة وجوههم، وجمال صورتهم، أسرعت إلى قومها كعادتها تدعوهم إلى فعل الفاحشة فى هؤلاء الأضياف.

إنها المرأة السيئة، التى تنفر من نصائح زوجها الذى يأتيه الوحى من السماء وتقف ضد كل ما يدعو إليه، وتهدأ نفساً وتقر عيناً، عندما ترى هذه الأفعال القبيحة، والفطرة المقلوبة، عند أهلها وذويها.

قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أن الإشارة التى كانت بين امرأة لوط وقومها إذا حضرت إليها الضيفان أن ترسل رسولها إلى قومها فيقول: هيئوا لنا ملحأ تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط. قالوا: فلما أخبرت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يسرعون ويهرولون فلما رآهم، وشاهد ما فيهم من سعار، وشهوات متأججة قال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (١)

فردوا عليه قائلين كما أخبر القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٢).

(٢) سورة هود الآية: ٧٨.

(٣) سورة هود الآية: ٧٩.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: المراد نساء أمته. قال الفخر الرازى: ويدل عليه وجوه:

الأول: أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المرءوة فكيف بأكابر الأنبياء؟

الثانى: وهو أنه قال: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع الأكبر، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل.

الثالثة: أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان.

وقال: إنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته، وهذا كان فى أول الإسلام بدليل أنه صلى الله عليه وسلم زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب ثم نسخ ذلك(١) بقوله تعالى: ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾(٢).

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والتعب بسببهم قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٣).

لقد خرجوا من تلك القرية وتركوا أموالهم فنهوا أن يتعلقوا بشىء منها وعدم الالتفات إليها.

﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ فهل خرجت هى معهم، ولم تعلم بالنهى عن الالتفات؟ أم أن النهى كان عاماً؟ ولكن هذه المرأة ما كادت تسمع العذاب النازل على قومها حتى قامت بالالتفات؟

يقول الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية: لقد التفتت وقالت: واقوماه فأدركها حجر فقتلها. وصدق ربى فى قوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

(١) راجع التفسير الكبير (٩: ٣٤).
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢١.
(٣) سورة هود الآية: ٨١.

ثم ماذا؟ قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١).

ولقد صدق قول الشاعر فى قوله:

راحوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

وروى أن النبى ﷺ قال لجبريل عليه السلام إن الله تعالى قال عنك: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(٢).

فأخبرنى عن قوتك؟

قال: يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة السماء أصواتهم، وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهراً لبطن.

قال: فأخبرنى عن قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ﴾

قال: إن رضوان خازن الجنان، ومالكاً خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها.

قال: فأخبرنى عن قوله تعالى: ﴿ أَمِينٍ﴾

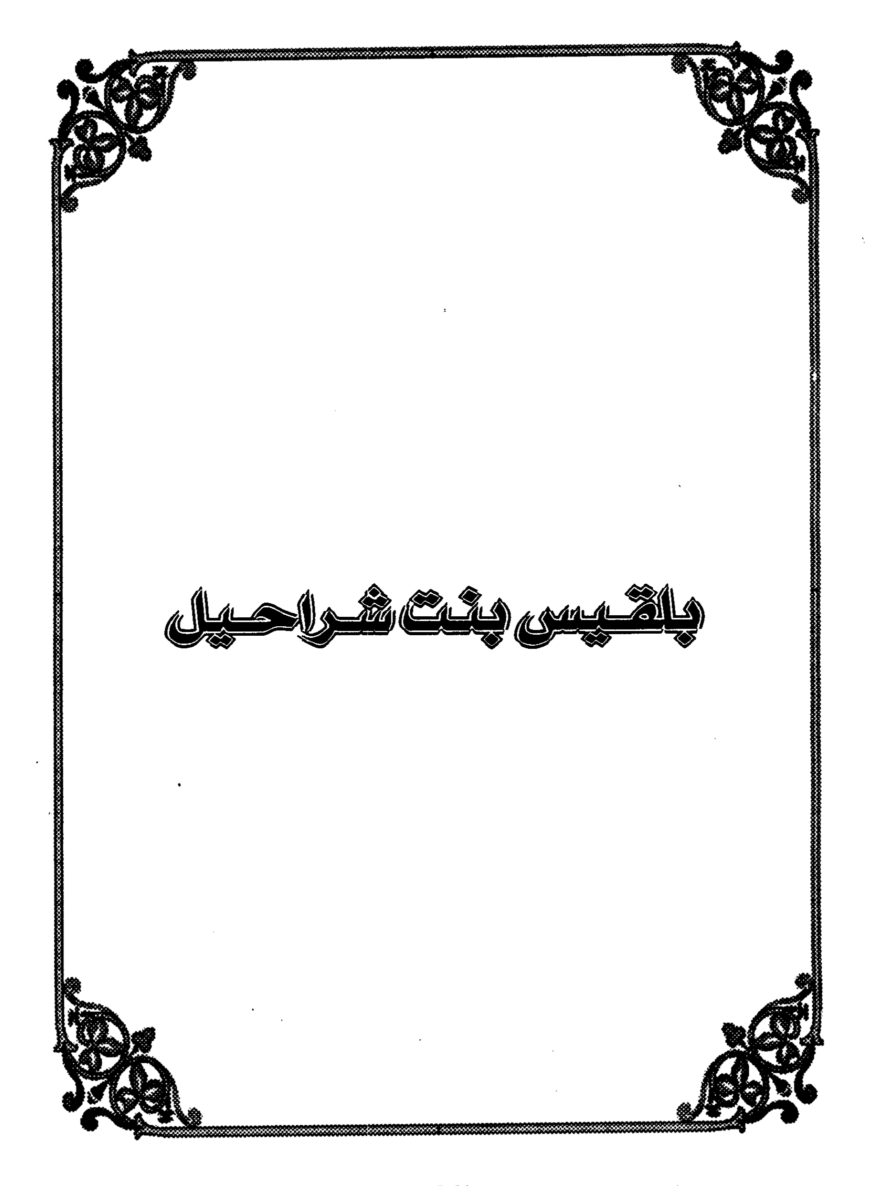
قال: إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى.

هذا وبالله التوفيق

---

(١) سورة هود الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) سورة التكوير الآيتان: ٢٠، ٢١.



بلقيس بنت شراحيل


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

(النمل الآيات من ٢٣ ـ ٢٦)

أقوال العلماء والمفسرين
في نزول هذه الآية

اتنق رجال التفسير على أن هذه الآيات نزلت فى: بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ.

قال ذلك فخر الدين الرازى فى التفسير (١٢: ١٩٠).

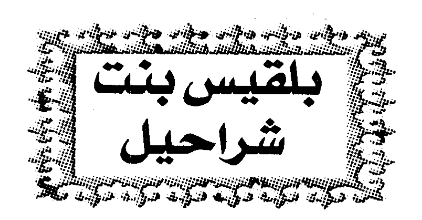
وقاله صاحب الكشاف (٣: ٢٨٤).

وقاله ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم (٣: ٣٦٠).

وقاله الشوكانى فى فتح القدير (١٣٢: ٤- ١٣٣).

وقاله السيوطى فى الدر المنثور (١٠٥- ٥).

فمن هى بلقيس بنت شراحيل..؟



بلقيس بنت شراحيل

إنها ملكة سبأ- عندما كانت هذه الدولة فى أوج حضارتها ونهضتها- يصفها المؤرخون: بصاحبة العقل الراجح والفكر السليم، نشأت فى بيت الملك والعز، وترعرعت طفولتها فوق الأرض اليانعة، وفتحت عينيها على الحدائق المليئة بالثمر الفواحة بالأريج، وقد ذكرها الله فى كتابه بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(١).

وهذه الجنان الكبيرة، والخير الوفير الذى تنتجه هذه الأرض دفع أهلها إلى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم عبر البحر فى الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين كبيرين وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً محكماً تتخلله عيون تفتح وتغلق فخزنوا الماء بكميات عظيمة خلف السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان لهم من هذا مورد موردا مائيا عظيما، وقد عرف هذا الحاجز فى التاريخ باسم «سد مأرب» والذى جاء ذكره فى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(٢).

أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح فسلبهم الله تعالى الرخاء الكثير والخير الوفير، وأرسل عليهم السيل الجارف الذى حمل فى طريقه الحجارة الثقيلة لشدة تدفقه فحطم السد الكبير فساحت المياه حتى طفت وأغرقت كل شىء.

(١) سورة سبأ الآية: ١٥.　　(٢) سورة سبأ الآية: ١٦.

فى هذا النعيم المقيم، والعز الأثيل، عرفتها الحياة طفلة تملأ الحياة حولها جمالاً وبهاءً، وشابة تسير بخطوات ثابتة إلى المجد والتمتع بالحياة، حتى مات والدها، وأوشكت الحياة أن تقلب لها ظهر المجن، إذ طمع فى الملك الطامعون، وشد بريقه الرجال المتسلطين.

وكان أقواهم فى حلبة السباق عمرو ذى الأذعار الذى جمع حوله الأتباع والأنصار وجلس على العرش، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد وحاكماً على رقاب العباد. ولكن بلقيس احتالت عليه حتى دخلت إلى مجلس منادمته؛ فبهرته بجمالها، وسلبت لبه بحديثها ومسامرتها، فاطمأن إليها وأسلم قياده لها عندها استلت خنجرها الذى كانت تخفيه بين جدائل شعرها، ثم ذبحته كما تذبح الشياه، ووارت جثته تحت الأمتعة والطنافس. ثم خرجت إلى حرسه فى جوف الليل قائلة لهم: «إن الملك يأمركم أن تحضروا له عليَّة القوم، وملوك حمير وأبناء الملوك وفرسان القبائل ورجالات التدبير والحكم».

وعندما تكامل عددهم فى ساحة قصر غمدان خرجت عليهم وأخبرتهم أن الملك رغب فى زواجها فاستجابت له، وفى سبيل ذلك تنازلت عن الملك لمليكهم لأنه أقدر على حكم البلاد، وعلى إدارة وتنفيذ سياسة الحكم فيه على أن يكون لها الملك من بعده، ثم قالت وقد أمرنى أن آخذ عليكم بذلك عهداً وميثاقاً. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: سمعاً وطاعة للملك فيما دبر وأراد.

وما هى إلا أياماً قليلة حتى أعلنت وفاة الملك وأنها الوريثة الشرعية للملك بالعهد والميثاق السابقين.

وأخذت فى تجميع الجيوش وحشد الكتائب ثم توجهت إلى أرض بابل فأخضعتها لحكمها وأسلمت قيادتها لبعض رجالها، ثم ساحت فى الأرض الوعرة والجبال المرتفعة حتى بلغت أرض نهاوند تلك المدينة العظيمة وتخطتها إلى بلاد الديلم- ثم عادت مرة أخرى إلى أرض اليمن.

وسارت بها الحياة رخاء لا هم لها إلا تدبير سياسة البلاد والتحكم فى رقاب العباد، حتى شاء الله تعالى أن يرسل رسوله سليمان بن داود عليهما السلام برسالة التوحيد، وعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
(١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾(١).

هذه الآيات تبرز قيمة العلم، والإشارة إليه والعلم كله هبة من الله تعالى وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره وأن يتوجه به إلى الله، وألا يصرفه هذا العلم عن الابتعاد عن الله تعالى.

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم بتحطيم الذرة واستخدامها ولكن ماذا جنت البشرية اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ولا يخشونه ولا يتوجهون بالحمد له؟ إنها لم تجن غير الضحايا فى قنبلتى «هيروشيا و نجازاكى» والخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء.

نقول: سارت الحياة بالملكة بلقيس رخاء، فدولتها كبيرة، وخيراتها وفيرة وشعبها مطيع حتى كان يوم ليس كمثله يوم وجدت رسالة على عرشها وما كادت تفض غلافها حتى قرأت ما فيها فهلعت وأسرعت إلى مستشاريها لتعلمهم بما حدث لها قائلة:

---

(١) سورة النمل الآيات: ١٥- ١٩.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(١).

ثم تابعت حديثها قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾(٢).

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل ولكنهم فوضوا للملكة الرأى واتخاذ القرار: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾(٣).

وهنا تظهر شخصية المرأة من وراء شخصية الملكة، المرأة التى تكره الحرب والتدمير والتى تبرز سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تبرز سلاح القوة والمقاتلة.

قالت بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

إنها تعرف أن من طبيعة الملوك إذا دخلوا إلى البلاد فاتحين أشاعوا فيها الإفساد وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها حكامها وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة فيها. فماذا تفعل؟

عليها أن تلجأ إلى السياسة قبل الحرب وأن ترسل لسليمان هدية تصانعه بها وتستنزل مودته بسببها، وتصرف مطامعه عنها. هكذا كانت تحادث نفسها، وتدير الأمور فى عقلها واستقرت أخيراً على هذا الرأى وحين تم إعداد الهدية طلبت من رسلها أن يقفوا على أحوال الملك ليعودوا إليها بتقرير واف عن حقيقته، ومدى قوته فى مملكته، ولقد انصاعوا لأوامرها وانطلقوا نحو بلاد سليمان عليه السلام.

(١) سورة النمل الآيات: ٢٩- ٣١.
(٢) سورة النمل الآية: ٣٢.
(٣) سورة النمل الآية: ٣٣.
(٤) سورة النمل الآية: ٣٤.

إن بلقيس بهذا العمل نراها تتصرف بكامل الحكمة والذكاء، فهى بحاجة لأن تعرف عن هذا الملك الذى يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها خاضعة بلا تردد، وما هى العواقب فيما لو قبلت أو رفضت، إنها بحاجة لأن تكون على رأس قرارها، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تدبير العواقب وحساب الاحتمالات.

وسارت القافلة إلى سليمان حتى وصلت إليه، ووضعت الهدايا بين يديه، وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام ويعلن فى قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(١).

وفى الرد احتقار للمال واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله، مجال العبادة لله وحده لا شريك له ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أتقدمون لى هذه الزينة الفانية وتريدون منى أن استبدلها بالقيمة الباقية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

لقد أتانى من المال خيراً مما لديكم، ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق العلم والنبوة، وتسخير الجن والطير، فما عاد شىء من عرض الأرض يفرحنى بل أنتم بهديتكم تفرحون، وتقبلون على هذا النوع من الزينة الرخيصة التى تعنى هؤلاء الذين يتكالبون على متاع الدنيا الذى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(٢).

ثم يتبع سليمان ﷺ هذا الاستنكار بالتهديد «ارجع إليهم» بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾(٣)

جنود لم تسخر لبشر من البشر فى أى مكان، ولا طاقة للملكة وقومها

(١) سورة النمل الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة النساء الآية: ٧٧. (٣) سورة النمل آية: ٣٧.

بهم فى قتال، ثم ماذا؟ نخرجهم منها أذلاء مقهورين مدحورين. نفعل ذلك لرفضهم عبادة الله تعالى واستبدالها بعبادة الشمس والقمر والله تعالى يقول:

﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(١).

وعادت القافلة إلى الملكة تجر أذيال الخيبة والفشل عندها علمت بلقيس أن الذى أمامها ليس ملكاً من الملوك ممن يرغبون فى الجاه والمال ويلهثون خلف متاع الدنيا الخلاب. ولكنه نبى من الأنبياء يحمل رسالة من ربه ليبلغها إلى خلقه إنها رسالة التوحيد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

إنها رسالة السلام والأمان، رسالة الهداية للتوجه إلى خالق الأرض والسماء. إنه الإسلام.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٢)

عندها قررت بلقيس السعى إليه، والوقوف بين يديه وسارت بجيشها وحاشيتها ورجال دولتها تقطع الفيافى والقفار حتى وصلت إليه عندها: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

لقد اهتدى قلبها واستنار واتجهت إلى خالقها بالعبادة الخالصة وعرفت أن الإسلام ليس استسلاماً لأحد من خلق الله- ولو كان نبيّاً من الأنبياء أو ملكاً من الملائكة وإنما الإسلام إسلام لله رب العالمين ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

ولقد سجل القرآن الكريم هذه اللفتة وأبرزها للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له، فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صفوف الغالبين، بل التى

(١) سورة فصلت الآية: ٣٧. (٢) سورة آل عمران الآية: ١٩.

(٣، ٤) سورة النمل الآية: ٤٤.

تجعل الغالب والمغلوب فى صف واحد أخوين متحابين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)

لا غالب ولا مغلوب.

لا قاهر ولا مقهور.

لا ملك ولا مملوك.

وإنما الكل عبيد لله رب العالمين وصدق ربى فى قوله:

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٢)

ثم ماذا؟ بعد هذه النهاية والإيمان..؟

هل أقرها سليمان على ملك اليمن؟

هل تركت الملك والحكم وتحولت إلى عبادة قانتة لله تعالى؟

هل تزوجت سليمان وولدت له ولداً وأصبحت ربة بيت تهدهد الطفولة وتصنع الرجولة وتقف خلف زوجها النبى تشد من أزره حتى يبلغ رسالة ربه؟

إن كتب التاريخ تزيد فى ذلك وتقول، وتصدر الرواية تلو الأخرى ولكن الكتاب الذى لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه لم يتعرض لذلك من قريب أو بعيد.

لهذا لم يجز لنا أن نخوض مع الخائضين فيما لم يدعمه نص من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وهى مؤمنة قانتة قد أعد الله لها مثل ما أعد للمؤمنين والقانتين لا فرق فى ذلك بين ذكر وأنثى. قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾(٣).

العمل الذى يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكير والتدبر والذكر والاستغفار والخوف من الله والتوجه إليه بالرجاء مقبول من الجميع ذكرانا

(١) سورة الحجرات الآية: ١٠.
(٢) سورة غافر الآية: ١٦.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩٥.

وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس فكلهم سواء فى الإنسانية ولهذا يقول الله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(١).

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

وهى مساوية للرجل فى الحقوق والواجبات، ولها كامل الحرية فى التصرف فى مالها.

يقول الأستاذ العقاد:

«ومعاملة الحقوق دستورها الجامع أن الرجل والمرأة سواء فى كل شىء، وأن النساء لهن ما للرجال، وعليهن ما عليهم بالمعروف ثم يمتاز الرجال بدرجة هى درجة القوامة التى تثبت بتكوين الفطرة وتجارب التاريخ وليس فى هذا الامتياز خروج على شرعية المساواة حين تقضى المساواة بين الحقوق والواجبات، والزيادة فى الحق تقابلها زيادة مثلها فى الواجب فهى المساواة العادلة بين الذكر والأنثى بين الرجل والمرأة».

---

(١) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٥.



تذييل

الزباء وجذيمة بن الأبرش

الزباء وجذيمة بن الأبرش

كانت فتاة عاقلة أديبة عربية اللسان.

حسنة البيان، شديدة السلطان، كبيرة الهمة.

قال ابن الكلبى: ولم يكن فى نساء عصرها أجمل منها.

وكانت تسمى فارعة. وكان لها شعر طويل إذا مشت سحبته وراءها- وإذا نشرته- تغطى به جسمها.

فسميت الزباء لذلك.

وكان والدها مليح بن البراء ملكا على الحضر فى أرض العراق، وهو الحاجز بين الروم والفرس.

فقتله جذيمة الأبرش وطرد الزباء فلحقت بأرض الروم.

فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال، وبذلت الأموال. ثم عادت إلى ديار أبيها وهزمت جذيمة وطردته من أرض العراق.

ثم بنت على شاطئ نهر الفرات مدينتين متقابلتين فى شرقى الفرات وغربيه... وجعلت بينهما نفقاً تحت الفرات.

فكانت إذا هاجمتها الأعداء آوت إليه وتحصنت.

وكانت هذه الفتاة الجميلة قد اعتزلت الرجال فهى عذراء بتول.

وتمت هدنة بينها وبين جذيمة بعد الحرب التى خاضتها معه وألحقت به هزائم متتابعة حتى آخر جثة من أرض العراق.

عندها حدثت جذيمة نفسه بخطبة الزباء.

فجمع خاصته وشاورهم فى ذلك. فسكت القوم وتكلم رجل يدعى قُصَير- وكان ابن عمه- وكان عاقلاً لبيباً، وكان خازن أسراره، وصاحب مشورته وعميد دولته فقال:

أيها الملك: إن الزباء امرأة حرمت على نفسها الرجال فهى عذراء، ولا ترغب فى مال ولا جاه ولها عندك ثار أبيها- والدم لا ينام، وإنما هى تاركتك رهبة وحذراً.

والحقد دفين فى سويداء القلب له اختباء كاختباء النار فى الحجر..؟؟

إن قدحته أورى بالنار وإن تركته توارى حتى يظهر.

وللملك فى بنات الملوك الجميلات متسع، ولهن فيه منتفع.

ولقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن هو دونك. وعظم الرب شأنك فما أحد فوقك..

ثم تكلم وزراؤه وكل واحد منهم أيده فيما رغبت فيه نفسه. وإن فى تلك المصاهرة مصلحة للدولة.

ولكن قصير تابع حديثه بعد أن تكلم الوزراء وختمه بقوله:

أيها الملك هذه خديعة ومكر. أعاذك الله منهما.

فقال جذيمة: يا قصير الرأى ما رأيته وقلته صحيح.

ولكن النفس تواقة، وإلى ما تحب وتهوى مشتاقة.

ولكل امرئ قدر لا مفر منه ولا وزر.

ثم وجه جذيمة قصير إلى الزباء خاطباً وقال له:

اذكر لها ما ترغبها فىَّ وتصبو إليه.

فجاء رسول جذيمة إلى الزباء خاطباً له. فلما سمعت كلامه، وعرفت

مراده قالت: أنعم بك عيناً. وبما جئت به.

ثم أظهرت له السرور والرغبة فيه وأكرمت مقدمه، ورفعت موضعه وقالت: قد كنت أضربت عن الزواج مخافة أن لا أجد كفؤاً ولكن جذيمة فوق قدرى، وأنا دون قدره.

ثم أرسلت ضحكة أنثوية وقالت: وقد أجبته إلى ما سأل ورغبت فيما قال.

ولولا أن السعى فى مثل هذا الأمر بالرجال أمثل لسرت إليه ونزلت عليه.

وعندها هم رسول جذيمة بالعودة.

حملته الزباء هدايا كثيرة ساقت إليه فيها العبيد والإماء والسلاح والأموال والإبل والأغنام، وغير ذلك من الجواهر والثياب.

فلما رجع الرسول إلى جذيمة أعجبه ما سمع من كلامها. وأدخل السرور إلى قلبه ما حملته إليه من الهدايا والتحف.

سفر جذيمة إلى الزباء

عند ذلك قرر جذيمة السفر إلى مملكة الزباء وأخذ معه حاشيته وخاصة رجاله وفيهم قصير خازن أسراره، ومستشار دولته.

وأناب لتدبير شئون دولته عمرو بن عدى اللخمى... ابن أخت جذيمة والذى تولى الحكم بعد قتل خاله جذيمة- وكانت مدة ملكه. مائة وعشرين سنة.

وعندما وصلوا إلى شاطئ نهر الفرات نزلوا بمدينة (نيفه) فأكلوا وشربوا.

ثم طلب جذيمة من أصحابه- مرة أخرى- الرأى والمشورة- فسكت القوم وافتتح قصير الكلام فقال:

أيها الملك: لا تثق بزخرف قول لا محصول له.

ولا تقذف الرأى بالهوى فيفسد. ولا الحزم بالمنى فيبعد.

والرأى عندى للملك أن يراجع أمره بالتثبت، ويأخذ حذره بالتيقظ.

ولولا أن الأمور تجرى بالمقدور لعزمت على الملك عزماً «قاطعاً» ألا يفعل.

فأقبل جذيمة على أصحابه وقال: ما عندكم أنتم فى هذا الأمر..؟

فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته فى ذلك، وصوبوا رأيه وقووا عزمه.؟؟

فقال جذيمة:

الرأى مع الجماعة والصواب ما رأيتم..؟

فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر، فلا يطاع لقصير رأى..؟؟

ثم سار جذيمة. فلما اقترب من ديار الزباء أرسل إليها يعلمها.

فأظهرت السرور به، والرغبة فيه.

ثم أمرت بحمل البشرى إليه.

وقالت لجندها ولخاصة أهل مملكتها ورعيتها. تلقوا سيدكم ملك دولتكم.

فعاد الرسول إليه بالجواب وأخبره بما رأى وسمع.

فلما أراد أن يسير دعا قصيراً وقال:

أنت على رأيك..؟

قال نعم. وقد زادت بصيرتى فيه.

ثم تابع حديثه قائلاً لجذيمة: أفأنت على عزمك...؟

قال جذيمة: نعم. وقد زادت رغبتى فيه.

قال قصير: ليس الدهر بصاحب لمن لم ينظر فى العواقب..؟؟

ثم قال: وقد يستدرك الأمر قبل فواته. وفى يد الملك بقية هو بها مسلط على استدراك الصواب.

قال جذيمة كيف...؟

قال قصير: فإنك إن وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة وأعوان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك، وفارقت عشيرتك وأعوانك.

وألقيتها في يد من لست آمن عليك مكره وغدره. فإن كنت ولابد فاعلاً ولهواك تابعاً فإن القوم قد يلقوك غداً جمعهم واحد، ثم قاموا لك صفين. حتى إذا توسطتهم اطبقوا عليك من كل جانب، وأحدقوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم.

وهذه الفرسة لا يسبق غبارها.

وكانت فرس جذيمة تسبق الطير وتسابق الريح ويقال لها العصا.

فإذا رأيت الأمر كذلك فاعتلي ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها.

فسمع جذيمة كلامه ولم يرد له جواباً.

ثم ساروا. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة فتلقوه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وعن شماله، فإذا توسط جمعكم فانقضوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفلت من قبضتكم.

حتى إذا لقيه القوم قاموا له صفين- فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب فعلم أنهم قد ملكوه.

وكان قصير يسايره فأقبل جذيمة عليه وقال:

«صدقت يا قصير».

فقال قصير: هذه العصا لعلك تنجو بها..؟

فأنف جذيمة أن يفر، وسارت به الجيوش.

ولما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأمر، وأيقن بالقتل، جمع نفسه

ووثب على ظهر العصا، وزجرها فذهبت تهوى به هوى الريح، وترك جذيمة لمصيره.

ثم دخل جذيمة على الزباء ولم يكن معه فى قصرها إلا جواريها وهى جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة.. وهى بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم.

ثم أمرت الزباء به فأُجلس موثقاً بالحبال ثم قالت لوصيفاتها:

«خذن بيد سيدكن وزوج مولاتكن.؟؟

فأخذن بيده وأجلسنه على آلة القتل بحيث تراه ويراها، وتسمع كلامه ويسمع كلامها.

ثم أمرت الجوارى فقطعن شراينه وجعلت الدماء تتساقط فى إناء وضع تحته.

فقطرت بعض قطرات الدماء خارج الإناء.

فقالت لجواريها لا تضيعوا دم الملك..؟؟

فقال جذيمة: لا يحزنك دم ضيعه صاحبه.

قالت الزباء: والله ما وفى دمك ولا شفى قتلك. ولكنه غيض من فيض. فلما مات أمرت به فدفن.

عمرو بن عدى والقصير

وأما عمرو فكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر عن خاله جذيمة.

فخرج ذات يوم فإذا فارس قد أقبل تهوى به الفرس هوى الريح.

فقال عمرو: أما الفرس ففرس جذيمة. وأما الراكب فلا يبين..؟؟

ولما وقف قصير بين يديه قال عمرو:

ما وراءك يا قصير..؟

قال: سعى القدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفى وأنفه..؟

ثم قال: يا عمرو اطلب بثأرك من الزباء.

قال عمرو: وأنَّى يطلب من الزباء وهى أمنع من عقاب الجو؟

قال قصير: قد علمت نصحى لخالك وكان الأجل طالبه.

وصدق ربى فى قوله:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١).

ثم تابع قصير حديثه قائلاً:

وأنا والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجم أو طلعت شمس أو أدرك به ثأراً.

ثم طلب من عمرو: أن يجدع أنفه، ويقطع أذنيه، ويجلد ظهره حتى يؤثر فيه. ولكن عمراً رفض أن يفعل به ذلك.

عندها جدع قصير أنفه.

ولحق بالزباء هارباً من عمرو بن عدى.

---

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٣٤.

الزباء والقصير..

سار القصير حتى وصل إلى قصر الزباء فقالوا لها:

هذا قصير ابن عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد أتاك هارباً.

فأذنت الزباء له وقالت:

ما الذى جاء بك إلينا يا قصير..؟

وبيننا وبينك دم عظيم..؟

قال قصير: يا ابنة الملوك العظام لقد أتيت فيما يأتى فيه مثلى إلى مثلك.

ولقد كان دم أبيك المطلوب يطلب جذيمة حتى أدركه.

وقد جئتك مستجيراً من عمرو بن عدى فإنه اتهمنى بخاله لمشورتى عليه فى المسير إليك.

فجدع أنفى، وأخذ مالى وجلد ظهرى، وقطع أذنىَّ، وحال بينى وبين أهلى، وتهددنى بالقتل.

وإنى خشيت على نفسى فهربت منه إليك وأنا مستجير بك.

فقالت له: أهلاً وسهلاً لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرت به فأُنزل.

ثم اجرت له النفقات وزادت فى إكرامه.

فأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيل وموضع الفرصة منها. وكانت ممتنعة فى قصر مشيد فلا يقدر أحد عليها.

فقال لها قصير يوماً:

أيتها الملكة: إن لى فى العراق مالاً كثيراً ودخائر نفيسة مما يصلح للملوك. فإذا أذنتنى فى الخروج إلى العراق وأعطيتنى شيئاً أتعلل به فى التجارة وأجعله سبباً إلى الوصول إلى مالى أتيك بما قدرت عليه من ذلك.

فاذنت له وأعطته مالاً فقدم به إلى العراق. وأخذ مالاً كثيراً ثم رجع إلى الزباء.

وقد جمع من طرائف العراق ولطائفها الشىء الكثير.

فلما قدم عليها أعجبها ذلك وأبهجها، وعظمت منزلته عندها.

ثم عاد إلى العراق ثانية وقدم ومعه أكثر مما كان فى المرة الأولى. وزادها أضعافا من الجواهر واللآلئ والبز والقز والديباج.

فازدادت مكانته عندها. وعظمت منزلته عندها ورغبتها فيه.

ولم يزل قصير يتلطف فى الحيلة حتى عرف موضع النفق الذى تحت نهر الفرات والطريق إليه.

ثم خرج ثالثة. فقدم بأكثر من المرتين الأوليين.

عندها اطمأنت الزباء إليه، واسترسلت فى الحديث معه.

وعولت فى الكثير من أمورها عليه.

وكان قصير: رجلاً حسن العقل والوجه أديباً لبيباً.

فقالت له يوماً:

إنى أريد أن أغزو مدينة كذا من أرض الشام. فاخرج إلى العراق وائتنى بكذا وكذا من الدروع والعبيد والثياب.

قال قصير: لى ببلاد عمرو بن عدى ألف بعير، وخزانة من المال، وخزانة من السلاح فيها كذا وكذا.

وما لعمرو بها من علم. ولو علم بها لأخذها واستعان بها على حرب الملكة.

وقد كنت انتظر موته.

والآن أستطيع أن أخرج متنكراً- من حيث لا يعلم- فآتى الملكة بذلك مع الذى سألت فأعطته من المال ما أراد وقالت:

يا قصير: الملك يحسن بمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره.

وقد بلغنى أن جذيمة كان إيراده وإصداره إليك، ما أقصر بك عن شىء تناله يدى، ولا يقعد حال تنهض بى.

ولما عرف قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال:

«الآن طاب الخداع، وخرج من عندها فأتى عمرو بن عدى فقال:

لقد أصبت الفرصة من الزباء.

قال عمرو: قل أسمع، ومر أقبل، فأنت طبيب هذه القرحة.

قال الرجال والأموال.

قال عمرو: حكمك فيما عندى نافذ...؟؟

فعمد قصير إلى رجال من فتاك قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير فى الغرائر السود بالأسلحة وجعل ربطها من داخل الجوالق.

وكان عمرو بن عدى من هؤلاء الرجال.

وساق قصير الخيل والكراع والسلاح والإبل محملة.

فكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار.

فلما دخل قصير على الزباء وكان قد تقدم على العير فقال لها:

قفى وانظرى إلى العير.

فصعدت على سطح قصرها وجعلت تنظر إلى العير مثقلة بحمل الفرسان فقالت يا قصير:

ما للجمال مشيها وئيدا
أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صرفاناً بارداً شديدا
أم الرجال جثماً قعودا..؟

ثم دخلت العير المدينة. وكان عمرو على فرسه فدخل الحصن عقب الإبل وحل الرجال من الجوالق فظهروا فى المدينة.

ووقف عمرو على باب النفق ينتظر الزباء والتى كانت تلجأ إليه كلما حل خطر بالمدينة.

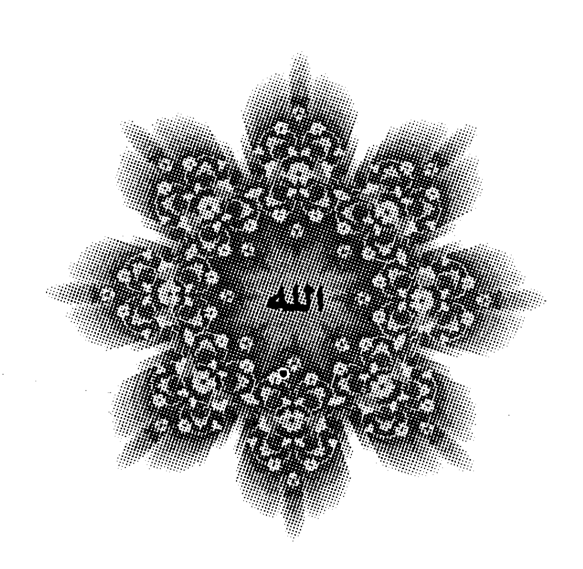
فرأت عمرو واقفاً على بابه.

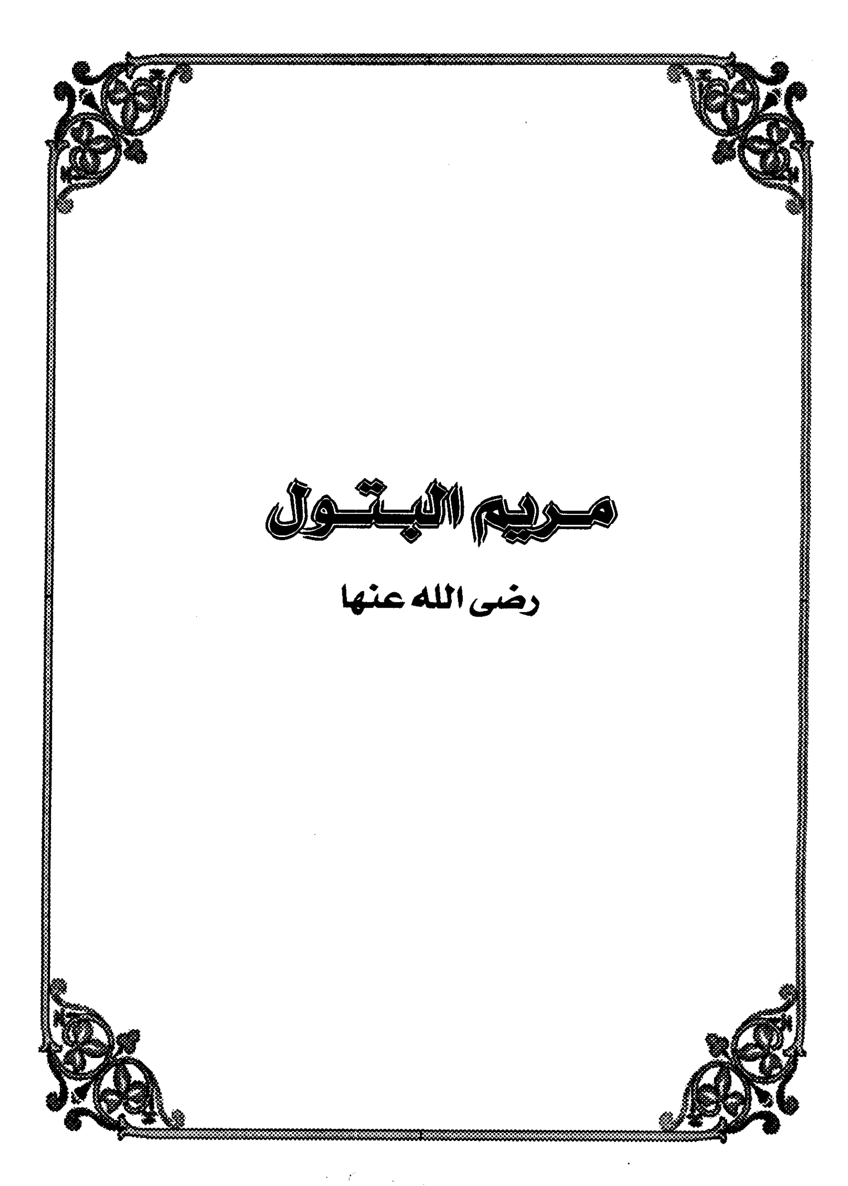
فعرفت أنها النهاية.

فأقدمت على خاتم كان فى يدها مسموماً وأخذت فى مصه.

وقالت قبل أن تسقط جثة هامدة من تأثير السم بيدى لا بيد عمرو. ثم ماتت.

عندها استولى عمرو على بلادها وتم جمع الشمل.



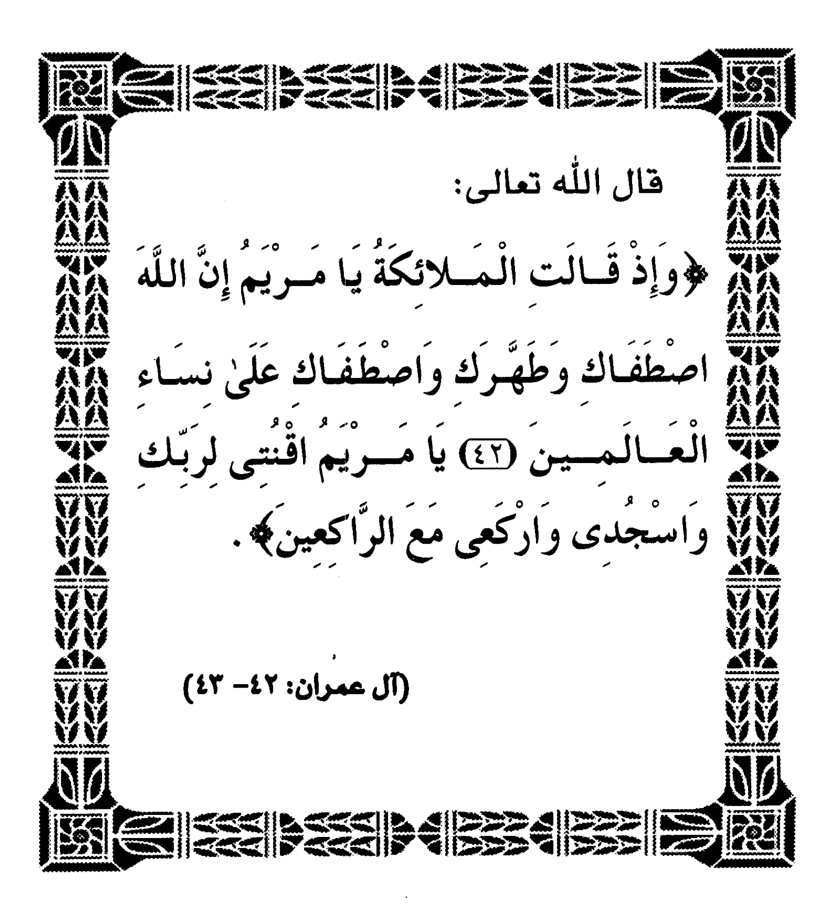


مـريم البـتـول

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

(آل عمران: ٤٢- ٤٣)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآية في مريم ابنة عمران عليها السلام.

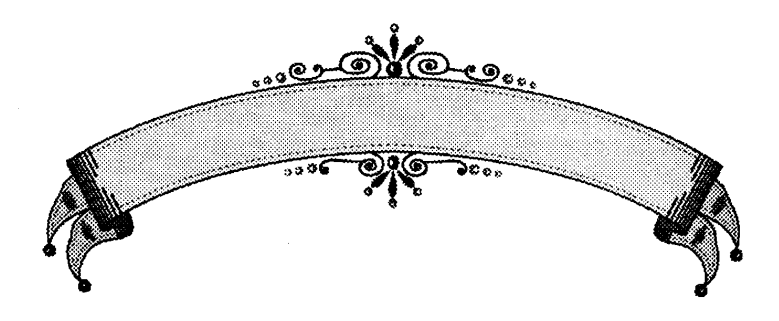
قال ذلك الإمام القرطبي ٢: ٨٢، ٨٣، ٨٤ ط دار الكتاب العربي.

وقاله الإمام ابن كثير في تفسيره ١: ٣٧٠- ٣٧١ ط دار المعرفة بيروت.

وقاله ابن جرير الطبري في التفسير ٦: ٤٠١- ٤٠٢ ط المعارف مصر.

وقاله ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير ١: ٣٨٧- ٢٨٨ ط الكتب الإسلامية: بيروت الحازمية.

فمن هي مريم ابنة عمران..؟

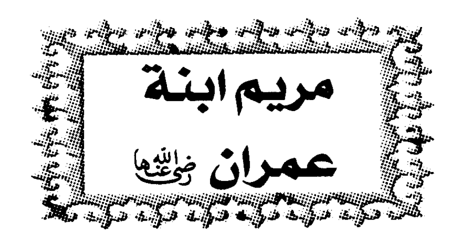


قال الرسول ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾

رواه البخارى فى التفسير
٨: ٢١٢ رقم ٤٥٤٨


مريم ابنه عمران
رضى الله عنها



حياتها ونشأتها

عمران من الصفوة المختارة التى قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١).

قال الزجاج: الاصطفاء: الاختيار على عالمى زمانهم.

وفى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل محمد يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وأن محمداً ﷺ من آل إبراهيم.

وقيل آل عمران آل إبراهيم لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقيل عمران أبو مريم وهو من ولد سليمان عليه السلام.

وامرأته حنة».

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾

يعنى التناصر فى الدين كما قال ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾(٤) يعنى فى الضلالة.

(١) سورة آل عمران آية ٣٣.
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٦٨.
(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣٤.
(٤) سورة التوبة آية ٦٨.

ومعنى التناصر فى الدين والتوافق فيه أن جميع الأنبياء كانت دعوتهم إلى التوحيد.

وقالوا جميعاً لقومهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(١)

وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢).

وكل الرسل والأنبياء جاءوا بعقيدة الإسلام من ذلك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(٣) وعيسى عليه السلام يقول له الحواريون ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٤)

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٥)

وكذا بقية الأنبياء والمرسلين. ولقد كان عمران بن يصهر بن فاهات وزوجته حنة، وهم فى صلاتهم وصيامهم، يرجون الرحمة والمغفرة من ربهم.

ولكن حنة كان يشغلها أمر ذى بال، ويراود خيالها ليل نهار، ولكنها لا تفصح عنه، ولا تذكره لقريب أو بعيد، حتى كان يوم وهى تجلس فى حديقة منزلها تحت إحدى شجيرات الزيتون، وقد أوشكت الشمس على الغروب سقطت زيتونة على قدمها، فرفعت نظرها إلى أغصان الشجرة، فوجدت طائراً يقف أمام عشه، ويمد منقاره المملوء بالطعام إلى فرخه الصغير وكلما تناول الفرخ شيئاً من الطعام رقص الطائر أمام العش وتمايل يمنة ويسرة فرحاً بذلك.

إنها الأمومة ذلك الشىء الطاغى الفطرى فى داخل الأنثى والذكر ولا يستطيعان الخلاص من طغيانه بل يزداد الحنين إليه كلما افتقداه أو طالت السنون عليهما ولم يتحقق ذلك الأمل لهما.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٨.
(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥.
(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٨.
(٤) سورة آل عمران آية رقم ٥٢.
(٥) سورة يوسف آية رقم ١٠١.

عندها توجهت حنة وهى مشبوبة الحنين متقدة الرغبة إلى ربها وخالقها الذى ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾(١).

توجهت إليه تعالى أن يهبها ولداً من عنده، وينبته نباتاً حسناً لتقر به أعينها ويؤنس وحشتها، ويكون نعمة من الله تعالى لهما، وخليفة من بعدهما فى طاعة الله ورضوانه.

ومرت الأيام وتوالت الليالى، وأحست حنة أن جنيناً فى بطنها، إذن استجاب الله دعاءها عندها قالت حنة مناجية ربها:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢)

إنها نذرت أن مولودها سيكون محرراً خالصاً لله تعالى فى عبادته وأداء ما عليه تجاه مسجد الله تعالى.

إنها تريد أن يكون ابنها ربانيّاً لله تعالى. يرشد العباد إلى خالقهم ويوجههم إلى مولاهم ويطالبهم بالفرار إليه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(٣).

وانقضت أيام الحمل وجاء المولود أنثى ولم يكن ولداً، وهذا مشيئة الله وقدره، فاعتذرت حنة إلى ربها قائلة:

﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٤).

أى عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها كذلك.

ولذلك قال الرسول ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من

(١) سورة الشورى آية رقم: ٤٩، ٥٠.
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٥.
(٣) سورة الذاريات آية رقم: ٥٠.
(٤) سورة آل عمران آية رقم: ٣٦.

مسه إياه إلا مريم وابنها»(١).

ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم: ﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

وبعد فترة من ولادتها أخذت حنة الوليدة مريم ولفتها فى قماش ومضت بها إلى الهيكل وفاء لنذرها، وسلمتها إلى أحبار الهيكل أبناء هارون، وكان عددهم ثلاثين وقالت لهم:

«دونكم هذه النذيرة، وتنافس الأحبار عليها، لأنها ابنة الرجل الصالح عمران الذى كان يقدم القرابين فى الهيكل.

وتقدم زكريا زوج أخت حنة ليقول: أنا أحق بها منكم، لأن خالتها زوجتى وهى فى حكم أمها.

ولكن الجميع قالوا نلجأ إلى القرعة ومن وقعت عليه كان أحق بها.

ومضى الأحبار إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة فى مائه. وكم كانت دهشتهم عندما ابتلع الماء أقلامهم جميعاً، ولم يبق عائماً على صفحة الماء غير قلم زكريا، وبذلك كان لزكريا الحق فى كفالة الوليدة مريم. يقول الله تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة وأنه أنبتها نباتاً حسناً أى جعلها شكلاً جميلاً ونظراً بهيجاً ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين.

(١) سبق تخريج هذا الحديث وأيضاً ذكره ابن جرير فى تفسيره والإمام مسلم عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٧.

ولما كفلها زكريا أخذ لها موضعاً، فلما أسنت جعل لها محراباً لا يرتقى إليه إلا بسلم، واستأجر لها ظئراً وكان يغلق عليها باباً، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت. وكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها امرأة زكريا، وقيل كانت أختها، فإذا طهرت واغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم، كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يعنى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف.

قال زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾

قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١).

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف على منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال:

«يا بنية هل عندك شىء آكله فإنى جائع..؟؟»

قالت: لا والله، بأبى أنت وأمى.

فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى.

فبعثت حسناً وحسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها.

فقالت: بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشىء فخبأته لك.

قال: هلمى يا بنية.

قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هى مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيه،

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٧.

وقدمته إلى رسول الله ﷺ وقال:

«من أين لك هذا يا بنية..؟

قالت: يا أبت ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

فحمد الله وقال: «الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

لقد اكتلمت أنوثة مريم عليها السلام، وأصبحت قادرة على الحمل والولادة. وأن تكون أماً لعيسى عليه السلام المقرب إلى ربه عند ذلك كان أمر الله تعالى لملائكته لتبشير مريم قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

إذاً عيسى لم تسمه أمه مريم ولا أحد من قرابتها، وإنما سماه رب العزة سبحانه وتعالى. وهذا الولد الذى بشرت به مريم ستكون له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا بما يوجبه الله عليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه الله به، وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وفى يوم شديد الحرارة بطيء الزوال نفد منها الماء فتناولت جرتها وذهبت بها إلى المغارة القريبة من المسجد الذى تقوم فيه لتملأ جرتها. وما كادت تدلف بقدمها داخل المغارة حتى كان جبريل عليه السلام قد سبقها إلى المغارة

(١) سورة آل عمران آية رقم: ٣٧. (٢) سورة آل عمران الآيات من ٤٥ إلى ٤٧.

متمثلاً فى صورة بشر سوى.

فقال لها: إن الله قد بعثنى إليك لأهب لك غلاماً زكياً. إنه رجل مكتمل سوى ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾ وها هى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى هذه الخلوة. فماذا تفعل وبمن تستغيث.؟ فلجأت إلى الله تستعيذ به وتستنجده وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل وهذا الرجل السوى، الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها- يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول- وهو يريد أن يهب لها غلاماً، وهما فى خلوة وهذه هى الهزة الثانية.

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها، فتسأل فى صراحة كيف؟ قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾(١).

هكذا فى صراحة وبألفاظ مكشوفة، فهى والرجل فى خلوة، والغرض من مباغتته قد صار مكشوفاً. فما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاماً؟

ولم يخفف من روع الموقف أن يقول لها: «إنما أن رسول ربك» ولا أنا مرسل لأهب لها غلاماً طاهراً غير مدنس المولد، ولا مدنس السيرة ليطمئن بالها. لا: الحياء هنا لا يجدى والصراحة أولى:

كيف..؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر، وما هى بغى فتقبل الفعلة التى تجئ منها بغلام.

قال جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾(٢).

فهذا الأمر الخارق الذى لا تتصور مريم وقوعه، هين على الله فأمام

(١) سورة مريم آية رقم: ٢٠ (٢) سورة مريم آية رقم ٢١.

القدرة التى تقول للشىء كن فيكون كل شىء هين سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره. فاستسلمت لقضاء الله فنفخ فى جيبها ثم انصرف عنها.

وتم قدر الله، وما أمر به. وبذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾

أى دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى.

وخلق حواء بقية الذرية من ذكر بلا أنثى وخلق باقى الناس من ذكر وأنثى.

وخلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره، ولا رب سواه قالت مريم البتول- عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى..؟؟

وإذا كنت مع الناس سبَّح فى بطنى وكبر..؟

ومرت الأيام والشهور على حملها. واختلف العلماء فى مدة الحمل اختلافاً كثيراً، وهذا لا يدخل فى نطاق القصص القرآنى الذى قال الله تعالى فيه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾(١)

ثم ماذا بعد هذا..؟

كان المسجد الذى تعمل فيه مريم عند جبل صهيون، وكان يومئذ من أعظم مساجدهم، وكان معهم قريب لها يدعى يوسف النجار، وكانا يقومان سوياً بخدمة ذلك المسجد، وكان لخدمته فضل عظيم، فكان لا يعلم من أهل زمانها أحد أشد اجتهاداً وعبادة منها.

ولكن يوسف شاهد على مريم أشياء لم تظهر عليها قبل ذلك. لقد شاهد دقة جسمها، واصفرار لونها، وكلف وجهها ونتوء بطنها، وضعف قوتها

(١) سورة يوسف آية رقم: ٣.

ودأب نظرها. ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك.

أتكون حاملاً ومن أين؟ وهى لا تترك المسجد ليلاً أو نهاراً. ولكن هذه الأشياء لا تظهر إلا على الحوامل.. فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها ذكر الذى ظهر عليها.

فلما اشتد عليه ذلك كلمها. وكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد وقع فى نفسى من أمرك شىء حرصت على أن أميته، وأكتمه فى نفسى فغلبنى ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى.

قالت: فقل قولاً جميلاً...

قال: ما كنت لأقول إلا ذلك فحدثينى:

هل ينبت زرع بغير بذر..؟

قالت: نعم.

قال: فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟

قالت: نعم.

قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم. ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر. والبذر إنما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر.

أو لم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعد ما خلق كلٌ واحد منهما وحده؟

أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر، حتى استعان عليه بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته.

قال يوسف: لا أقول ذلك، ولكنى أعلم أن الله تعالى بقدرته على ما يشاء يقول لذلك ﴿كن فيكون﴾.

قالت له مريم: أولم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟

قال: بلى.

فلما قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من الله عز وجل، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لما رأى كتمانها لذلك.

ثم تولى يوسف النجار خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمله.

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة على مريم حتى اقترب موعد وضعها لهذا الحمل أوحى الله إليها أن تمضى إلى حيث قدر الله لها المكان الذى تضع فيه وليدها فذهبت إلى أختها زوجة زكريا لتخبرها بحالها، وما عزمت عليه من الرحيل عن هذه البلدة. وما كادت الأخت يقع نظرها على مريم حتى اعتنقتها فى شوق وحنين، لأنها ابتعدت عنها فترة. ثم جلست الأختان تتناجيان وتلقى كل أخت على مسامع أختها ما حدث لها فى تلك الفترة، وما مر بها من أفراح وأحزان، ثم قالت الأخت الكبرى هل شعرت يا مريم أنى حبلى..؟

فردت عليها مريم مهنئة ومباركة لهذا الحمل متمنية لأختها أن تضع مولودها ليكون قرة عين لها ولزوجها.

ثم قالت مريم: وهل علمت أنى أنا حبلى أيضاً..؟

قالت الأخت الكبرى: نعم يا أختى شعرت بذلك.

قالت مريم: هل تكلم أحد عندك بشىء كهذا..؟

قالت الأخت: لم يحدثنى أحد بذلك. ولا يجرؤ أحد أن يخوض معى فى مثل هذه الأمور، ولكنى عندما اقتربت منك واحتضنتك شعرت أن الذى فى بطنى قد سجد للذى فى بطنك؟؟

ثم ودعت مريم أختها وخرجت من دارها إلى حيث أراد لها الله، فأين ذهبت هل ذهبت إلى مصر. كما قال وهب بن منبه؟ «فلما كانت بين الشام

وبلاد مصر ضربها الطلق».

أم ذهبت إلى بيت لحم.؟

إن القرآن الكريم يحدثنا أنها انتبذت مكاناً شرقيّاً، وهذا المكان يحدده العلماء بأنه يبعد عن المحراب الذى كانت تقييّم فيه بنحو سبعة أميال. وهذا ما نستريح إليه.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1].

لقد ولد عيسى عليه السلام، الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الحمل به وولادته آية للناس، كل الناس، ورحمة منه تعالى إلى عباده.

فإذا شب عن الطوق علمه الكتاب والحكمة، تعليماً من عنده، وإحاطة بشرعة خارجان عن كل أساليب التعليم والتفقيه اللذين عرفتهما البشرية فى القديم والحديث، ثم يبعث رسولاً إلى بنى إسرائيل، تلك الفئة الباغية التى عاثت فى الأرض فساداً حتى قتلوا الأنبياء، واستحلوا الحرمات، وحرفوا كتاب الله تعالى.

رسولاً إلى بنى إسرائيل يقدم بين يديه المعجزات التى يجريها الله سبحانه وتعالى على يديه مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من المعجزات. وسرى فى الكون كله صوت البشير النذير بمولد عيسى ابن مريم عليهما السلام، فأصبحت الأصنام التى كانت تعبد من دون الله بكل أرض مقلوبة، منكوسة على رؤوسها. ففزعت الشياطين من هول ذلك ولم يعرفوا سبب جعل أصنامهم- التى تعبد من دون الله- فى هذا الوضع المخزى المشين.

(١) سورة مريم الآيات من ٢٣ إلى ٢٦.

عندها فروا إلى رئيسهم إبليس اللعين، وما كاد إبليس يشاهد أعوانه فى جمعهم هذا حتى فزع هو الآخر، لأنه لم يرهم فى جمعهم هذا منذ أن فرقهم فى أركان الأرض، وإنما يراهم أشتاتاً ويقدم لهم النصائح فى إغواء بنى آدم.

فسألهم عن سر جمعهم وخوفهم..؟

فقالوا: لقد حدث فى الأرض حدث لا ندرى ما هو، ولكن آثاره قلبت الأصنام المعبودة على رؤوسها، ولم يكن شىء أعون لنا على إغواء بنى آدم منهم، حيث كنا ندخل فى أجوافها، فنكلمهم، وندبر أمورهم فيظنون أنها التى تكلمهم- فيعبدونها من دون الله..؟؟

فلما أصابها هذا الحدث صغرها فى أعين بنى آدم وأذلها وجعلها فى مرتبة سلبها كل إغوائها، وخشينا ألا تعبد فى الأرض بعد هذا اليوم أبداً..؟؟

واعلم أننا لم نأتك حتى أحصينا الأرض مسحاً، وقلبنا البحار غوصاً فلم نزدد بما أردنا إلا جهلاً.

قال لهم إبليس: إن هذا الأمر عظيم، ولقد علمت الآن بأنه كتم علىَّ فابقوا فى أماكنكم حتى آتيكم بالخبر اليقين.

فطار إبليس عند ذلك ومكث فى رحلته هذه فترة ليست بالقصيرة ومر بالمكان الذى ولد فيه عيسى ابن مريم، فلما رأى الملائكة محدقة به علم أن ذلك الحدث فى هذا المكان فأراد أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم حتى أبراج السماء، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض، فإذا أقدام الملائكة راسية أسفل مما أراد إبليس ثم أراد أن يدخل بينهم فأبعدوه عن ذلك.

لقد فشل إبليس أن يقتحم مهد الطفل الذى كانت رعاية الله وعنايته تحفظه وترعاه، فعاد إلى أتباعه وقال لهم: ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها وبرها وبحرها ثم أخبرهم بمولد نبى جديد ثم قال: قد كتمت أمره. وما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا علمته، ولا

وضعته قط إلا وأنا حاضرها ومشاهد له. وإنى لأرجو أن أضل به أكثر مما يهتدون به، وما كان نبى قبله أشد علىَّ وعليكم منه.

وخرج فى تلك الليلة من أرض بابل قوم يريدون أن يتعرفوا على ولادة عيسى ﵇، وذلك بسبب ظهور نجم فى صفحة السماء وكانوا قبل ذلك يتحدثون أن مطلع هذ النجم من علامات مولود فى كتاب «دانيال». وله من العلامات والصفات كيت وكيت.

وكانوا يحملون معهم من الهدايا له. الذهب، والمر، واللبان. وعندما اقتربوا من أرض الشام اشتبه فيهم حراس الملك فساقوهم إليه فلما وقفوا بين يديه. ذكروا قصتهم والسبب فى تجشمهم هذه المسافة البعيدة ثم ذكروا له ما يحملون من هدايا لهذا المولود.

فقال لهم الملك: ولماذا هذه الهدايا بالذات..؟

قالوا: تلك الهدايا كأوصاف الطفل: لأن الذهب هو سيد المدخر كله وكذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه كلهم.

وأما عن المر فهو يجبر به الجروح والكسور ويطبب الكثير من الأمراض وكذلك هذا المولود النبى يشفى به الله تعالى كل سقيم ومريض.

وأما اللبان: فينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا المولود النبى يرفعه الله إلى السماء لا يرفع فى زمانه أحد غيره فلما قالوا ذلك للملك حدث نفسه بقتل هذا المولود.

فقال: اذهبوا فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك فإنى أرغب أن أفعل مثل فعلكم فى تقديم الهدايا له.

فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدايا إلى مريم، ولم يخبروا الملك بمكانه لأنهم أحسوا أنه يريد أن يقتله[1].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ ١ ص ٥٩٥ إلى ٥٩٧.

وما كادت تنتهى مدة النفاس حتى حملته وعادت به إلى قومها. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(١).

بدأت مريم بالدخول على أهلها القريبين، وكانوا أهل بيت صالحين وحين رأوها تحمل طفلاً وليداً بكوا وحزنوا وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

وتتابعت الأسئلة من أين لك هذا الولد..؟ ماذا تقول مريم؟

أتقص عليهم أخبار المعجزة..؟ لا: إنها أشارت على طفلها فهو الشاهد الوحيد على براءتها وطهارة ذيلها وصدق إيمانها وإذا بقدرة الله تتجلى وإذا بالوليد ينطق بقدرة الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٢).

لقد سمع القوم جميعاً كلمات الوليد وهى تخرج من فمه قوية جياشة تكشف حقيقته وتبرئ ساحة أمه مما علق بها من أقاويل المتقولين وتزيد الخائضين بالباطل.

وخرجت مريم من عند قومها وقد امتلأ قلبها ثقة بنصر الله ينصر الله من يشاء. ولكن بعد هذه الحجة الباهرة والمعجزة الخارقة التى أجراها الله على لسان هذا الطفل الوليد بقيت مجموعة من قومها لم تذعن للحق، وصمت آذانها وأغلقت قلبها حتى لا تصدق آيات الله البينات، واستمرت فى غمزها ولمزها والسخرية من مريم وابنها.

ولكن أين تذهب مريم بوليدها وفى أى أرض تجد الأمن والأمان لنفسها ووليدها. وهناك ملك يسمى «هيردوس» يتربص بهما الدوائر وقد أكل الحقد قلبه وهو يتسمع لمعجزات هذا الطفل وكراماته، والذى قرر أن يقتله فى أى بقعة يكون فيها. إذن ليس أمام مريم إلا الرحيل إلى مصر الذى قال

(١) سورة مريم الآيات من ٢٧- ٢٩. (٢) سورة مريم الآيات من ٣٠- ٣٣.

الله تعالى عنها:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾(١).

وفى رحاب مصر، وبالقرب من نيلها العذب المبارك عاش المسيح ابن مريم وأمه مريم العذراء البتول، وكانت هذه الأم لا تأمن على وليدها أحداً، وكانت تعيش هى ووليدها على التقاط السنبل المتساقط فى موسم الحصاد، واستمر الحال على ذلك حتى تم لعيسى عليه السلام اثنتا عشرة سنة. فكان أول آية رآها الناس منه أن أمه كانت تقيم فى دار دهقان(٢) من أهل مصر وفى يوم من الأيام سطا بعض اللصوص على خزينة له وسرقوا كل ما فيها، وكان لا يسكن فى داره إلا المساكين فلم يتهم منهم أحداً.

فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان.

فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أمه بمصيبة صاحب ضيافتها. قال لها: «يا أمه أتحبين أن أدله على ماله..؟

قالت: نعم يا بنى.

قال: قولى له يجمع لى مساكين داره.

فقالت مريم: للدهقان ذلك، فجمع له مساكين داره.

فلما اجتمعوا عمد عيسى إلى رجلين منهم، أحدهما أعمى، والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى، ثم قال له: قم به.

قال الأعمى: أنا أضعف من ذلك..؟؟

قال عيسى عليه السلام: فكيف قويت على ذلك البارحة..؟

فلما سمعوه يقول ذلك، بعثوا الأعمى حتى قام به، فلما استقل قائماً حاملاً هو المقعد إلى كوة الخزانة.

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٩.

(٢) الدهقان: بالكسر والضم القوى على التصرف مع حدة والتاجر، وزعيم فلاحى العجم، ورئيس الإقليم، ودهاقين، والاسم الدهقنة.

قال عيسى: هكذا احتالا لمالك البارحة، لأنه استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينيه.

فقالا: المقعد والأعمى: صدق،، فردا على الدهقان ماله. فوضعه الدهقان فى خزانته، وقال: يا مريم خذى نصفه.

قالت: إنى لم أخلق لذلك.

قال الدهقان: فأعطيه ابنك.

قالت: هو أعظم منى شأناً(١).

ثم توالت معجزاته وكراماته فى مصر فى سنوات متتابعة واستمر فى مصر حتى مات الملك (هيردوس) فأوحى الله إلى أمه أن انطلقى بابنك إلى أرض الشام فلم تزل مريم بالشام حتى بلغ ابنها سن الثلاثين فجاءه الوحى، ليكون رسولاً إلى بنى إسرائيل.

واستجاب لأمر ربه فى الدعوة إليه ونبذ كل الآلهة المزيفة التى تعبد من دون الله. وسرت دعوته بين الناس واستجاب له الكثير، ولكن أعداء الحق فى كل زمان ومكان من الأحبار الذين كان لديهم وسيلة لجمع المال وتحقيق الثراء أخذوا فى محاربته حرباً ظالمة استخدموا فيها كل أسلحة الباطل رغبة فى الانتصار.

وكانت أمه مريم البتول تراقب خطى ابنها وتشجعه وتواسيه حتى كان ذلك اليوم الذى وصل فيه الحقد على الحق إلى ذروته حيث أوهموا الحاكم الرومانى أن عيسى يعمل ضد الدولة.

وما أسرع تصديق بعض الحكام لهذه التهمة سواء كانت بالحق أو بالباطل فإذا أحس الحاكم أن عرشه يهتز، أخذ فى التدمير والتنكيل حماية لعرشه، حتى يبقى متربعاً عليه، وليذهب الجميع إلى الجحيم- حتى ولو كانوا أبرياء امتثالاً للحكمة القائلة (سوء الظن عصمة وحسن الظن ورطة).

(١) راجع تاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ١ ص ٥٩٧- ٥٩٨.

وارتفعت الأصوات الهادرة الغاضبة من كل فج وناحية تحمل الشر والحقد والتآمر اصلبه. اصلبه واستجاب الحاكم لأصوات الغوغاء ولكن الله تعالى وعده بالرعاية والحماية، فلن يصاب بأذى ولن يناله مكروه، وتم تنفيذ الصلب فيمن يشبهه فى الصورة فقط لأن الله تعالى وعد ووعده الحق.

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١).

ووصل الخبر الكاذب إلى أمه المكلومة فخرجت تهرول إلى مكان الصلب لتلقى النظرة الأخيرة على جسده الطاهر، وأخذت تزرف الدموع الغزار.

ولكن عيسى عليه السلام لن يترك أمه لهذا الحزن المميت فظهر أمامها سليماً معافى وقال: على من تبكين يا أماه..؟

قالت: أبكى عليك يا بنى.

قال لها: إن الله نجانى من كيدهم ورفعنى إليه..

وانطلق فى الوجود كله صوت الاطمئنان والأمان بقوله تعالى:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٢).

اطمأن قلب مريم، وعلمت أن ابنها عيسى نجاه الله، ففيم الحزن والبكاء، وجوار الله خير جوار.

ثم عادت إلى بيتها وأسلمت أمرها إلى ربها: وما كادت تمكث فى بيتها بضع ساعات من النهار حتى جاءها اثنان من الحواريين هما شمعون الصفا، ويحيى. وقالا لها:

«يا أماه لقد أمرنا ابنك قبل رفعه أن نكون فى خدمتك ولا نفارقك وأن نواصل سوياً دعوة الحق التى بدأها عيسى عليه السلام».

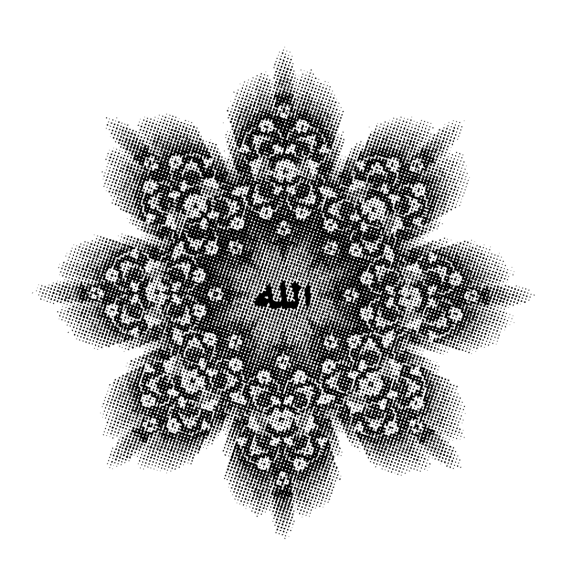
(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥.

(٢) سورة النساء الآيتان ١٥٧- ١٥٨.

قالت مريم البتول: ليبارك الله خطواتنا على طريق الخير والحق الذى سار عليه عيسى ابنى.

ومرت الأيام وتوالت الليالى. ودعوة الحق تنتشر وأتباع عيسى يتزايدون يوماً بعد يوم، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز.

ثم ماذا أوشكت مريم البتول أن تلحق بابنها لتكون بجواره فى الجنة بعد أن أدت رسالتها واستجابت لأمر ربها، وفى ليلة مقمرة، مضيئة وعند ساعات السحر، وفى جو مليىء بالهدوء والسكينة فاضت روحها إلى خالقها بعد ست سنوات من رفع ابنها إلى ربه رحمة الله عليها ورضوانه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.



أقوال العلماء فى نزول الآيات

قال العلماء: المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾(١)

يعنى جبريل هذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام- هو جبريل عليه السلام لم تكن من الأنبياء وهو قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٢).

ومريم عليها السلام لم تكن من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وإذا كان إرسال جبريل عليه السلام إما أن يكون كرامة لها- وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث فى الروع والإلهام والإلقاء فى القلب «كما كان فى حق أم موسى عليه السلام فى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٤).

والمذكور فى هذه الآية أولاً: الاصطفاء، وثانياً: التطهير، وثالثاً: الاصطفاء على نساء العالمين.

والنوع الأول من الاصطفاء هو أمور:

أحدها : أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث.

وثانيها : قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين بل ألقتها إلى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة.

ثالثها : أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.

(١) سورة النحل آية رقم ٢.
(٢) سورة مريم آية رقم ١٧.
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٧.
(٤) سورة القصص آية رقم ٧.

ورابعها : أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١).

وخامسها : أنه تعالى اسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها. فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول.

وأما التطهير ففيه وجوه:

أحدها : أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية فهو كقوله تعالى فى أزواج النبى ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢).

وثانيها : أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال.

وثالثها : طهرها عن الحيض قالوا: كانت مريم لا تحيض.

ورابعها : وطهرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة.

وخامسها : وطهرها عن مقالة اليهود وتهمتهم، وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثانى: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب وأنطق عيسى حال ولادته منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعاملين.

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: حسبك من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة عليهن السلام(٣).

فقيل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل النساء، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل.

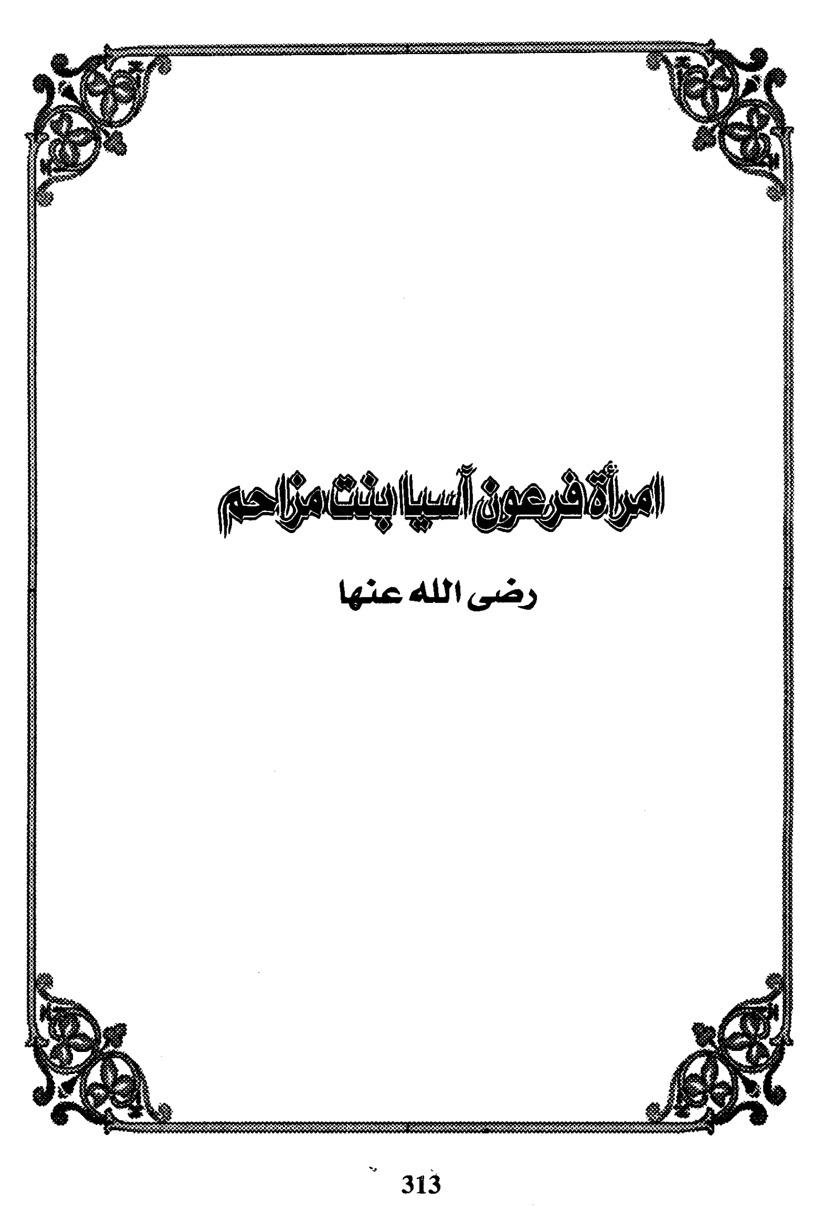
هذا وبالله التوفيق

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٧.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٣.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث فى هذا الجزء.



امرأة فرعون آسيا بنت مزاحم

رضى الله عنها



بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

(التحريم: ١١)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

المقصود بهذه الآية عند ابن جرير زوجة فرعون

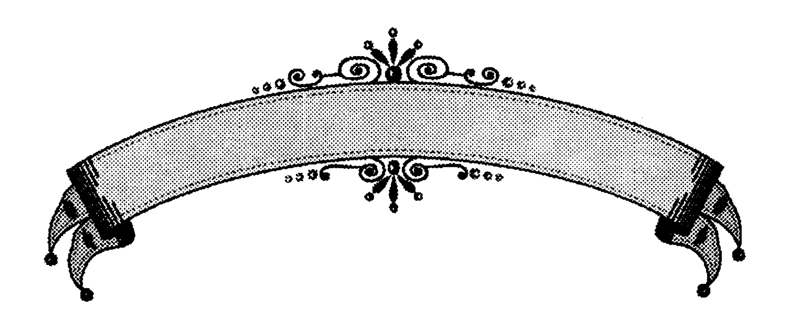
قاله ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية جـ٢٩ ص٣٥

وقاله ابن كثير جـ٤ ص ٤١٩

وقاله القرطبى جـ ٩ ص ٢٠٢

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير جـ٨ ص ٣١٤

فمن هى زوجة فرعون..؟

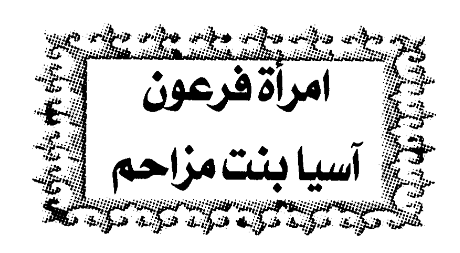


قال الرسول ﷺ:

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد».

رواه الصحاح ومسلم فى فضائل الصحابة، والترمذى، وقال: حسن صحيح


امرأة فرعون آسيا بنت مزاحم
رضى الله عنها



حياتها ونشأتها

على ضفاف النيل الحبيب، وبين المروج الخضراء الناعمة، وتحت أغصان البساتين السامقة والمليئة بالزهور والثمار، الفواحة بالشذى والعطر، كانت أولى خطواتها. طفلة يافعة، وزهرة باسمة وفراشة تهفو وتطير.

لقد كانت نشيطة واعية تسابق الطيور فى البكور، لتلتقى مع لداتها على ضفاف النيل، حيث الخضرة اليانعة، والمياه الصافية، يجلسن متحلقات يتسامرن ويتسابقن، ويملأن الكون ضجيجاً وغناء، فإذا عادت إلى دارها لعبت بعرائسها، وداعبت الدمى والتماثيل على مخدعها وملأت البيت على زويها سعادة وحبوراً.

تلك كانت حياتها الأولى. ولكن ما كادت تقف على أولى عتبات الأنوثة حتى حال والدها بينها وبين الخروج إلى أماكنها المحببة، حيث كانت كل صباح تسابق الطيور وتناجى الزهور، وتكاد تلامس قرص الشمس عندما ترسل أشعتها ودفئها على الكون فتملأ الحياة جمالاً ونماء ولكن لماذا يحول والدها بينها وبين ذلك..؟

وكيف تستطيع الصبر عن رؤية صحيباتها خارج الدار، إنها لم تفعل

خطأ حتى تعاقب به، فلماذا تغلق أمامها الأبواب وتوصد فى وجهها نوافذ الدار؟ إنها لا تعرف سبباً لذلك الحرمان.

وعندما أعياها التفكير ذهبت إلى أمها التى كانت مشغولة فى إعداد الطعام وإيقاظ النيام من إخوتها حتى يذهبوا مع أبيهم لرعى الماشية والإشراف على زراع الحقل.

وما كادت الأم تقع عينها على ابنتها حتى شاهدت الدموع تترقرق فى عينها وتأبى أن تتحدر، فنفضت يديها مما هى فيه وضمتها بين أحضانها مستفسرة عما أصابها.

وخرجت كلمات الابنة متحشرجة متقطعة. لماذا تحولون بينى وبين الخروج لألعب كما كنت ألعب مع صديقاتى يا أماه.

عندها ابتسمت الأم ابتسامة صافية، وطبعت على خد ابنتها قبلة حانية واتبعتها بضحكة مجلجلة. وقالت: أهذا كل ما بك يا ابنتى..؟

نعم يا أماه: إننى لا أطيق الحياة بعيداً عن صديقاتى، ولا أمل الانطلاق فى الحقول والسهول، ثم فى النهاية أغمس قدمى فى مياه النيل.

ولكن الأم ضمت ابنتها إليها أكثر وهمست فى أذنها قائلة لقد ودعت عهد الطفولة يا ابنتى ودخلت إلى دنيا الأنوثة.

كيف يا أماه إننى لا أفهم ما تقصدين؟

وردت الأم الحنون والسعادة تنطلق من بين كلماتها، ألا ترين يا ابنتى ما حدث لك؟

ماذا حدث يا أماه؟

قالت الأم: لقد نهد صدرك، واستدار جسمك، وصرت ملاكاً جميلاً تتجاذبك عيون الشباب، وتهفو إليك قلوبهم، وأصبحت أمنية غالية لكل منهم- الأمر الذى جعلهم يتزاحمون على دار أبيك كل ليلة- بعد رجوعهم من

حقولهم، كل منهم يريدك أن تكونى أنيسة لوحدته، وزوجة لصبوته، وأمّاً حانية لأطفاله، وتملئين البيت عليه بالبنين والبنات و.. وما كادت الأم تنطق بكلماتها هذه حتى انطلقت هاربة من حضن أمها الدافئ لتتأمل فى حجرتها جسمها، وتنظر فى مرآتها إلى صدرها، وتصلح من شأن ثيابها وتتهيأ لحياة أخرى.

ومرت الأيام وتوالت الليالى والفتاة قانعة بحياتها الجديدة، تشارك أمها فى أعمال البيت، وخاصة ما يتعلق بطهو الطعام وتنوع صنوفه اتباعاً لوصية أمها التى تقول: «إن امتلاء معدة الرجل هى الطريق الأمثل لامتلاك قلبه».

والحب والمودة والرحمة بين الرجل وزوجته هى الأعمدة القوية التى يقام عليها البيت السعيد.

ومرت حياة الفتاة حلوة متجددة، هانئة مترقبة. حتى كان يوم اقتربت من شرفة دارها فشاهدت الزينات تقام والأعلام ترفرف والسفن تتهادى على صفحة النيل، والكل يتسابق فى الأعمال، وهم يرددون أغانيهم ومواويلهم التى تجدد نشاطهم وتساعدهم على إنجاز أعمالهم.

ونزلت مسرعة تسأل أمها عما يحدث ويقام.

وقالت الأم: لقد اقترب يا ابنتى عيد وفاء النيل، هذا الشريان الذى يمد مصر كلها بالحياة والنماء بإذن الله تعالى، والمصريون جميعاً فى مثل هذا الوقت يستعدون لهذا اليوم ويتسابقون إلى تجميل منازلهم، وشراء الجديد من ثيابهم، وكل فتاة تلبس أجمل ثيابها وتتزين بحليها وجواهرها وتظهر فى أبهى صورة، لعلها تكون السعيدة الحظ فتفوز بلقب عروس النيل، ثم تلقى بين أمواجه، وتغوص إلى أعماقه، ويتم نقلها إلى جناته- كما تحكى الأساطير- فإذا فعلوا ذلك فاض على أرض مصر بالماء الغزير والخير الوفير.

إذن يا أماه سأكون عروس النيل المجلوة فى عامى هذا ولكن الأم أحست بوخزة فى صدرها وغصة فى حلقها- وقالت: لا. لا. يا ابنتى إننى لا

أستطيع فراقك أو الحياة بدونك.

ولكن الفتاة تمتمت بينها وبين نفسها وماذا لو وقع الاختيار عليها وأخذت أمها معها فى هذه الرحلة السعيدة حيث العز الكبير والخير الوفير أيعترض النيل على ذلك.؟

لا لن يكون اعتراض؟؟

ومرت الأيام، وجاء اليوم الموعود، وخرج المصريون جميعاً شيوخاً وشباناً رجالاً ونساء، بنين وبنات للاحتفال بوفاء النيل، ويكون لهم شرف المساهمة فى اختيار العروس.

وظهرت آسيا ابنة مزاحم فى هذا اليوم فى أجمل صورها وأبهى حللها فبهرت العيون، وحركت القلوب وصارت موضع الترقب والانبهار ولكن الاختيار لم يقع عليها لتكون عروس النيل. لقد أصابت سهام عينها قلب فرعون فأسرته بجمالها، وجرحت قلبه بدلالها فقرر أن تكون عروساً له لا للنيل. فتصبح جوهرة التاج فى ملكه وينبوع الحب لقلبه.

زفاف آسيا إلى فرعون

وقبل أن تتحرك راجعة إلى منزلها سمعت صوت الوزير هامان وهو يطالب المصريين ببقاء الزينات وإقامة الأفراح، وإشعال الثريات لتحويل ظلمة الليل إلى نهار. ابتهاجاً بعقد قران فرعون المعظم ملك مصر ومالكها حتى حكى القرآن الكريم كلماته التى كان يقولها:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى﴾(١).

ولكن من سعيدة الحظ جوهرة التاج زوجة الملك العملاق، ذى السطوة والجبروت، الذى اتخذ من رعيته عبيداً فلا يعارضه أحد فى قليل أو كثير، واتخذ من ثرواتهم كنزاً عظيماً فلا يفنى ولا يزول.

(١) سورة الزخرف آية رقم ٥١.

إنها آسيا بنت مزاحم الطاهرة المؤمنة، الجميلة الفاتنة، ولبست مدينة منف(١) أجمل حللها، وتحولت مياه النيل إلى فضة مذابة عندما لامست صفحتها أشعة الثريات المضاءة.

وتم زفافها إلى فرعون، وعاشت معه ملكة متوجة، رأيها نافذ، ومطالبها مجابة، وقصرها يطل على النيل مباشرة، النيل الذى أحبته وكحلت عينيها كل صباح بمائه، وأشجار القصر وحدائقه المحيطة به يداعبها النسيم العليل فتمتلئ حجراته وصالاته بالشذى والعطر.

ونتساءل متى التفت التاريخ إلى آسيا وأصغى لحديثها، وسجل بالنور على صفحته كلماتها..؟

أكان ذلك عندما زفت إلى فرعون المعظم..؟ إنها زفت كما تزف أى فتاة فى الدنيا، وهذا ليس حدثاً عظيماً يقف أمامه التاريخ طويلاً ولهذا لم يذكره القرآن الكريم فى أى من سوره وآياته.

(١) منف: بالفتح ثم السكون وفاء اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعى أصلها بلغة القبط (مافة) فعربت فقيل منف، وقال عبد الرحمن بن عبد الله أول من سكن مصر بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح ﵇، بيصر بن حسام بن نوح ﵇ فسكن منف وهى أول مدينة عمرت بعد الغرق هو وولده وهم ثلاثون نفساً منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت «مافة»، ومعنى مافة بلسان القبط ثلاثون ثم عربت فقيل منف وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ سورة القصص آية رقم ١٥ قال الهمدانى: ذكر لى شيخ صدوق قال: رأيت بمنف دار فرعون ودرت فى مجالسها ومساربها، وغرفها وصفافها فإذا هى جميع ذلك حجر واحد منقور. وآثار هذه المدينة وحجارة قصورها إلى الآن ظاهرة (فى عهد الهمزانى) بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ وقيل إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها فى موضع سريره ولذلك قال: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الزخرف آية ٥١ وذكر بعض عقلاء مصر قال: دخلت منف فرأيت عثمان بن صالح عالم مصر وهو جالس على باب كنيسة بمنف ومكتوب على باب الكنيسة: لا تلومونى على صغرها. قال عثمان بن صالح. وعلى باب هذه الكنيسة وكز موسى ﵇ الرجل فقضى عليه. وبها كنيسة الأسقف لا يعرف طولها من عرضها مسقفة بحجر واحد. وبمنف آثار الحكماء والأنبياء وبها كان منزل يوسف الصديق ﵇ ومن كان قبله، وكان فى قرية المقطم موضع يسمى المرقب ويطلق عليه تنور فرعون».

الطفل موسى بين يدى آسيا

ولكن المؤرخين يرون أن التفات التاريخ إليها ومعه أقلامه وسجلاته كان ذلك فى يوم ليس كمثله يوم. حيث كانت تجلس فى قصرها ساهمة تتأمل قدرة الخالق فى إبداعه لهذا الكون المترامى الأطراف، وتتسمع أذنيها خرير مياه النيل المتدفق نحو الشمال فى سهولة ويسر، وكأنها موسيقى حالمة، عندها تساءلت لقد أعطاها الله تعالى كل ما أرادت ووهبها فوق ما تريد، ولكنها الآن تطمع فى كرم خالقها وواهبها الصحة والسعادة أن يهبها ولداً نعم ولد. لتكتمل بها سعادتها، ويدغدغ حبه نياط قلبها، وتزهو به على الدنيا كلها، ويكون وريثاً لملك فرعون من بعده. ثم ماذا؟ أخذت تتخيل ملامح ابنها المرتقب وترسم فى مخيلتها صفاته وطباعه، فهو جميل الصورة، باسم الثغر فارع الطول، قوى الشكيمة، طيب القلب، واسع الصدر. وهو من قبل هذا ومن بعده، بعيد عن التجبر والجبروت، محباً للخير، عطوفاً على الناس جميعاً لأنهم خلق الله الذى أبدع السموات والأرض وأوجد الظلمات والنور.

وما دام ابنها على هذه الصفات والطباع هفت إليه النفوس بالمحبة، وبادلته الود والإخلاص، وسيكون واحة للحيارى وملجأ لليتامى، ومنصفاً للمظلومين، وأميناً على الرعية، وأخاً للجميع وأخرجها من تأملاتها تلك صوت وصيفاتها يستأذن للدخول إليها والمثول بين يديها، وهن يحملن صندوقاً بين أيديهن، عثرن عليه طافياً فوق الماء، ومستقراً على جدار القصر.

ولقد حاولت الوصيفات فتح الصندوق وعالجنه من كل الجوانب ولكنهن فشلن فى فتحه.

وتقدمت سيدة القصر- وجلة مضطربة- وما كادت تلقى نظرة على الصندوق حتى بهرت به، لقد شاهدت النور ينبعث من إحدى جوانبه، وما كادت تقترب من غطائه حتى كان طوع بنانها وفتح بين يديها وكم كانت دهشتها عندما رأت بداخله طفلاً حديث الولادة يمص إصبعه فى هدوء،

ومطمئن فى نومته وكأنه مستسلم لقضاء الله وقدره.

طفلاً يختلف عن كل الأطفال فهو من أحسن خلق الله تعالى، تعلوه جلالة وبهاء، وما كاد يقع نظر آسيا عليه حتى امتلأ قلبها حبّاً له، وأحست أن الله قد استجاب لدعائها ورزقها من حيث لا تحتسب بهذا الغلام الجميل.

قال وهب بن منبه: بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد، ويقال تسعين ألفاً.

ويروى أنها حين اقتربت أمه من الولادة، وجاءها الطلق، وكانت بعض القوابل «التى تقوم بعملية الولادة» الموكلات بحبالى بنى إسرائيل صديقة لأم موسى فقالت لها: لتنفعنى صداقتك اليوم.

فعالجتها حتى وضعت جنينها فلما رأته القابلة هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها.

ثم قالت القابلة لأمه: ما جئتك إلا لأقتل مولودك، وأخبر فرعون بذلك، ولكنى وجدت لابنك حبّاً ما وجدت مثله قط فاحفظيه.

فلما خرجت القابلة جاء عيون فرعون، فما كان من أمه إلا لفته فى خرقة ووضعته وهى مسرعة فى تنور مسجور- وهى لا تدرى ما تصنع- لما طاش عقلها خوفاً على وليدها.

وقام الشرط بتفتيش المنزل فلم يعثروا على شىء فخرجوا، وهى لا تدرى أمه أين مكانه.

وبعد برهة سمعت بكاءه ينبعث من داخل التنور، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً، كما جعلها على إبراهيم ﵇.

وما حدث مع القابلة، حدث مع آسيا امرأة فرعون، فاحتضنته، ودخل عليها فرعون وهو بين يديها.

وما كادت عين فرعون تقع عليه، حتى تذكر رؤياه وما قالته الكهنة له:

من أن غلاماً من بنى إسرائيل يفسد ملكك. إذن هو هذا، وجسم له خياله أنه هو بعينه الطفل المقصود بكلام الكهنة، وبإفساد المملكة عليه فهم بقتله، ولكن الزوجة حالت بينه وبين ذلك وما زالت تسترضيه وتستعطفه وتقول له كما أخبر القرآن الكريم:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(١).

إن قدرة الله تعالى تتحدى، تتحدى بطريقة واضحة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما، إنهم ليذبحون الذكور من مواليد قوم موسى خوفاً على ملكهم وعرشهم ودولتهم، ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كى لا يفلت منهم طفل ذكر.

فها هى يد القدرة الإلهية تلقى بين أيديهم بلا بحث ولا مشقة بطفل ذكر وأى طفل..؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين، ها هى تلقيه فى أيديهم مجرداً من كل قوة، ومن كل حيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يطلب النجدة، ها هى القدرة الإلهية تقتحم على فرعون حصنه وهو الطاغية ثم تعلن عن مقصدها فى هذا الطفل.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

(١) سورة القصص آية رقم ٩.

آسيا تتشفع لفرعون حتى لا يذبح موسى

ليكون لهم عدوّاً يتحداهم وحزناً يدخل الهم على قلوبهم، ولقد اقتحمت القدرة الإلهية على فرعون قلب امرأته بعد ما اقتحمت به عليه حصنه لقد حمته بالمحبة ذلك الستار الرقيق الشفيف، ولم تحمه بالسلاح ولا بالجاه، ولا بالمال، وإنما حمته بالحب الحانى الكبير فى قلب امرأة، وتحدت به قوة فرعون وغلظته وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف.

(لا تقتلوه) وهو الذى على يديه مصرع الطاغية وجنده.

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(١).

وهو الذى تخبئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروه طويلاً.

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

إنها القدرة الإلهية القادرة التى تتحداهم وتكيد لهم وهم لا يشعرون ولما استقر الطفل فى بيت فرعون- عرضوا عليه المراضع التى كن فى القصر المنيف، فلم يقبل منها ثدياً واحداً، ورفضها فى إباء وشمم تحقيقاً لأمر الله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾(٢).

فخرجوا به إلى السوق، علهم يجدون امرأة تتمكن من إرضاعه. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يحقق وعده لأمه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

فجاءت أمه واعطته ثديها فالتقمه فى لهفة وعب من لبنها حتى شبع، وفرح أهل القصر بذلك فرحاً شديداً وتسابقوا إلى تبشير سيدة القصر بذلك فكانت لوعة أعقبتها فرحة ونعمة وفضل من الله تعالى.

---

(١) سورة القصص آية رقم ٩.

(٢) سورة القصص آية رقم ١٢. (٣) سورة القصص آية رقم ٧.

وطلبت سيدة القصر من هذه المرضعة- والتى لا تعرف أنها أم للطفل- أن تقيم معها لترضع هذا الطفل، ولها كل ما تطلب وتريد ولكن المرأة اعتذرت عن تلبية هذا الطلب لظروفها فهى زوجة ولها أولاد ولا تستطيع فراقهم. ولكن إن رغبت سيدة القصر أن أحمل الطفل معى وأقوم برضاعته والمحافظة عليه قبلت ذلك.

ولم يكن أمام سيدة القصر إلا أن توافق وعادت أم موسى بولدها راضية مرضية تشكر ربها لنعمه عليها وعودة ابنها لها فى عز وجاه ورزق دائر.

ولهذا جاء فى الحديث: «مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

كم عدد السنين التى قضاها الطفل مع أمه..؟ وهل عاد واستقر فى قصر فرعون بعد انقضاء فترة الرضاعة..؟ وماذا كان موقف فرعون من الطفل وهو فى قصره..؟

تساؤلات كثيرة يقف الإنسان أمامها حائراً ولا يجد لها جواباً..؟؟

ويصمت التاريخ عن تسجيل فترة طويلة من حياة موسى، وزوجة فرعون ولا يفصح عن ذلك إلا عندما أصبح موسى شاباً جلداً يقف على أعتاب الرجولة، ويصرع رجلاً من آل فرعون.

وصوت الطاغية وهو يجلجل عالياً أقبضوا على موسى ليكون عبرة لغيره وينال الجزاء الذى أعد له.

عندها يصور لنا التاريخ القلق الكبير الذى عاشته هذه المرأة التى اتخذت موسى ولداً لها، والخوف عليه من أن يقع فى قبضة الأشرار من عيون الوزير هامان.

واستمرت فترة على ذلك وهى لا تعرف طعم الاستقرار، ولا يقترب النوم

من أجفانها إلا لماماً. حتى كان يوم أتى زوج ماشطة بناتها ودعاها للاطمئنان على موسى، لأنه التقى به وحذره الوقوع فى قبضة الجلادين ونصحه بالخروج فوراً من البلاد بقوله:

﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾(١).

فحمدت الله كثيراً على نجاته. ودعت ربها وخالقها أن يحفظه ويرعاه وإن كان فى هذا عذاب لها لابتعاده عن عينها وغروب شخصه عن بيتها ولكنها تصبرت وتحملت. لأن عذاب البعاد أخف وطأة عليها من أن تسمع خبر وفاته، أو أن يغيب فى أقبية السجون إلى أن يحين مماته.

ومرت السنون على امرأة فرعون بطيئة وثقيلة، سماؤها مليئة بالضباب فلا تشرق فيها شمس، وليلها دامس لا بصيص فيه من النور، وأيامها رتيبة لا جديد ولا انبهار، فكانت تجلس فى قصرها. تجتر أحزانها، وتناجى وليدها. وتنساب دموعها فوارة متتابعة ومع هذا كان دعاؤها إلى ربها لا ينقطع وأملها فى رؤية وليدها لا يخبو. إنها تكاد تراه رؤيا العين، وتناجيه بأعذب الألفاظ، ولكنها لا تسمع إلا رنين الصدى، وصمت المكان.

(١) سورة القصص آية ٢٠.

موسى وأخوه عليهما السلام يدعوان فرعون للإيمان برب السموات والأرض

حتى كان يوم أشرقت شمسه، وصفا نهاره، وغنت بلابله. فخرجت إلى شرفة القصر. تتأمل عناقيد العنب وكأنها ثريات مضيئة وتترك صفحة وجهها للنسيم العليل، وتمتع نظرها بمياه النيل وهى منسابه تداعب أمواجها وتلامس شطآنها.

ووسط هذا الهدوء الشامل. الذى لف المكان سمعت أصواتاً عالية، وجلبة صاخبة، وأصواتا هامسة متتابعة إنه موسى وأخوه هارون. وما كادت تخرج من خدرها حتى شاهدت ابنها اليافع الطويل العالى الجبهة يقف أمام فرعون قائلاً له وبجواره أخوه هارون:

﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾(١).

إن هذه الكلمات المحدودة قلبت موازين فرعون، فلم يعرف ما يأتى وما يدع وملأته بالهوان، وأحس أنه طائر فى مصيدة لا يملك منها فكاكاً. ثم ثاب إلى عقله وأخذ يهذى ويقول:

إذا لم أكن أنا ربكم الأعلى فمن يكون؟

قال موسى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٢).

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾(٣).

قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ

(١) سورة طه آية ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة طه آية رقم ٥٠.
(٣) سورة طه آية رقم ٥١.

(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾(١).

إن موسى يقول لفرعون: ربنا الله الذى وهب الوجود لكل موجود فى الصورة التى أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شىء إلى وظيفته التى خلقه لها، وأعطاه من الإمكانيات ما يساعده على أداء هذه الوظيفة ويعينه عليها.

وهذا الوصف الذى حكاه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود.

الوجود الكبير الذى خلقه الله تعالى: والمؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء، وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حى فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل مع الكائنات الأخرى.

ولقد سمعت امرأة فرعون ذلك الحوار والجدال بين موسى وفرعون فازدادت إيماناً بدعوة الحق الذى جاء بها موسى عليه السلام. ولكنها كانت وماشطة بناتها فى قلق على موسى من بطش فرعون ومؤامرات وزيره هامان. ودعتا الله تعالى أن ينصر موسى يوم الزينة عندما تحداه فرعون بالسحرة وألاعيبهم. وخرجت زوجة فرعون وماشطتها لتشاهدن هذا التحدى، وكم كانت فرحتها عندما أبطلت معجزة موسى عليه السلام سحر السحرة. الأمر الذى دعاهم إلى الإيمان بموسى وإعلانهم ذلك بقولهم:

﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾(٢).

قال فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾(٣).

(١) سورة طه الآيات رقم ٥٢- ٥٤. (٢) سورة طه آية رقم ٧٠.

(٣) سورة طه آية رقم ٧١.

عند ذلك استشاط فرعون غضباً وخرج عن طوره وقال:

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(١).

وأوشكت امرأة فرعون أن تفقد عقلها وأن يتوقف قلبها إن ابنها وفلذة كبدها يقتل أمام عينها- وتناست أن الله تعالى الذى حمى موسى فى وسط البحر، وأنقذه من نار التنور وأبعد عنه شفرات الذبح التى أعدها جند فرعون قادر على حمايته من جعجعة فرعون وعصابته.

ولقد أعاد لها صوابها ورد لها عقلها صوت حزقيال زوج الماشطة وهو يقول غير هياب ولا وجل أمام فرعون.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وهم فرعون بالبطش بحزقيال: ولكنه اختفى فى لحظة خاطفة وفشلت كل المحاولات فى العثور عليه. وكانت هذه من الهزائم التى أخذت تتلاحق متتابعة على رأس فرعون ووزيره هامان.

وعاد فرعون إلى قصره بعد هذا اليوم العصيب، وتتابع الأحداث فيه وقال لآسيا بعد حديث طويل: لن أستريح حتى أقتل موسى بيدى هاتين. ولكن آسيا أرادت أن تغير دفة الحديث. ولكنه صاح فيها: لم لا تشاريكنى الغضب من موسى..؟

فقالت: ولم أغضب عليه..؟

وعندها جن جنونه وقال لها: لأنه لا يعترف أننى الإله، إنه يريدنى وأنا الإله العظيم أن أعبد إلهه: أليس هذا من الجنون الذى يدعيه موسى. ويدعونى إليه..؟؟

(١) سورة غافر آية رقم ٢٦.   (٢) سورة غافر آية رقم ٢٨.

قالت آسيا: إن هامان وزيرك هو الذى يريد أن تكون هناك جفوة دائمة بينك وبين موسى. حتى يستخلصك لنفسه.

قال فرعون: إن هامان وزيرى ومن أكثر المخلصين لى. لابد أن يمتلئ قلبك غضباً على موسى. أنا أعلم أنك اتخذتيه ولداً حين كان صغيراً ولكنه عاق لى ويسعى لإفساد مملكتى..

وماهى إلا لحظات حتى دخل هامان، وأخذا يتناجيان ويدور الهمس بينهما.. واستمر هذا الهمس لفترة طويلة. ولم يقطعه إلا صوت أقدام مسرعة تقطع عليهما خلوتهما.

ولم تكن إلا ابنة فرعون التى كانت تهرول مسرعة. لتلحق بأبيها وما كاد فرعون يراها على هذه الصورة حتى قال لها ماذا دهاك..؟

قالت الفتاة: ماشطتى من أتباع موسى..؟؟

قال فرعون: أواثقة أنت من ذلك..؟

قالت الفتاة: نعم يا أبى.

وهناك هاج فرعون وماج كيف يكون أتباع موسى فى قصره. إن هذا لن يكون سأقلب بهم الأرض. وأغرقهم فى اليم، وأقدمهم طعمة سائغة للذئاب الجائعة.

وما هى إلا لحظات حتى جاء الجند يسحبون الماشطة من شعرها ويلقون بها تحت أقدام فرعون.

وسألها فرعون من ربك يا امرأة.

قالت: ربى وربك الله.

وعلى الفور أمر فرعون بإعداد تنور من نحاس ويحمى بالنيران فى وسط القصر. ويأتون بأبناء الماشطة.

وعلمت آسيا بالأمر فهمت أن تذهب لتشفع لها. ولكن شعرت أن غضب فرعون لغى عقله فلن يستجيب لرجاء.

وعلى الفور جاء الحراس بالتنور وبالمرأة وأبنائها - وهم صغار - ووقف فرعون وهامان ومن خلفهم الجنود يلقون بابن لها فى النار فيشتعل جسمه وما هى إلا لحظات حتى يتحول إلى قطعة متفحمة ويسألها فرعون: من ربك..؟

وهى تقول: ربى الله ربى الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

قالت ذلك وهى تعلم أنه لم يبق من أولادها إلا طفل رضيع انتزعه الجند من بين يديها. فتملكها الهلع وحل بها الجزع لأن أولادها يحترقون أمام عينها وأوشكت أن تضعف أمام الرضيع خوفاً عليه من النار.

وإذا بالرضيع ينطق ويقول: اصبرى يا أماه فإنك على الحق. وتكرر ما حكاه القرآن عن المؤمنين الصابرين عندما ألقى بهم الجبابرة فى أخاديد النار قال تعالى مصوراً حالهم:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(١).

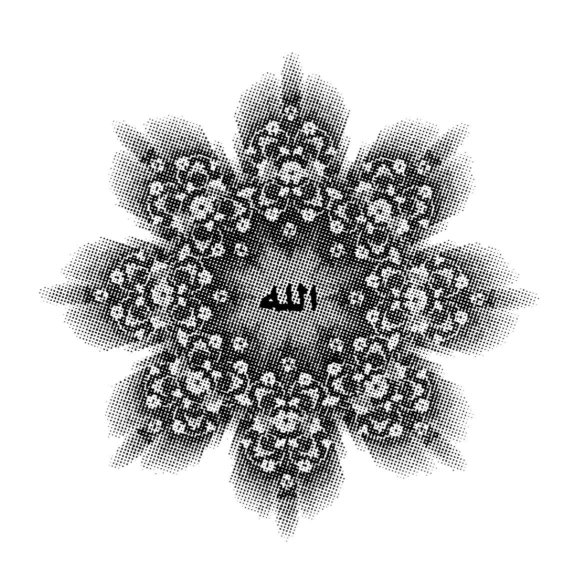
وما فعله فرعون مع الماشطة وأولادها فعله مع زوجته، حيث رماها بصخرة كبيرة ووضع لها الأوتداد بالأرض وربط يديها وقدميها حتى فاضت روحها إلى خالقها رحمها الله رحمة واسعة- واسكنها فسيح جناته.

إن هذا التجبر والطغيان الذى وقع من الجبابرة الطغاة على عباد الله المخلصين لم يخل منه اكثر العصور والأمصار ولم يسلم منه صغير ولا كبير.

والقرآن الكريم حدثنا عن الكثير من هؤلاء الجبارين أمثال يوسف بن شراحيل بن تبع الحميرى الذى أخذ أكثر من ثمانين رجلاً من المؤمنين وحفر

(١) سورة البروج الآيات من ٤ إلى ٨.

لهم أخدوداً وأحرقهم فيه- كما حكاه الماوردى وقال الكلبى: هما نصارى نجران أخذوا بها قوماً مؤمنين، فحفروا لهم سبعة أخاديد طول كل أخدود أربعون ذراعاً، وعرضه اثنتا عشرة ذراعاً ثم طرح فيه النفط والحطب ثم عرضوهم على النار فمن أبى قذفوه فيها، وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين. وقال مقاتل أصحاب الأخدود ثلاثة، أحدهم بنجران والثانى بالشام، والآخر بفارس. أما الذى بالشام فانطنيانوس الرومى، وأما الذى بفارس؟ فلم يذكر له أحد من العلماء اسماً ولا رسماً والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نواس هذا والله أعلم.



أسباب نزول الآيات

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا إذن أن الله حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

وقال ابن جرير عن أبى عثمان عن سليمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة.

وقال ابن جرير عن ابن أبى بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال غلب موسى وهارون.

فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن استمرت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى.

فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة فمضت على قولها، وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

فقولها: ﴿رب ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾(١).

قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾(٢)

أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم- رضي الله عنها.

وقال أبو جعفر الرازى عن أبى العالية: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون. وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها.

(١)، (٢)، (٣) سورة التحريم آية رقم: ١١.

فقالت: تعس من كفر بالله.

فقالت لها ابنة فرعون: ألك رب غير أبى.

قالت نعم ربى ورب أبيك، ورب كل شىء الله.

فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها، فأرسل إليها فرعون.

فقال: تعبدين ربّاً غيرى..؟

قالت: نعم ربى وربك ورب كل شىء الله وإياه أعبد فعذبها فرعون ووضع لها أوتاداً فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات، فكانت كذلك فأتى عليها يوماً فقال لها: ما أنت منتهية.؟

فقالت له: ربى وربك ورب كل شىء الله.

فقال لها: إنى ذابح ابنك إلا أن تعقلى.

فقالت له: اقض ما أنت قاض. فذبح ابنها، وجاءت روح ابنها تبشرها فقال لها: أبشرى يا أمة فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت.

ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الثانى. ثم جاء الجند بالثالث فأوشكت أن تضعف وإذا بالرضيع ينطق وقال لها اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا.

قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت ما ازدادت به إيماناً وتصديقاً ويقيناً.

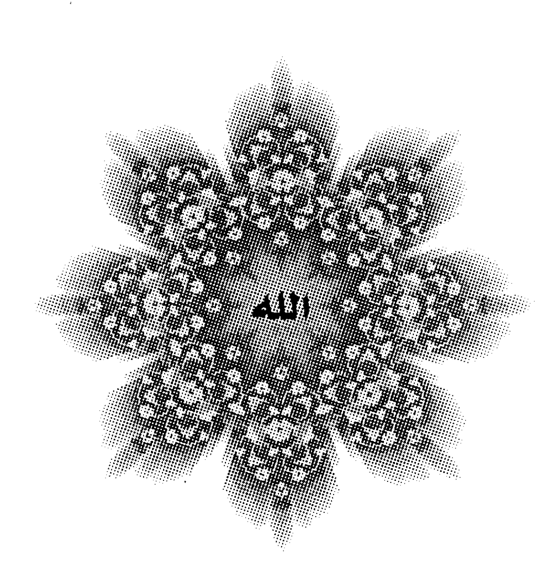
واطلع فرعون على إيمانها فقال للملأ: ما تعلمون من آسيا بنت مزاحم..؟

فأثنوا عليها.

فقال لهم: إنها تعبد إلهاً غيرى.

فقالوا له: اقتلها. فوضع لها أوتاداً وشد يديها ورجليها فدعت آسيا ربها فقالت: ﴿رب ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[1]. فوافق ذلك حضور فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة.

فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها، وأسكنها الجنة. هذا وبالله التوفيق.



(١) التحريم آية رقم: ١١.



تذييل

يوم الزينة فى مصر القديمة

يوم الزينة فى مصر القديمة

تقول المصادر التاريخية إن فرعون رأى آسيا بنت مزاحم فى يوم الزينة وكان هذا تدبيراً من تدابير القدرة الإلهية، فى زواج فرعون الطاغية من أسيا المؤمنة لتكون جنداً من جنود الله تعالى فى نجاة موسى ﵇ من بطش فرعون ووزيره هامان.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(١).

فما حقيقة يوم الزينة فى مصر القديمة..؟ أكان هو يوم عيد من أعيادهم حيث يعم الفرح والسرور، والبهجة والحبور..؟

أم أن يوم الزينة هو حلول الربيع عندما تخضر الأرض، وتتفتح الزهور وتنمو الثمار ويقترب موسم الحصاد؟

أم أن يوم الزينة لا هذا ولا ذاك بل هو اليوم الذى كان فيه المصريون يحتفلون جميعاً بوفاء النيل، عندما يفيض ماؤه وتتعاظم أمواجه وتمتلئ الأرض بالرى والماء بعد الجفاف والحرمان.

وسمى يوم الزينة لأنه فى هذا اليوم من كل عام كانت تزف كل عروس إلى عريسها فى احتفال جماعى، وتتزين المنازل بالثريات المضيئة والأشجار بالثمار الناضجة، وتغرد البلابل والطيور فوق فروع الأشجار وباسق النخيل، ويلبس الرجال والنساء الشيوخ والشباب والأطفال والفتيات أجمل الثياب الزاهية الألوان ويغنون ويمرحون حتى يتم إلقاء عروس النيل فى هذا الشريان المتدفق، الذى لا يغيض ماؤه ولا تقل خيراته- ولقد صدق

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٨.

(هيردوت) عندما قال: «مصر هبة النيل».

وإذا كان ذلك كذلك فما هى الزينة، يرى بعض العلماء أنه اسم جامع لكل ما يتزين به، والتزين هو تحسين المظهر وتجمله حتى تميل إليه العيون وتنشرح له الصدور، ولا يشترط فيما هو حسن المظهر أن يكون فى حقيقته جوهراً نافعاً، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربما يكون ضارّاً وجالباً لشر وعذاب.

فالزينة من شأنها أن تستهوى النفوس إذ تستحسنها الحواس. وإذا كان الأمر كذلك فما المقصود بالزينة فى منهج الإسلام..؟

أن تكون هى الزينة الخارجية والتى عناها قول الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١).

أن تكون هذه الزينة البدنية كالقوة وطول القامة وتناسب الأعضاء والتى عناها قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٢).

أم هى الزينة النفسية والتى عناها قول الله تعالى:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(٣).

إننا نرى أن الزينة فى منهج الإسلام تشمل الأنواع الثلاثة ولهذا يطيب لنا أن نلقى بعض الأضواء على كل منها على حدة. فمن الزينة الخارجية قول الله تعالى.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤.

(٢) سورة القصص آية رقم ٧٩.

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٧.

الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١).

فما الزينة التى أمرنا الله تعالى بأخذها عند كل مسجد...؟

أهى زينة الوضوء الذى يقوم به المسلم خمس مرات فى اليوم والليلة ولا يستطيع أداء الصلاة إلا به..؟

أهى زينة اللباس والرياش الذى يتزيا به المسلم فيظهره فى أحسن صورة عند دخلوه فى الصلاة لقوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٢).

أهى زينة السواعد المفتولة، والقوام الممشوق، والذى لم يترهل بكثرة الإسراف فى الطعام والشراب التزاماً بأمر الله تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾(٣).

أهى زينة السمت الحسن والمنظر الجميل عند السعى إلى بيت من بيوت الله لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾(٤).

أهى زينة العطر الهادئ والطِّيب العابق الذى ينضح به المسلم فتنعش نفسه ويخشع قلبه ويملأ الكون من حوله بالتكبير والتسبيح..؟

إن الفاحص المدقق فى قول الله تعالى:

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، يرى أن كل هذه الأشياء من الزينة مطلوبة، ومقدرة، ومكلف بها المسلم عند ذهابه لأداء الصلاة.

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١، ٣٢.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٦.

(٣) سورة الأعراف آية رقم: ٣١.

(٤) سورة الفرقان آية رقم: ٦٣.

فالمسلم عندما يذهب لأداء الصلاة لابد أن يأتى بالوضوء على الصورة الجميلة التى أمرنا رسول الله ﷺ من الإحسان والتتابع، والوضوء فى الحقيقة زينة وقيمة لأن الرسول ﷺ عندما سأله بعض الصحابة: كيف تعرف أمتك من بين الأمم يا رسول الله؟

قال عليه السلام: هم غر محجلون من أثر الوضوء(١).

والتحجيل نور ينبعث من الأقدام التى اعتادت السير إلى المساجد وفى النور زينة لقوله تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(٢).

وقوله تعالى أيضاً:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾(٣).

ومشهد النجوم فى السماء جميل جمالاً يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته.

ويختلف من صباح إلى مساء.

ومن شروق إلى غروب.

ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء.

ومن مشهد الصفا إلى مشهد الضباب والسحاب.

والوضوء شرعه الله تعالى ليتخلص به العبد المسلم قبل دخوله إلى الصلاة من الأوساخ المادية، ومن القاذورات المعنوية.

إنك تغسل يديك فى الوضوء فتطهرهما مما تأتيه أو تفعله من مخالفة شرع الله مما أمر به أو نهى عنه.

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٣: ٤٣١، ٤: ٣٠٧ (حلبى).

(٢) سورة الصافات آية رقم: ٦. (٣) سورة الملك آية رقم: ٥.

من اعتدائهما على الغير.

من تناولهما المال الحرام.

من أن تبطش بهما من لا يستحق البطش.

من أن تكتسب بهما معصية.

من استعمالهما فى غير مرضاة الله.

يقول الرسول ﷺ:

«إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مستها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»(١).

وفى رواية: ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة

ويغسل المسلم عينيه فى الوضوء باسم الله لا باسم المدنية الزائفة ولا باسم هيئة من الهيئات الصحية.

ولا باسم مصلحة ذاتية.

فالوضوء على هذا الأساس نظافة وزينة، وطهارة وقربة، ودعاء يصحبه تضرع ورجاء.

والمسلم لابد له أن يتزيا باللباس الحسن، اللباس الذى يوارى سوءات الجسد، واللباس الذى يستر عورات القلب لقوله تعالى:

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٢).

(١) رواه الموطأ ١: ٣١ فى الطهارة باب جامع الوضوء والنسائى ١: ٧٤، ٧٥.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٦.

ومن شعور التقوى لله والحياء منه ينبعث الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه، ومن لا يستحى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى أو يدعو غيره إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السوأة.

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى   تقلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه   ولا خير فيمن كان لله عاصيا

إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى إنما هى فطرة خلقها الله فى الإنسان.

وليس كما تزعم الدعوات الهابطة التى ترى كشف الجسد والسوءات رجوع بالإنسان إلى أصوله وجدوده القرود الذين يكشفون سوءاتهم ويتسافدون أمام البشر دون حياء أو خجل. فما الذى يمنع الأحفاد أن يفعلوا كما يفعل الأجداد..؟؟

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾(١).

إن سياق الآية الكريمة لا يكتفى بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب، بل يستنكر تحريم الزينة التى أخرجها الله لعباده، وتحريم الطيبات أيضاً.

لأن التحريم والتحليل لا يكون إلا بأمر الله تعالى، والله سبحانه وتعالى أحل الزينة لعباده، الزينة المعتدلة من اللباس، وأباح لهم الطيب الحلال من الطعام فى غير سرف ولا مخيلة.

وأما الذى حرمه الله تعالى ونهى عنه فهو ما أشارت إليه الآية الكريمة.

قال تعالى:

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١).

قال الكلبى: كان العرب يطوفون حول البيت عراة الرجال والنساء، ولهم شعر فى ذلك ومساجلات، فلما أمرهم الإسلام بستر العورات. لبسوا الثياب وطافوا بالبيت عندها عيرهم المشركون بذلك.

وهكذا يفعل أعداء الإسلام ذلك فى كل مكان يعرون الناس من ثيابهم ويعرونهم من التقوى والحياء ثم يدعون أن ذلك رقياً وحضارة.

إن المسلم مطالب بأن يلبس أحسن الثياب، هذا حق، وأن يختار ما يجمل صورته حتى يظهر فى أجمل هيئة. حتى يحبه الله. لأن الله جميل يحب الجمال كما أخبر بذلك الرسول ﷺ.

عن يحيى بن سعيد رضي الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته(٢)..

إن المظهر العام لجماعة المسلمين أمر تحرص عليه تعاليم الإسلام، وتحث عليه لأنه يدعو إلى الهيبة والوقار.

فهؤلاء الذين يذهبون إلى المساجد فى أثواب مهنتهم عليهم أن يقلعوا عن هذه العادة امتثالاً لقول الرسول ﷺ وكذلك الذين لا يهتمون بشعورهم ولا بشواربهم ولا بلحاهم. تقف تعاليم الإسلام منهم موقف الصد والنفور والعتب والمساءلة..؟؟

عن زيد بن أسلم- أن عطاء بن يسار أخبره فقال: كان رسول الله ﷺ فى المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله ﷺ- بيده- أن اخرج من المسجد.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى الإقامة ٨٣ بلفظ: لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة.

ولقد أراد الرسول ﷺ بذلك أن يصلح الرجل من شعره ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال ﷺ:

«أليس هذا خير من يأتى أحدكم ثائر الرأس واللحية كأنه شيطان[1]..؟؟

فالرجل الذى يذهب إلى المسجد ولا يلبس أحسن الثياب.

والرجل الذى يذهب إلى دور العبادة، وهو ثائر الشعر واللحية.

والرجل الذى يذهب إلى المسجد ولا يمس طيباً ولا يتضمخ به يصد عن مساجد المسلمين.

والرجل الذى تنبعث من جسده الروائح الكريهة.. نتيجة لعدم اغتساله يوم الجمعة، أو الذى يأكل من شجرة الثوم أو البصل عليه أن يعتزل مساجد المسلمين لقول الرسول ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم»[2].

وعن يحيى بن سعيد رضي الله عنه أن أبا قتادة الأنصارى قال لرسول الله ﷺ:

«إن لى جمة شعر أفأرجلها..؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم وأكرمها[3].

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين لما قال له رسول الله ﷺ نعم وأكرمها.

ونقول: إن أبا قتادة ما طلب من الرسول ﷺ أن يرجل جمته إلا وقد علم أن رسول الله ﷺ يفعله.

روى محمد بن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدثنا مندل عن ثور

---

(١) الحديث أخرجه صاحب الموطأ فى الشعر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال: وذكره.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى الأذان ١٦٠ ومسلم فى المساجد ٦٨- ٧٢ وأبو داود فى الأطعمة ٤٠ والنسائى فى المساجد ١٦ وابن ماجه فى الإقامة ٥٨.

(٣) الحديث أخرجه صاحب الموطأ فى الشعر.

عن خالد بن معدان قال:

كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمرآة، والدهن والسواك والكحل.

وعن ابن جريج: مشط عاج يمتشط به.

قال ابن سعد: وأخبرنا قبيصة بن عقبة قال: حدثنا سفيان عن ربيع بن صبيح عن زيد الرقاش عن أنس بن مالك ﵁ قال:

«كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه، ويسرح لحيته بالماء.

وأخبرنا يزيد بن هارون حدثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس ﵄ قال: كانت لرسول الله ﷺ مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً فى كل عين(١).

فتصفيف شعر الرأس وترجيله والاهتمام به وإكرامه أمر لا يرفضه الإسلام بل يشجع عليه. لأن الله نظيف يحب النظافة.

والتضمخ بالطيب، والمسك والروائح الذكية أمر يوجبه الإسلام، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

والرسول ﷺ يحث جماعة المسلمين على التضمخ بالطيب فى كثير من أوقاتهم فإذا كان الأمر أمر الصلاة كان ذلك من اللوازم التى يجب على المسلم أن يأخذ نفسه بها.

قال أحد الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- فإن لم يجد أحدنا طيباً؟

قال ﵇: ولو من طيب زوجته(٢).

---

(١) راجع الترمذى فى الطب ٩ واللباس ٢٣ وابن ماجه فى الطب ٢٦ وأحمد بن حنبل فى المسند ١: ٣٥٤ (حلبى).

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة والترمذى فى أبواب الجمعة وأحمد بن حنبل فى المسند.

وكـأن الإسـلام يرى أن المرأة المسلمـة- التى تحب أن ترضى زوجـهـا- وتحـرص على ألا يشم منهـا إلا أطيب ريح عليـهـا ألا تخلو قـارورتهـا من الطيب، لأن الطيب بالنسبة للمرأة من لوازم الزينة.

يقول الإمام القرطبى:

«الإنسـان يحب أن يكون جـمـيـلاً- فى المجـتـمع الذى يعـيش فـيـه- وذلك حظ النفس لا يلام فيه ولهذا يسرح شعره، وينظر فى المرآة، ويسوى عمامته، ويلبس بطانة الثـوب الخـشنة إلى الداخل، وظهـارته الحـسنة إلى الخـارج، وليس فى شىء من هذا ما يكره أو يذم»(١).

وقد روى مكحول رضي الله عنه عن عـائشة – أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان نفر من أصحـاب رسـول الله ينتظـرونه على البـاب، فـخـرج يريدهم- وفـى الدار ركوة ماء، فجعل ينظر فى الماء ويسوى لحيته وشعره.

فقلت: يا رسول الله وأنت تفعل هذا..؟

قـال: نعم. إذا خـرج الرجل إلى إخوانه فليهئ من نفسـه، فإن الله جـمـيل يحب الجمال(٢).

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثال ذرة من كبر».

فـقـال رجل: يا رسـول الله. إن الـرجل يحب أن يكون ثوبه حـسناً ونعله حسنة قال عليه السلام:

«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٣).

(١) راجع تفسير الإمام القرطبى.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى اللباس ٢٦ والترمذى فى كتاب البر ٦٠ وأحمد بن حنبل فى المسند ١: ٣٨٥، ٤٢٧ (حلبى).

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى اللباس ٢٦ والترمذى فى كتاب البر ٦٠ وأحمد بن حنبل فى المسند ١: ٣٨٥، ٤٢٧ (حلبى).

وإذا كان ذلك كذلك فقد دلت الآية على أن المرء عليه أن يلبس الجميل من الثياب، وأن يتجمل بها- وخصوصاً فى أماكن العبادة، وأيضاً عند لقاء الناس وزيارة الإخوان.

قال أبو العالية:

كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا.

وقد اشترى تميم الدارى حلة «ثوب» بألف درهم، كان يصلى فيها، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد.

وكان ثوب الإمام أحمد بن حنبل يشترى بنحو دينار.

أين هذا ممن يؤثرون الخشن من الثياب، والمرقعات من الأردية، ويقولون: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(١).

أترى أن من تجملوا بالثياب، وظهروا بالمظهر الذى يليق بالمسلم- تركوا لباس التقوى..؟ أترى أن ثيابهم النظيفة، وزيهم الجميل قد حال بينهم وبين أداء التكاليف الشرعية التى فرضها الله عليهم..؟

إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

ويقول آمراً عبده:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٢).

والتحدث بنعمة الله إظهارها فى غير فخر ولا خيلاء، فيكون ذلك صورة من صور الشكر للمنعم.

قال خالد بن شوذب: شهدت الحسن وأتاه فرقد فأخذه الحسن بكسائه فمده إليه وقال: يا فريقد يا ابن أم فريقد: إن البر ليس فى هذا الكساء الخشن إنما البر ما وقر فى الصدر وصدقه العمل.

ودخل محمد ابن أخى معروف الكرخى على أبى الحسن بن سيار وعليه

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٦.   (٢) سورة الضحى آية رقم ١١.

جبة خشنة فقال له أبو الحسن:

«يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك..؟ صوف قلبك والبس الفوهى على الفوهى.

هذا بالنسبة للرجال أما بالنسبة للنساء، فالزينة من ألزم لوازم المرأة وكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة، والزينة، وإن كانت تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها فى الفطرة واحد، وهو الرغبة فى تحصيل الجمال أو استكماله وإظهاره للرجال.

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة، ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها المحارم المذكورون فى قوله تعالى:

﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾(١).

نقول: بأن الإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية لدى الأنثى، ولكنه ينظمها ويضبطها: فيحرم عليها أن تظهر من زينتها لغير المحارم.

يقول الله تعالى:

﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(٢).

والمؤمنات اللواتى تلقين هذا النهى وقلوبهن مشرقة بنور الله لم يتلكأن فى الطاعة على الرغم من رغبتهن الفطرية فى الظهور بالزينة والجمال.

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة قالت: فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها:

(١) سورة النور آية رقم ٣١.
(٢) سورة النور آية رقم ٣١.

«إن لنساء قريش لفضلا، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل منهن لما نزلت فى سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه. فأصبحن وراء رسول الله ﷺ - معتجرات- كأن على رؤوسهن الغربان»(١).

لقد رفع الإسلام ذوق أبنائه فلم يعد الطابع الحيوانى للجمال هو المستحب بل الطابع الإنسانى المهذب، وجمال الكشف الجسدى جمال حيوانى يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان، فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف الذى يرفع الذوق الجمالى ويجعله لائقاً بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة فى الحس والجمال.

والإسلام الذى كرم المرأة بالحجاب وصنعها على عينه ليس بدعاً فى الديانات السماوية، فمن يقرأ كتب العهد القديم والأناجيل يجد الحجاب كان مأموراً به بين العبرانيين من عهد إبراهيم ﵇ وظل معروفاً بينهم ففى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن «رفقه» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى..؟

قال العبد: هو سيدى فأخذت البرقع وتغطت.

وفى الأصحاح الثالث من سفر أشعيا: أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخيلهن بأن ينزع عنهن زينة الخلاخيل والضفائر والحلق والأساور والبراقع والعصائب.

ويقول بولس الرسول فى رسالة «كورنثوس» الأول:

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى مناقب الأنصار والبخارى فى التفسير سورة ٢٩: ١٢.

«إن النقاب شرف المرأة».

ويرى الأستاذ السطوحى: أن المحاور الرئيسية فى فلسفة الحجاب هى:

أ- تطهير الوسط الاجتماعى من كل محركات الشهوة.

ب- أن تكون العلاقات الجنسية فى دائرة الزواج ليس غير.

ج- أن تكون دائرة عمل الرجل منفصلة عن دائرة عمل المرأة.

د- القوامة فى الأسرة تكون للرجال لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (٢).

يقول صاحب الظلال: «وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعلاتها واستجابتها فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى فى إثارة الشهوات من العيان، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها أو حليها أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته. كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر فى خيالهم أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم. كما أن كثيرين يثيرهم وسوسة الحلى أو شمام ذى العطر.. ويهيج أعصابهم».

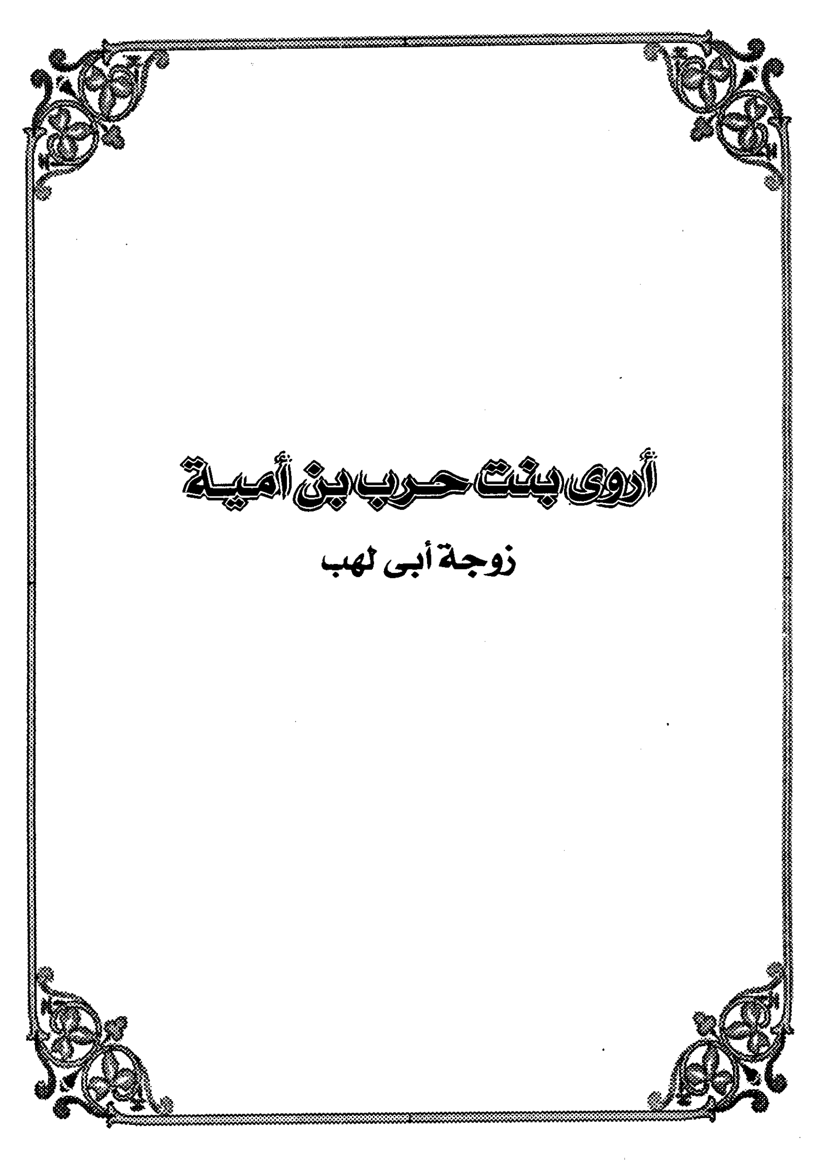
ومن هنا كان قول الرسول ﷺ: «أيما امرأة استعطرت فخرجت على قوم يجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية».

يقول الإمام القرطبى: أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين إلا ما استثناه من الناظرين فى الآية حذاراً من الافتتان ثم استثنى ما يظهر من الزينة.

وقال ابن خويز منداد من المالكية:

إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك، فإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها.

(١) سورة النساء آية رقم ٣٤. (٢) سورة النور آية رقم ٣١.



أروى بنت حرب بن أمية

زوجة أبى لهب


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾.

(سور المسد كاملة)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه السورة فى أبى لهب وزوجه.

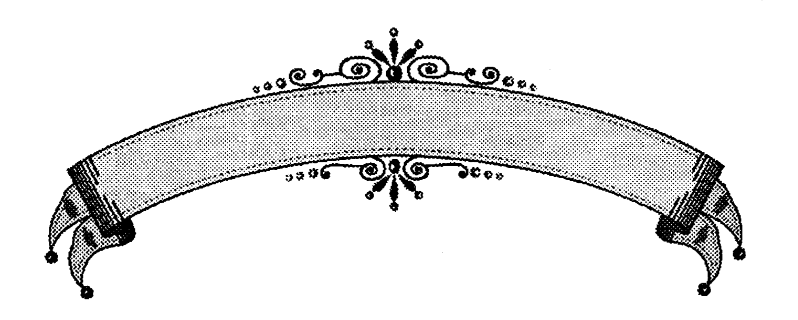
قال ذلك الإمام القرطبى فى التفسير ١٠: ٢٣٤- ٢٣٥، ٢٣٦.

وقاله الإمام الطبرى فى التفسير ٣٠: ٣٣٦- ٣٣٧- ٣٣٨.

وقاله ابن كثير فى التفسير ٤: ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥.

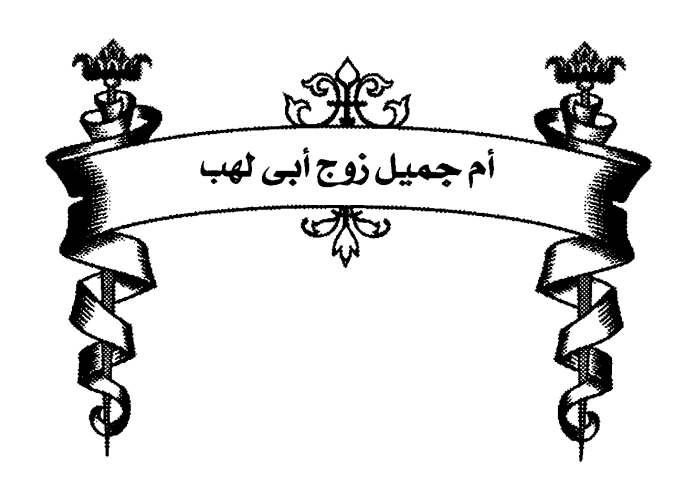
وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ٩: ٢٥٨، ٢٥٩.

فمن هى زوج أبى لهب..؟

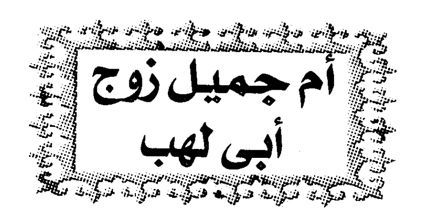


ام جميل: قال ابن العربى: العوراء أم قبيح
وكانت عوراء وتمشى بالنميمة والوشاية بين الناس
قال الشاعر:

إن بنى الأدرم حمالوا الحطب
هم الوشاة فى الرضا وفى الغضب
عليهم اللعنة تترى والحرب



أم جميل زوج أبى لهب



حياتها ونشأتها

هى أروى بنت حرب بن أمية.

والدها: حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف من سادات العرب وفرسانها ومن أهل الرأى والمشورة والحكمة فيها.

وزوجها: أبو لهب واسمه عبد العزى، وهو ابن عبد المطلب عم النبى ﷺ وكان أشد المناوئين والمحاربين لدعوة الإسلام.

وولداها: عتبة ومعتب تزوج الأول رقية ابنة الرسول ﷺ وتزوج الثانى أم كلثوم بنت الرسول ﷺ فلما كانت دعوة الرسول ﷺ ونزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جلست أم جميل توغر صدريهما وتدفعهما دفعاً إلى طلاق ابنتى رسول الله ﷺ ورضخ الابنان للرغبة الشريرة لأمهما.

ويقال إن عتبة مضى إلى رسول الله ﷺ وقد امتلأت نفسه بالحقد الذى سكبته أمه فيهما ليقول له: طلقت ابنتك وناوأت دينك ومضى فى سفاهته أمام رسول الله ﷺ.

فدعا رسول الله ﷺ قائلاً:

«اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فافترسه أسد فى رحلة له إلى الشام..؟؟»

وأخوها صخر بن حرب (أبو سفيان) القرشى الأموى، أعطاه الرسول ﷺ يوم فتح مكة، مائة بعير وأربعين أوقية من الذهب.

فقال أبو سفيان: والله يا رسول الله إنك لكريم فداك أبى وأمى، ولقد حاربتك نعم المحارب، ولقد سالمتك يا رسول الله فنعم المسالم أنت. جزاك الله خيراً.

وابنة أخيها رملة بنت أبى سفيان، زوج النبى ﷺ أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى أرض الحبشة، وهناك تنصر زوجها. فماذا تفعل رملة فى ديار الغربة؟ أغلقت الباب على نفسها فى عزلة قاتلة.

وفى ذات يوم قرع بابها الموصد، ودخلت عليها جارية النجاشى لتنقل إليها خطبة الرسول ﷺ لها.

وفى ذات يوم فوجئت رملة بأبيها يدخل بيتها فى المدينة فجأة، وكانت لم تره منذ هجرتها إلى الحبشة. وكان أبو سفيان مرسلاً من مكة للتفاوض مع محمد ﷺ فعرج على ابنته ليراها.. ووقفت رملة تجاهه غارقة فى الحيرة والقلق، ولم يخرج من صدرها صوت.

فأعفاها والدها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، لكنه فوجئ عندما رأى ابنته قد وثبت على الفراش فأخذته من تحته وطوته وألقت به بعيداً.

فسألها أبو سفيان حائراً: يا بنية والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى..؟

قالت رملة: بل هو فراش رسول الله. وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه.

فقال مرتجفاً و.. ثم يعصر قلبه من المرارة: لقد أصابك بعدى يا بنية شر كثير، ثم اندفع خارج البيت غاضباً.

وابن أخيها معاوية بن أبى سفيان- أحد كتاب الوحى- للرسول ﷺ وولاه عمر بن الخطاب ولاية الشام بعد موت أخيه يزيد بن أبى سفيان ثم ذهب عمر إلى الشام ليتفقد أحوال الرعية. فتلقاه معاوية فى موكب عظيم، فلما دنا منه قال له:

أنت صاحب الموكب العظيم..؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟

قال: مع ما يبلغك من ذلك.

قال: ولم تفعل هذا؟

قال معاوية يا أمير المؤمنين نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به. فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت..؟؟

قال عمر:

ما أسألك عن شىء إلا وجدت له مخرجاً، فإن كان ما قلت حقّاً فهو رأى أريب، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب..؟؟

قال: فمرنى يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لا آمرك ولا أنهاك.

إن أروى بنت حرب من بيت حسب ونسب وزوج عم النبى ﷺ وهناك مصاهرة مباشرة بينها وبين محمد قبل بعثته حيث تزوج ولداها ابنتى محمد بن عبد الله- وهما يتجاوران فى السكن.. وإذا كان الأمر كذلك فما سر العداوة بينهما، ومتى بدأت، وما أسبابها..؟ ولماذا تفاقمت حتى وصلت إلى القطيعة وشن الحرب الكلامية فى كل وقت وحين؟ ويرد القرآن الكريم على تلك الحرب التى لا تتوقف بسورة من القرآن الكريم.

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تقول: لقد تتابع الوحى على الرسول ﷺ ونزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(١).

قال رسول الله ﷺ، عرفت أنى إن بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره فصمت.

فجاءنى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك.

قال على بن أبى طالب- رضي الله عنه - فدعانى رسول الله فقال: يا على: إن الله تعالى قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام وأعدَّ لنا شوب لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال: كلوا بسم الله.

فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ اسقهم يا على، فجاء بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وايم الله إن كان الرجل منهم يشرب مثله.

ثم قال رسول الله يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون آخى كذا وكذا وكذا.

قال على بن أبى طالب: فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت- وإنى لأحدثهم سناً وأمرضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأخمشهم ساقاً: أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه.

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢١٤.

فأخذ بيدى ثم قال: إن هذا أخى فاسمعوا له وأطيعوا.

ثم خرج القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

ثم عاد أبو لهب وقال: ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد..؟

فقال: كما يعطى المسلمون.

قال: ما لى عليهم فضل..؟

قال: وأى شىء تبغى..؟

فخرج مغضباً وبيّت أمراً.

محمد ﷺ يدعو قومه إلى الإسلام

وذات صباح استيقظت أم جميل وزوجها أبو لهب على صوت يهتف يا صبحاه. يا صبحاة.

قالت أم جميل: يا عبد العزى من صاحب هذا الصوت الذى يدعو الناس فى الصباح حتى يتجمعوا إليه..؟

ولكن عبد العزى أخذ يتقلب فى فراشه غير مصغ لسؤال زوجته..؟

فما كان من أم جميل إلا أن كررت السؤال مرة أخرى علَّ زوجها يجيبها إلى ما طلبت وذلك لكى يرضى تطلعها إلى معرفة هذا المنادى ولكن الرجل كانت آثار النوم لا زالت تشده إلى فراشه فنهرها قائلاً وما شأنى بمن يصيح فى هذه الساعة المبكرة.

ولكن إلحاح المرأة أطار النوم من عينيه فأخذ يرهف أذنيه حتى يمكنه أن يميز صوت الذى يصيح وينادى.

ثم قطب بين حاجبيه متذكراً من صاحب هذا الصوت يا ترى؟

ولم تمض غير لحظة حتى قال لها: إنه صوت محمد ابن أخيه. فهب مسرعاً وهو يقول لابد أن محمداً يدعونا لأمر.

وردت أم جميل على ذلك قائلة: ولعل فى دعوته هذه خيراً يكون لنا منه النصيب الأوفر.

خرج أبو لهب مسرعاً واتجه إلى الصفا حيث ينبعث الصوت فوجد محمداً واقفاً وهو يقول: يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطب- فاجتمعوا إليه.

فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ..؟

قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قط.

قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبّاً لك أما جمعتنا إلا لهذا.

إن أبا لهب تصور أن ما جاء به محمد هو الرئاسة والملك، فكيف يسبقه محمد إليها، وهو أحق بالأمر منه.

ولو وافق أبو لهب على أن يكون محمد هو صاحب الملك والصولجان ويضع يده على مقاليد البيت الحرام، وتقدم له القرابين والنذور وكل ما يأتى به العرب وغيرهم إلى هذا البيت فمحال أن يرضى هذا أم جميل. إنها امرأة يأكل الحقد قلبها فكيف توافق على ذلك إن هذا الأمر أحق الناس به- فى رأيها- زوجها عبد العزى، فإن تنازل عنه يكون من حق ولديها معتب وعتبة.

زوجة أبى لهب تعلن الحرب على محمد

وما كاد أبو لهب يعود إلى الدار ويخبرها أن محمداً هو الذى كان يصيح ويطلب المبايعة من قومها حتى يضع على رأسه التاج والصولجان حتى جن جنون المرأة وتحولت إلى شيطان رجيم.

تشيع الشائعات الباطلة ضد محمد، وتتهمه بكل نقيصة، وتحاول أن تؤذيه فى نفسه، وفى كل ما يحيط به، أو يكون قريباً منه، كما فعلت مع ابنتيه- رضوان الله عليهما . وكانت تتبع الأساليب الشيطانية مع أتباع الرسول ﷺ حتى ينفضوا من حوله، وتغرى زوجها بأن يتقول عليه الأقاويل ليصد الناس عن دعوته .

أبو لهب يصرف الوفود عن لقاء محمد

يقول عبد الرحمن بن كيسان- رضي الله عنه :

«كان إذا وفد على النبى ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لهب فيسألونه عن رسول الله ﷺ. ويقولون له أنت عمه وصنو أبيه وأعلم به منا..؟؟ فيحقره ويكذبه.

وإذا جاء وفد آخر يقول لهم أبو لهب مثل ما قال للوفد الأول ولكن أفراد الوفد قالوا لا ننصرف حتى نرى محمداً ونسمع كلامه. فقال أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه ولا نسمح له بالمقابلة حتى يشفى تماماً..؟؟

وأخبر الرسول ﷺ بما تقوله أبو لهب فاكتأب لذلك فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1] السورة كاملة.

فلما سمعت امرأته ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر- رضي الله عنه - وفى يدها حجر، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر.؟؟

(١) سورة المسد آية رقم ١.

فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه. والله إنى لشاعرة: ثم قالت:

مـــذمماً عـــصـــينا

وأمـــــــــــره أبـــيـــنـــا

وديـــنـــه قـــلـــيـــنـــا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك..؟

قال: ما رأتنى، لقد أخذ الله بصرها عنى.

لقد أخذ الله بصرها، وعما قريب سيأخذ الله تعالى روحها بالكامل حتى تنال العقاب الأليم جزاء ما اقترفته فى حق رسوله الكريم، ومشيها بالنميمة بين الناس لتأجج الخصومة بينهم. تمشى بالنميمة التى يقول عنها الرسول ﷺ.

«النميمة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» ولذلك وصفها القرآن الكريم بـ «حمالة الحطب» وقال عليه السلام:

«ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً».

وقال سعيد بن حبير: «حمالة الحطب» أى حمالة الخطايا والذنوب من قولهم: فلان يحتطب على ظهره. دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾(١).

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبى قول النبى ﷺ: «لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يربى».

فقلت يا أبا عمرو: قرن النمام بالقاتل وآكل الربا..؟

فقال: وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال وتهيج الأمور العظام إلا من أجل النميمة؟؟

(١) سورة الأنعام آية رقم ٣١.

وسئل الحسن عن قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾(١)

وقوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾(٢).

هل كان ذلك فى أم الكتاب، وهل يستطيع أبو لهب وزوجه ألا يصليا فى النار..؟

فقال: والله ما فى استطاعتهم الخلاص من النار، وأن ما ذكره الله تعالى فى كتابه لهو فى أم الكتاب من قبل أن يخلق أبو لهب وزوجه ويؤيده قول موسى عليه السلام لآدم:

«أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة..؟

قال آدم:

وأنت يا موسى الذى اصطفاك الله بكلامه، وأعطاك التوراة تلومنى على أمر كتبه الله علىَّ قبل أن يخلق السموات والأرض..؟؟

قال النبى ﷺ: فحج آدم موسى»(٣).

(١) سورة المسد آية رقم ٣. (٢) سورة المسد آية رقم ٥.

(٣) الحديث رواه البخارى ومسلم والترمذى.

أم جميل أسطورة الحقد ومنبعه

لقد كانت أم جميل أسطورة الحقد ومنبعه وكان يتمثل ذلك فى أخذ الشوك الذى تجمعه من الصحراء وتضعه فى طريق الرسول ﷺ وكلما فعلت ذلك تحس بسعادة غامرة، تلف كل كيانها. وكانت هذه السعادة تدفعها للاستيقاظ مبكرة حتى تجمع الشوك وتضعه أمام باب محمد قبل خروجه للذهاب إلى بيت الله الحرام.

ولكن فى هذا اليوم ماذا جرى لها إنها لا تستطيع الحركة، إن جسمها يكاد يكون محملاً بالحجارة فهو ثقيل عليها لا تستطيع أن تنهض من ثقله، ولكن لا بأس لقد أخذت تقاوم وتشد من عزمها ويغريها شيطانها بالنهوض لجمع الشوك وإيذاء محمد.. ولقد أرادت أمراً وأراد الله سبحانه وتعالى أمراً آخر. فانكفأت على وجهها على الشوك الذى جمعته فأدمى وجهها وجسمها ولفظت أنفاسها الأخيرة، وذهبت إلى ربها وخالقها لتنال جزاء ما فعلت من إيذاء لرسوله لا ينتهى، وشر لأتباعه لا يتوقف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(١).

وعاش الرسول ﷺ بعد أن أخذ الله أعداء دينه أخذ عزيز مقتدر. لإبلاغ الأمانة، وإتمام الرسالة حتى دخل الناس جميعاً فى دين الله أفواجاً ونزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٢).

فأين أم جميل الحاقدة..؟ وأين كيدها الضعيف؟ وأين أبو لهب..؟ وأين الذين توعدهم الله تعالى بأنهم حصب جهنم..؟ لقد ذهب الجميع وبقى دين الله وشرعه ترفرف أعلامه وبنوده فوق أركان الأرض الأربعة، حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(٣).

(١) سورة الفجر آية رقم ١٤.
(٢) سورة المائدة آية رقم ٣.
(٣) سورة الطلاق آية رقم ٣.



تذييل

المرأة وقيامها برسالة الشيطان

المرأة وقيامها برسالة الشيطان

المرأة من يوم أن أوجدها الله تعالى على ظهر البسيطة، وهى الأم الحنون لأبنائها، والزوجة الودود لزوجها، والأخت العطوفة لإخوتها.

ويشهد التاريخ أن دورها عبر قنواته كان هو الدور المشارك فى تبعات الحياة حلوها ومرها، وما كان يمكن للحياة أن تمتد وتستقر عبر القرون المتتابعة من عمر الكرة الأرضية بدون النساء، الحاملات للأجنة، الحاضنات للطفولة، الصانعات للبطولة.

ولكن قلة قليلة من هؤلاء النسوة كن يحملن رسالة الشيطان وينفذن أوامره، ويحملن معه معول الهدم لتدمير كل ما هو نافع وجميل ويحدثنا القرآن الكريم عن مجموعة من النسوة أتباع الشيطان ولقد كانت اثنتان منهن زوجتين لنبيين قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١).

لقد كان نوح عليه السلام رسولاً نبيّاً يدعو لعبادة الواحد الأحد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٢).

ولكن زوجته كانت تعمل ضد دعوته، وتدفع الآخرين لمحاربته ، وتدعو الجبارين من قومها للتنكيل بمن اتبع رسالة زوجها وترك عبادة الأصنام وتسخر من زوجها ومعها الملأ من قومها، وهو يصنع سفينة النجاة لمن آمن به

(١) سورة التحريم آية رقم ١٠.　　(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٩.

واتبع رسالته. قال تعالى:

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾(١).

وسخر المؤمنون من الكافرين الذين لم يؤمنوا برسالة نوح عليه السلام ومعهم ابنه وزوجته. قال تعالى:

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(٢).

وامرأة لوط عليه السلام كفرت برسالة زوجها وتمردت على خالقها وتابعت قومها وهم يأتون الفاحشة، وكانت جاسوساً ضد المؤمنين لهؤلاء الذين يتسمعون لأخبارها وهم يجلسون فى ناديهم لفعل الموبقات قال الله تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).

ونزل عذاب الله بزوج لوط عليه السلام قال تعالى:

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾(٤).

وزوجة أبى لهب (أم جميل) التى وصمها القرآن بوصمة الشرك والكفر ووصفها بالمشى بالنميمة للتفريق بين الناس، وادعت على الرسول ﷺ ما لم يكن يقله أو يفعله، واتهمته هى وزوجها بالسحر والجنون وآذت رسول الله ﷺ بتطليق بنتيه من ابنيها، وأغرت زوجها بمحاربة دعوة الرسول إلى آخر رمق من حياتهما قال تعالى:

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾(٥).

(١) سورة هود آية رقم ٣٨.
(٢) سورة هود آية رقم ٤٣.
(٣) سورة العنكبوت الآيتان ٢٨- ٢٩.
(٤) سورة الشعراء الآيات ١٧٠- ١٧٢.
(٥) سورة المسد الآيتان ٤- ٥.

وفى زمن عيسى عليه السلام روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا عليهما السلام فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس الدين ويفقونهم فى شرع ربهم، وكان يحيى محبوباً عند ملك إسرائيل فكان يكرمه ويدنيه من مجلسه، ويستشيره فى أمره، ولا يقطع أمراً دونه، وأن هذا الملك رغب أن يتزوج ابنة زوجته. فسأل يحيى عن ذلك فنهاه عن نكاحها.

وقال: لست أرضاها لك.

فبلغ ما قاله يحيى أم الفتاة، فحقدت على يحيى حين نهى الملك أن يتزوج ابنتها، فعمدت إلى ابنتها حين جلس الملك على شرابه، فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً، وطيبتها، وألبستها من الحلى الشىء الكثير، وجعلتها عروساً مجلوة، ثم أرسلتها إلى الملك، وأمرت أن تسقيه، وأن تتعرض له فإن أرادها على نفسها أبت عليه، حتى يعطيها ما تطلب، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يؤتى لها برأس يحيى بن زكريا..؟؟

وحفظت الفتاة الدرس جيداً وأخذت تسقيه وتعرض له، فلما أخذ فيه الشراب أرادها على نفسها.

فقالت: لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك..؟

قال: ما تسألينى..؟

كيد المرأة وقتل زكريا عليه السلام

قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا. فأتنى برأسه فى هذا الطست.

فقال: ويحك سلينى غير هذا..؟

قالت: ما أريد أن أسألك إلا هذا.

قال: فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه، والرأس يتكلم، حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا تحل لك، لا تحل لك.

فلما أصبح إذا دمه يغلى، فأمر بتراب فألقى عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلى، فألقى عليه التراب أيضاً، فارتفع الدم فوقه، فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى. حتى جاء بختنصر وقتل مقتلة عظيمة عندها حتى سكن الدم فكف يده عن القتل لأن الله عز وجل إذا قتل نبى من الأنبياء لم يرض حتى يقتل من قتله، ومن رضى بقتله. قال الله تعالى فى بنى إسرائيل(١):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٢).

وإذا كانت هذه المرأة الكافرة أغرت عدو الله الملك بقتل نبى من أنبيائه فعاقبه الله تعالى بسلب ملكه وخراب دولته. فلقد كانت امرأة أخرى فى عصر سابق على هذا العصر، عصر موسى عليه السلام وكانت تزاول الخنا والفجور وكان يجاور موسى قريب له كفر بنعمة الله وتطاول على خلقه، وآذى موسى وهو الذى ذكره القرآن قال تعالى:

(١) تاريخ الطبرى ١: ٥٨٩- ٥٩٠.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٢.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(١).

قارون وحقده على موسى عليه السلام

هذا الرجل الذى أعطاه الله كل شىء كان قلبه يمتلئ حقداً على موسى عليه السلام فيلجأ إلى الخديعة والمكر ليشوه بهما حياة موسى حتى ينفض أتباعه عنه فلجأ إلى هذه المرأة وقال لها:

هل لك أن أمولك وأعطيك وأخلطك بنسائى على أن تأتينى والملأ من بنى إسرائيل عندى فتقولى: «يا قارون ألا تنهى عنى موسى...»؟

قالت: بلى!!

فلما جلس قارون وجاءه الملأ من بنى إسرائيل أرسل إليها فجاءت وقامت بين يديه، فقلب الله قلبها، وأحدث لها توبة.

فقالت فى نفسها: لا أجد اليوم توبة أفضل من ألا أوذى رسول الله وأعذِّب عدو الله فقالت:

«إن قارون قال لى: هل لكِ أن أمولكِ وأعطيكِ وأخلطكِ بنسائى على أن تأتيى والملأ من بنى إسرائيل عندى فتقولى: يا قارون ألا تنهى عنى موسى، فلم أجد توبة أفضل من ألا أوذى رسول الله، وأعذِّب عدو الله.

فلما تكلمت بهذا الكلام أسقط فى يدى قارون ونكس رأسه وسكت عن الملأ وعرف أنه قد وقع فى هلكة، فشاع كلامها فى الناس، حتى بلغ موسى، فاشتد غضب موسى فتوضأ من الماء وصلى وبكى. وقال: «يارب عدوك لى مؤذ أراد فضيحتى وشيْنى، يارب سلطنى عليه فأوحى الله إليه أن مُرِّ الأرض بما شئت تطعك..؟؟

(١) سورة القصص الآيتان ٧٦- ٧٧.

انتقام موسى من قارون

فجاء موسى إلى قارون، فلما دخل عليه عرف الشر فى وجه موسى له.

فقال له: يا موسى ارحمنى..؟؟

قال موسى: يا أرض خذيهم..

قال: فاضطربت داره وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعبين وجعل قارون يقول: يا موسى ارحمنى.

قال موسى:

يا أرض خذيهم (١).

فخسف به وبداره وأصحابه قال الله تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

ونتساءل كم فى عصرنا الراهن أمثال زوجة نوح وزوجة لوط لا يستمعون لكتاب الله ولا يكن لهن فيه عظة وعبرة..؟

وكم من مجتمعاتنا المعاصرة أمثال زوجة أبى لهب التى تؤذى جيرانها وتمشى بالنميمة بينهم، وتقطع صلات الرحم، وتعيث فى الأرض فساداً إنهن كُثُرٌ يستعصين على الحصر والعد.

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ١: ٤٤٩- ٤٥٠ بتصرف.

(٢) القصص آية رقم ٨١- ٨٣.

وكم فى مجتمعاتنا التى تدعى الرقى والتمدن أمثال هذه المرأة التى كانت أول أمرها تأتى الخنا والفجور ثم أراد الله توبتها:

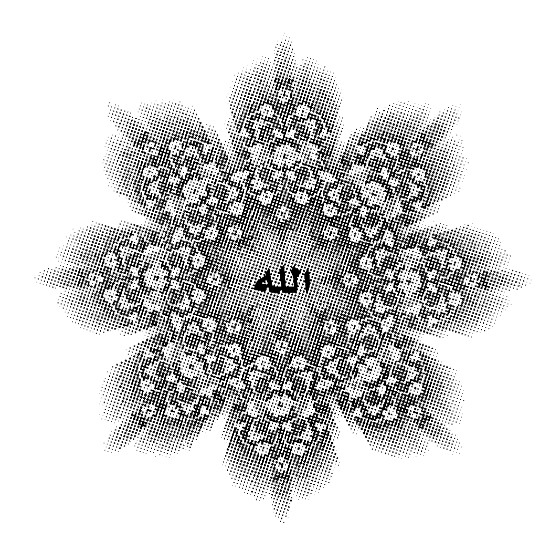
﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾(١).

فقالت كلمة حق ونطق لسانها بالصدق وبرأت ساحة النبى- فذكرها التاريخ فى كتبه وأسكنها الله فسيح جناته..؟

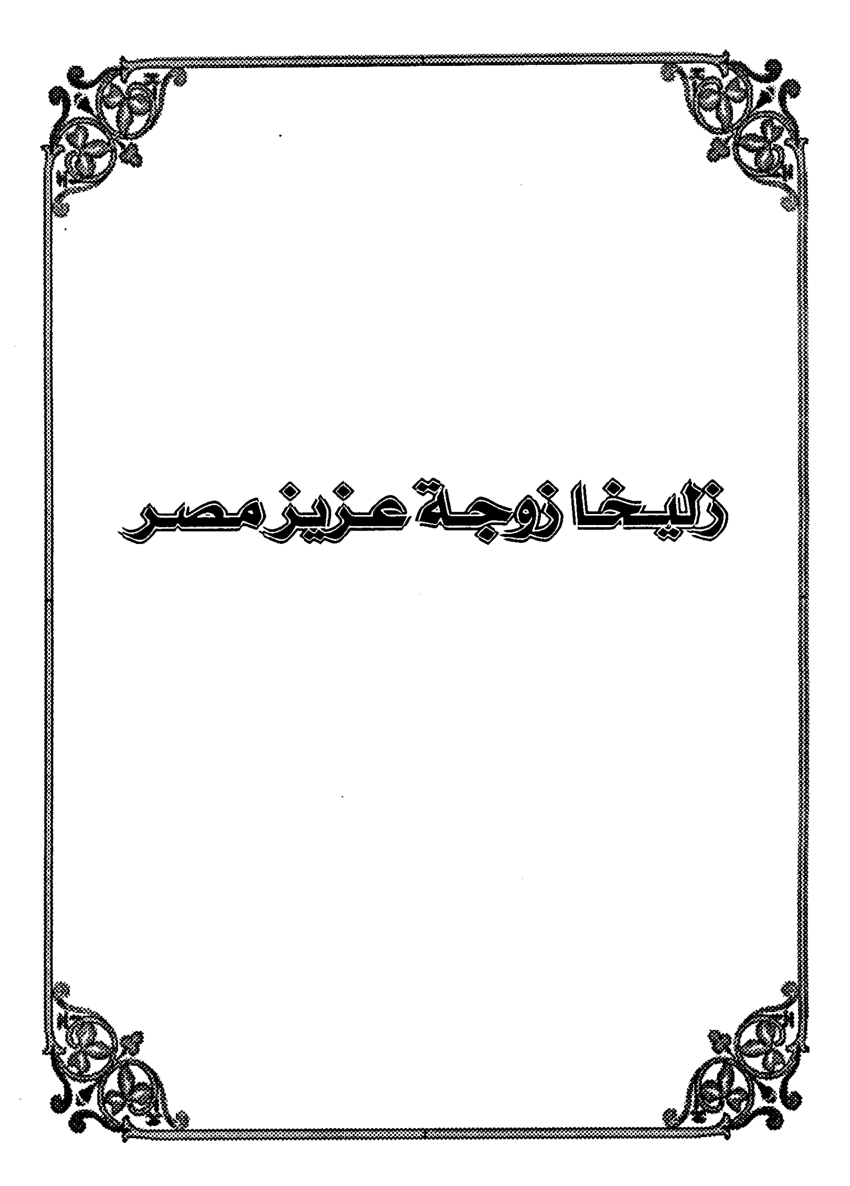
فمتى تتوب بعض نسائنا عن معصية الله، ويتركن الخنا والفجور ثم يعدن إلى ساحة الإيمان ويستجبن لنداء الله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾.

فمتى نفر إليه..؟ ومتى نلجأ إليه. ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا متى يا رب إنا لمنتظرون.

عندها يفرح المؤمنون والمؤمنات بنصر الله وعودة المجتمع المسلم الملتزم بتعاليم ربه إلى دنيا الناس.



(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨.



زليخا زوجة عزيز مصر


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتى هُوَ فى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِه وَغَلَّقَت الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّه إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِه وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّه كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. (يوسف: ٢٣- ٢٤)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات فى «زليخا» امرأة عزيز مصر.

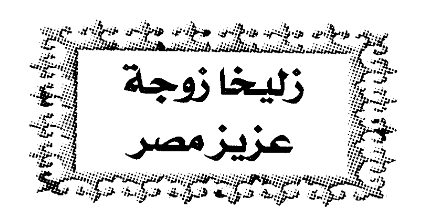
قال ذلك الإمام القرطبى.

وقاله الإمام ابن كثير فى التفسير.

وقاله ابن جرير الطبرى فى التفسير.

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير.

فمن هى «زليخا» امرأة عزيز مصر..؟



حياتها ونشأتها

زليخا زوجة العزيز- عزيز مصر- تلك الفتاة الجميلة، ذات القوام المشوق، وصاحبة الصدر الناهد، والعيون النجل، والخصر الضامر زينة الزوجات فى الطبقة «الأرستقراطية» فى دولة فرعون المعظم.

لماذا يصمت التاريخ صمتاً مريباً عن ذكر أيام طفولتها، وفوران شبابها وسعادة دنياها، وهى تخطو إلى عرش الأنوثة..؟

ولماذا يترك التاريخ هؤلاء الذين يريدون تجلية هذه السيرة وتوضحيها فى حيرة من أمرهم يتساءلون ولا مجيب، ويبحثون وينقبون وتعود أيديهم فى النهاية، وهى ملأى بالسراب والوهم.

ونقول هل عاشت هذه الفتاة فى عاصمة الملك «منف» وفتحت عيونها على جمال الطبيعة فيها، وهل تسمعت أذناها وشوشة مياه النيل وهى تنساب نحو الشمال فى سهولة ويسر..؟

وهل فتحت نوافذ صدرها للنسمات الرخية التى تهب فى فصل الخريف وتداعب أشجار الصفصاف العالية، وتلامس أوراق الورود المتفتحة، وتعيد ترديد شقشقة العصافير، وتغريد البلابل؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك فأين عاشت..؟

وأين تعرف عليها العزيز الوزير..؟ ثم اختارها لتكون زوجة له وشريكة لحياته.

هل كان والدها أحد رجالات الدولة، وكان التقارب بينهما قائماً ؟

وإذا كان ذلك كذلك هل كانت الفتاة تخالس العزيز النظر وتبادله الابتسامة.

وهل كان العزيز يتابعها بنظراته حتى تغيب عنه..؟

أم أن كل ذلك لم يكن، وخصوصاً فى تلك البيئة المحافظة.

وإذا لم يكن ذلك كذلك هل تمت الخطبة وأجريت مراسيم الزفاف فى الاتفاق بين الأمهات ورجال الأسرتين.

عزيز مصر يقدم لزوجته الفتى يوسف

إن التاريخ لا يذكرها فى تلك الحياة الأولى مطلقاً ويكاد يكون أول لقاء بينها وبين سجلات التاريخ الواعية التى لا تنسى، عندما دخل عليها زوجها فى يوم ليس كمثله يوم وهو يمسك بيده فتًى جميل الصورة، هادئ الطبع، واضح القسمات، فيه رجولة مبكرة وإيمان فطرى، ويسلمه لها قائلاً:

﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(١).

من هذا الفتى الذى نفذ حبه إلى قلب الزوجة التى تتطلع إلى أن يكون لها ولد يملأ حياتها بهجة وبهاء.؟

إنه الفتى يوسف بن يعقوب من بيت النبوة والرسالة، حقد عليه إخوته، لأنه كان أكثرهم حبّاً فى قلب أبيه، فألقوه فى جب فيه ماء وعثرت عليه قافلة، فجاءوا به إلى مصر فابتاعه منهم عزيزها، وقدمه إلى زوجته، عسى أن ينفعهم فى شئون حياتهم، أو يكون لهم ابناً بالتبنى، فيعوضهم عن حرمانهم من إنجاب البنين والبنات، هذا إذا تحققت فيه مخايل النجابة، وطيبة القلب والوسامة.

لقد أراد إخوة يوسف أمراً، وأراد الله له أمراً آخر، والله غالب على

(١) سورة يوسف آية رقم ٢١.

أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لا يعلمون أن سنة الله ماضية، وأن أمره هو الذى يكون.

لقد نجاه الله من الجب ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾(١)

فإذا بلغ رشده، وكمل عقله أعطاه الله حكماً وعلماً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهدأ يوسف بالاً واستراح فكراً وعاش فى قصر العزيز محبوباً ومكرماً. وتوالت السنون ومرت الأيام وأصبح يوسف الرجل الغنى والشاب القوى.

وكانت امرأة العزيز تخالسه النظر وتتأمل رجولته وشبابه.

وتقدم له أطايب الطعام وتخصه بأعذب الألفاظ وألين الكلمات.

لقد ملك هذا الشاب كل ذرة من ذرات جسمها، وقلب كيانها رأساً على عقب فلماذا لا يكون لها..؟

فكان إذا أرخى الليل سدوله، وذهب كل من فى القصر فى نوم عميق تركت فراشها بجوار زوجها الذى راح فى سبات عميق وتتسلل إلى غرفة يوسف الموصدة عليه، وتقف أمام بابها حائرة مترددة، وتراود نفسها أتدخل إليه أم تعود من حيث أتت؟ وتظل على هذا الحال مقدمة ومحجمة حتى تغمرها تباشير الفجر الوليد.

فإذا جاء النهار والتقت عيناها بعينى يوسف أحست برغبة جامحة فى أن تضمه بين ذراعيها والهة مشتاقة، ولا يفلت من يديها حتى تعوض حرمان السنين التى عاشتها.

(١) سورة يوسف آية ٦.

هل يوسف أحب زليخاء..؟

وكان السؤال الذى يلح عليها من داخلها، ولا تجد له جواباً.

هل يوسف يحبها كما تحبه؟

وهل يحس بأحاسيسها التى ترتسم فى عينيها، وتكشف عما فى داخلها؟

وهل ينشغل فكره بها ولو للحظات كما هى مشغولة به فى كل أوقاتها..؟

وفى ليلة مقمرة صافية، ونسمات حلوة تدغدغ أعطافها، وتداعب خصلات شعرها، برح بها الجوى، وأقلقها الشوق والحنين إلى رؤية يوسف، واشتعلت نار الرغبة فى كل جزئية من جزئيات جسمها المتفجر أنوثة ورغبة، فمضت مسرعة إلى خزينة ملابسها، وجالت ببصرها بين فساتينها حتى وقفت عينها على فستان أهملته من أيام الزفاف الأولى، لونه يشابه حبات الكريز الصافية الهادئة، وأعده حائكه متعمداً ليكشف عن مفاتن جسمها، ويجعلها فتنة عارية لا تقاوم ويركع أمامها أى رجل.. كل رجل.

ونظرت فى مرآتها ورسمت شفتيها باللون الأحمر الملتهب.

وصففت شعرها الأسود الناعم، وتركته حرّاً طليقاً ليداعب نهديها وينساب على ظهرها.

وسكبت على هذه الفتنة الطاغية عطراً نفاذاً لا يقاوم.

عطراً يلغى عقول الرجال ويدير رؤوسهم، ويقضى على عنصر المقاومة والعفة عندهم.

ويحول كل منهم إلى ذكر لا يرى أمامه إلا أنثى فاتنة ملتهبة يعب من الطاقة المتفجرة فى جسدها حتى الثمالة.

وعندما اكتملت زينتها توجهت إلى حجرة يوسف فوجدتها مغلقة، وقد أطفأ السراج. فطرقت عليه الباب، فهب من نومه وأشعل السراج ثم تقدم الباب ففتحه. فإذا بالفتنة الطاغية أمامه وبين يديه فدفعته فى رفق وغلقت

الباب وقالت له: «هيت لك».

ومالت عليه، ولامست صدره فابتعد عنها ولكنها تابعته وكلما حاصرته فى ركن فر إلى آخر، ولماذا يفر..؟

أهناك امرأة غيرها تسكن فى قلبه وتحول بينها وبينه؟

أكل هذا الجمال لا يحرك ساكناً عنده؟

إنه نوع جديد من الرجال إرادته صلبة وقلبه من حجر وتقدمت إليه ووضعت يدها على شعره وقالت: ما أحسن هذا الشعر وأجمله يا يوسف.

قال: هو أول شىء يتناثر من جسدى بعد موتى.

قالت: يا يوسف ما أجمل عينيك..؟

قال: هما أول شىء يسيل فى الأرض من جسدى.

قالت: ما أحسن وجهك.

قال: التراب يأكله ولا يبقى منه شىء.

قالت: لقد ذبل شبابى وضمر جسدى من جمال وجهك.

قال: الشيطان يعينك على ذلك.

قالت: يا يوسف لابد من قضاء ما جئت من أجله.

قال: وأين الفرار من غضب الله إن عصيته.

عندها استلقت على فراشه لتكشف له عن مفاتنها الأخرى وما كادت تفعل ذلك حتى فتح الباب وفر هارباً إلى خارج الحجرة وأسرعت المرأة خلفه لتعيده إلى المخدع وترغمه على ما أرادت وقد لحقت به وتعلقت بقميصه من الخلف وجذبته بقوة لتمنعه من الخروج فشق قميصه وكم كانت دهشتها عندما وجدت نفسها ويوسف وجها لوجه امام زوجها الذى عاد لتوه من الديوان ومعه ابن عم لها.

قال تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

إن المرأة الناصحة تجد الجواب حاضراً على السؤال الذى يعنيه المنظر المريب إنها تتهم الفتى:

﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.

ومع ذلك فهى تعشق الفتى، ولا يتحمل قلبها أن يناله مكروه، وإن امتنع عنها هذه المرة، فلابد أن يستجيب لها فى المرات التالية فتقترح على زوجها العقاب الهين.

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عندها يجهر يوسف بالحقيقة أمام الاتهام الباطل.

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾(٢).

ويحسم القضية ابن عم لها ويضع حلا لها.

«إن كان قميصه قد تمزق من الأمام فذلك إذن من أثر دفاعها عن نفسها وهو يريد الاعتداء عليها فهى صادقة وهو كاذب.

وإن كان قميصه قد تمزق من الخلف فهو إذن من أثر تفلته منها وتعقبها له فهى كاذبة فى دعواها وهو صادق».

(١) سورة يوسف الآيات من ٢٣- ٢٥.
(٢) سورة يوسف آية ٢٦.

عزيز مصر يعلم
أن زوجته تراود يوسف

وتمت المعاينة، وتحقق للزوج المخدوع مراودة زوجته لفتاها يوسف. فلم يثر الزوج على عرضه الذى أوشك أن ينتهب، ولم تحرك هذه الحادثة نخوته للمحافظة على شرفه.

ولا عجب فى ذلك فتلك هى حياة الطبقة التى تسمى «الأرستقراطية» طبقة القصور، تساهل فى مواجهة الفضائح الجنسية، وميلا إلى كتمانها عن المجتمع وهذا هو المهم فى الواقعة كلها.

عندها قال الزوج لزوجته كلمة ترضيها ولا تؤذيه «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم».

وإذا وصفت المرأة بالكيد والمكر اعتبرت أن هذا فخر لها ثم قال كلمة أخرى إلى يوسف البرىء:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

أى أترك هذا الأمر ولا تذكره لأحد من قريب أو بعيد، محافظة على سمعة القصر أن يخدش أحد حياء زوجته (الطاهرة) المصون وأنت أيتها المرأة الهائجة التى تراود فتاها وتريده قسراً.

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(١).

(١) سورة يوسف آية رقم: ٢٩.

الحياة فى القصور الاستقراطية

ولم يحل الزوج بين المرأة وفتاها، ولم يحاول أن يبعده من القصر ويجعل له مكاناً أخر بعيداً عن سيدة القصر، أن تعاود الكرة مع فتاها من جديد وقد يضعف وقد يلين وقد يشتهى، فيقع المحذور ولكن الزوج المخدوع تركه مع هذه الفتاة المتأججة والحب المشتعل تحت سقف واحد.

وقديماً قالت امرأة عربية «الحرة لا تزنى».

ولم يمض على كلمتها فترة وجيزة من الزمن حتى وقعت فيما نهت عنه، ولما عوتبت فى ذلك وأن الحرة لا تزنى.

قالت: قد فعلتها: لطول السهاد وقرب الوساد.

أى أن زوجها كان مغيباً عنها فطال سهادها. وكان عبدها يعيش معها وقريباً منها فوقع المحظور.

وفى بعض القصور المترفة فى عصرنا الراهن الزوج حر فى تصرفاته يخادن من يشاء، ويعشق من يريد، ولا يصح للزوجة أن تعترض أو تقاوم رغبة الرجل فهذه هى حياته الخاصة وله مطلق الحرية فيها.

والزوجة كذلك من حقها أن تعشق وتريد، وفى حاشية القصر والمترددين عليه، وفى رجال الخدمة والحراسة والأمن فى داخل القصر ما يغنى بحاجة سيدة القصر «المصون» ويجدد لها السعادة، فهى عاشقة ومعشوقة، وهذا ما يرضى غرورها ويخفف من قسوة انصراف الزوج عنها إما من أجل عمله الذى لا نهاية له، أو مع امرأة أخرى، وهذا ما يسمى «باتفاق الجنتلمان» بين المخودعين. وكل هذا مباح ومقبول شريطة ألا يشاع ويذاع خارج جدران القصر.

ولكن للقصور دائماً آذان وفيها من الخدم والحشم ما يلتقط من الداخل كل حادثة، وكل شاردة، وكل واردة فى القصر ليسربها إلى الخارج إذن ما

يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستوراً وبخاصة فى الوسط «الأرستقراطى» الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن، وتداول هذه الفضائح ويوكها بالألسن فى المجالس والسهرات والزيارات.

وما حدث مع امرأة العزيز وفتاها ذاع وشاع فى أرجاء المدينة كلها وتناولته الألسن بالزيادة والنقصان، ووصل إلى سمع امرأة العزيز ما يدور وما يقال فى الخارج، وما يتكلم به عنها. إذن لابد من مجابهة ذلك وأعدت لذلك أمراً.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1].

لقد رماها نساء طبقتها بالضلال المبين لا من أجل الفعل فى ذاته ولكن من أجل كشفه وإشاعته. وهذا مكر منهن فلابد من مجابهته بمكر مثله.

عندها أقامت مأدوبة فى قصرها وأعدت لهن المتكآت وأتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى تقطيع أنواع الأطعمة ثم دعت يوسف للخروج عليهن. «فلما رأينه أكبرهن».

بهتن لطلعته ودهشن.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحن أيديهن بالساكين، وهن مذهلات مندهشات، وهن يتصور لهن أنهن يقطعن الطعام.

«وقلن حاش لله» وهى كلمة تنزيه تقال فى هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله الذى أحسن كل شىء خلقه.

(١) سورة يوسف الأيتان ٣٠- ٣١.

«ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم».

ورأت امرأة العزيز أنها انتصرت على نساء طبقتها عندما ألتمسن العذر لهـا وأنهن لقـين من طلعـة يوسف مـا أذهب عـقـولهـن وجـعلهن مـذهولات مفتونات بمجرد رؤيا خاطفة ليوسف، فكيف بها وهو يعيش معها. وتراه ليلاً ونهاراً ويستعصى عليها ويستهين بجمالها ولا تغريه مفاتنها.

عندهـا قـالت المرأة المنتـصـرة والتى لا تسـتـحى أمـام النسـاء من بنات جنسـهـا وطبـقـتهـا، والتى تفخـر بأن هذا الفتى فى متـاول يدها وإن كان قد استعصى عليها فى الأولى فلن يستطيع ذلك فى المرات التالية.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

عندهـا طلبت كل واحـدة من نسـاء الطبـقـة «الأرسـتـقـراطيـة» أن تخلو بيوسف لنصيحته فى أن يستجيب لامرأة العزيز، والحقيقة تخالف ذلك لقد أرادت كل واحدة من نساء الطبقة «الارستقراطية» الانفراد بيوسف لنفسها. فإذا تمت لها الخلوة قالت له:

«اقـضى حـاجـتى فـأنا خـيـر لك من سـيـدتك وتراوده على ذلك وتغـريه بمفاتنها»، عندها اتجه يوسف إلى ربه قائلاً.

«لقد كانت واحدة فصرن جماعة».

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(١).

وهى دعوة الإنسان العارف ببشريتـه الذى لا يغتـر بقوته أو بعصمته ويريد مـزيداً من عناية الله وحياطته تعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣.　　(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٤.

وماذا يفعل الكيد الضعيف من النسوة أمام كيد الله.

وماذا يمكن أن ينال النسوة من يوسف وهو فى رعاية الله وعنايته؟

إن الله سبحانه وتعالى حافظ له، وهو خير الحافظين؟

عندها فلَّت أسلحتهن وبطل كيدهن وأيقنَّ أن يوسف لن يفعل الفاحشة ومحال أن يخالف شرع ربه. عندها صدرت الأوامر.

﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(1).

وهكذا جو بعض القصور وأساليب الحكم المطلق، ودستور بعض الأوساط «الأرستقراطية» فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة مأدبة وحفل استقبال تعرض عليهن فيه فتاها الذى شغفها حبّاً ثم تعلن لهن أنها به مفتونة حقّاً ويفتتن هن به ويغرينه بمفاتنهن.

والمرأة تعلن فى مجتمع النساء، دون حياء، إنه إما أن يفعل ما يؤمر به، وإما أن يلقى السجن والصغار.

بعد هذا كله: بدا لهم أن يسجنوه إلى حين.

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد، ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشاراً فى طبقات الشعب الأخرى، وهنا لابد أن تحتفظ سمعة البيوتات، وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى برىء كل جريمته أنه لم يستجب، وأن امرأة من الوسط الراقى قد فتنت به، وشهرت بحبها، ولاكت الألسن حديثها فى الأوساط الشعبية. وتمر الأيام وتكر الليالى وتظهر من داخل السجن المثل ليوسف عليه السلام فهو العالم بتأويل الأحاديث وصاحب الحكمة والرأى السديد، ورجل الأزمات والذى سينقذ مصر بمشيئة الله مما يحل بها فى السنين العجاف.

---

(1) سورة يوسف آية: ٣٥

خروج يوسف من السجن

شاءت إرادة الله تعالى أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن. وما كاد يفرج عنه حتى طلبه الملك لنفسه، لكى يكون مستشاراً له، أو مديراً لديوانه- ولكن يوسف عليه السلام رفض هذه الأشياء بإباء وشمم وقال للملك:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١).

إنه يريد أن ينظم شئون الدولة: فى الإنتاج والاقتصاد، وشئون الزراعة- حتى لا تجبر الدولة فى طلب ما تحتاجه من الدول الأخرى إذن لابد من التدبير والتفكير. وتوفير كل ما يحتاجه الشعب من غذاء وكساء ومسكن..؟؟

وأجابه الملك لطلبه، وسلمه مقاليد الأمور، ودانت له الممالك وفوضت شئون مصر له:

عندها رفع يوسف أكف الضراعة إلى ربه قائلاً:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾(٢).

وكان يوسف عليه السلام يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب من عظماء قومه للترويح عن النفس وتفقد المشاريع الحيوية ومعرفة أحوال الرعية؟؟

وذات يوم وهو قائم بهذه الرحلة سمع صوتاً عالياً حزيناً يقول سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم.

وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم.

فقال يوسف ما هذه..؟

فأتوا بها إليه فقال لها من أنت يا امرأة..؟

فقالت: أنا التى كنت أقدمك على وجهاء قومك وقومى.

---

(١) سورة يوسف آية: ٥٥. (٢) سورة يوسف آية ١٠١.

أنا التى كنت أرجل لك جمتك بيدى.

أنا التى ربيتك فى بيتى، وأكرمت مثواك.

لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوى قد ذقت وبال أمرى.

ذهب مالى فلا مال لى.

وتضعضع ركنى فلا ركن أسند عليه.

وطال ذلى. فلا قوة لى.

وعمى بصرى فلا أرى شروق الشمس ولا غروبها. ولا أستمتع برؤية من كان لقلبى الشجى والسلوان.

لقد كنت مغبوطة أهل الكنانة جميعاً فصرت مرجومتهم.

أتكفف الناس بدموع عينى وتمزيق قلبى.. وهذا جزاء المفسدين.

عندها بكى يوسف بكاءً شديداً. ثم قال:

هل لازلت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئاً..؟

قالت: يا يوسف والله لنظرة إلى وجههك أحب إلىّ من الدنيا وما فيها.

ولهذا أرجو أن تناولنى صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها فوجد للسوط فى يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها فبكى ثم مضى إلى منزله. فأرسل إليها رسولاً: إن كنت أيماً تزوجناك وإن كنت ذات بعل أغنيناك.

فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك، لم يردنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء وفقيرة؟

فأعلمه الرسول بمقالتها.

فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرضت له.

فقال لها: ألم يبلغك الرسول..؟

زواج زليخا من يوسف عليه السلام

فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا وما فيها.

عندها أمر يوسف بها فأصلح من شأنها وهيئت ثم زفت إليه.

فقام يوسف عليه السلام يصلى ويدعو الله. وقامت زليخا وراءه تصلى.

عندها سأل يوسف الله تعالى أن يعيد لها شبابها.

أن يعيد إليها جمالها.

أن يرد لها بصرها.

فرد الله عليها شبابها، وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن مما كانت يوم راودته إكراماً لرسوله يوسف عليه السلام. لما عف عن محارم الله. فأصابها فإذا هى عذراء.

فسألها فقالت: يا نبى الله إن زوجى كان عنيناً[1] لا يأتى النساء وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف.

قال: فعاشا فى خفض عيش فى كل يوم يجدد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف.

وفيما حفظته ذاكرة التاريخ أن الله تعالى ألقى فى قلب يوسف عليه السلام من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها.

فقال لها: ما شأنك لا تحبيننى كما كنت فى سابق عهدنا..؟

فقالت له: لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء.

وإذا كان لكل سافرة حجاب، ولكل ليل صباح، ولكل أجل كتاب فلقد وافاها أجلها. قبل يوسف عليه السلام.

ثم ماذا وضعها زوجها وولداها فى قبرها، وطلبوا من الله تعالى المغفرة والرحمة وأن يضعها فى الفردوس الأعلى من جناته إنه سميع الدعاء.

---

(١) العنين: هو الذى لا يستطيع إتيان النساء. وله أحكام فى كتب الفقه راجع كتاب المغنى لابن قدامة.



تذييل

عفة الرجال والنساء
وأثرها فى إصلاح المجتمع

عفة الرجال والنساء وأثرها فى إصلاح المجتمع

يقول أحد الأساتذة الشيخ محمد المجذوب: كنا عدداً من المدرسين والمدرسات نملأ القاعة المخصصة لتدقيق امتحان الأدب العربى، عندما دخل علينا الوزير ومعه بعض حاشيته، يتفقد أعمالنا. وحيانا ثم أخذ يصافحنا واحداً فواحداً. ولما انتهى إلى المنضدتين الأخيرتين، جعل يصافح من هناك من المدرسات حتى صار إلى أخراهن.

وكانت إحداهن قد وقفت كغيرها فبسط يده نحوها. ولكن هذه رفعت راحتها إلى جانب رأسها ترد تحيته.. ولبثت كذلك.

حتى فطن الوزير لموقفه، فغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة شكر أو توجيه. وكان ذلك على مشهد من أعين المصححين جميعاً إذ كانوا يرقبون المشهد، ففى نفوسهم حب الاستطلاع لما سيكون عليه موقف الوزير من ردود الفعل.

وعاد المدرسون إلى العمل فى غمرة الصمت، وعلى لسان كل منهم كلام يتهيب أن يقوله.. حتى تجرأ زميل فأخذ يتمتم فى همس لا يسمعه سواى: هذه فتاة تستطيع أن تقول لم يمسسنى بشر.

قلت لعل المشهد لم يرقك.

قال: ولكنه يستحق احترامى.

قلت له: غير أنى على ثقة أن الفتاة لم تفكر باحترام أحد أو امتعاضه وإنما فعلت ذلك يقيناً منها بأنه الشىء الوحيد الذى تفعله امرأة تحترم تعاليم دينها فى مثل هذا الموقف.

إن هذه المرأة لم تنس تعاليم دينها فى أى موقف من المواقف.. حتى ولو

كان هذا الموقف.. موقف الوزير أو غيره من أصحاب الجاه والسلطان.. إنها فعلت ما يمليه عليها دينها.. وما يتطلبه الرجل المؤمن من المرأة من محافظتها على جسمها أن يمس أو شرفها أن يخدش.

إنها تأدبت بأدب الرسول ﷺ الذى يقول: من مس كف امرأة ليس فيها بسبيل، وضع على كفه جمرة يوم القيامة.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا بايع النساء يبايعهن كلاماً ولا يأخذ أيديهن فى يده.. إن هذه المرأة فى عصرنا الراهن تمثل الجانب الآخر فى النزاع بين فكرتين.

إحداهما تحول المرأة إلى دمية لا هم لها إلا العبث بوجهها وجسمها تشده من هنا وتطلقه من هناك وتطليه من هنا بلون وتصبغه هناك بلون، ثم تجرى متراقصة فى حذاء لا ندرى كيف تدربت على السير به، حتى إذا انتهت إلى عملها راحت تمضى وقتها فى «سخافات» لا تنتهى تسمعه فى كلامها وتراه فى مشيتها وفى حركاتها جميعاً. كأن لا هم لها إلا أن تلفت إليها أعين الرجال بأى ثمن.

أما الثانية: فلا تكلف المرأة إلا أن تظل إنساناً سوياً تدرك فى وعى عميق ضخامة المهمة التى تخيرها الله لها. فتعرف أن قيمتها ليست فى لحمها وعظمها ولكن فى روحها وأخلاقها. ولهذا تراها لا تختار لجسدها من الثياب إلا ما يساعدها على إعطاء هذه المعانى فى جو الأنوثة المهيبة الذى يفرض احترامه على كل شىء.

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذى تقوم به تربيتها، والسلاح الذى تدافع به عن شرفها وكرامتها. وهو عندها بمثابة القوة عند الرجل وعفاف المرأة فى الأسرة هو الركن الأول الذى تتوطد عليه دعائم التربية والسبيل الأقوم الذى تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء.

والعفاف بالنسبة للفتاة هو سندها فى الضعف ومرشدها فى الغواية

ومصباحها فى الظلام وزينتها مدى الأيام، وأساس سعادتها وسعادة أسرتها فى المستقبل.

والعفاف مطلب إنسانى... وزينة للرجل والمرأة على السواء وأمر من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالتحلى به قال تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

لقد كان أهالى أثينا القدماء يمنعون الرجل الذى يجتمع بغير زوجته ويعاشرها أو يخالط المتبرجات أن يكون من أرباب مشورة المدينة لأنه لا يؤمن على المصلحة العامة. أو بتعبير رجال الحديث: «ساقط العدالة مجروح».

إن مراقبة الله سبحانه وتعالى والخوف من عقابه، وتقواه فى السر والعلانية هى إحدى دعائم العفة للرجال والنساء.

قيل لبعض الأعراب وقد طال حبه لفتاة.. ما كنت صانعاً لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله تعالى.

قال: أخاف الله ولا أجعله أهون الناظرين، ولكن أصنع منها ما أصنع بحضرة أهلها: حديث طويل. ولحظ كليل.

وقالت سلامة المغنية لعبد الرحمن بن أبى عمار الذى سماه أهل مكة: قَسًّا لكثرة عبادته. وكان معجباً بغنائها:

يا عبد الرحمن: أنا والله أحبك.

فقال: وأنا والله أحبك.

(١) سورة النور الآية رقم: ٣٣.

قالت: وأحب أن أقترب منك.

قال: وأنا والله أحب ذلك.

قالت: فما يمنعك..؟ فوالله إن الموضع خال.

قال: إنى سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(١).

وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول إلى عداوة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك.

وما قاله عبد الرحمن القس قالته ليلى الأخيلية عندما طلب منها حبيبها حاجته أو رأت دلائلها فى عينيه فقالت:

وذى حاجة قلنا لا تبح بها ... فليس إليها- ما حييت- سبيل

لنا صاحب(٢) ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

إن العفة طريق إلى السعادة.. ومدخل إلى الجنة وسبيل لتفريج الكروب.. فى الدنيا.

عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى إذا جن عليهم الليل أووا إلى غار فى جبل فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقال بعضهم لبعض:

انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا بها لعله يفرجها.

فقال رجل منهم ما عمله من صالح الأعمال وقال الثانى كذلك.

ثم قال الثالث:

اللهم كانت لى بنت عم كانت أحب الناس إلىَّ فراودتها عن نفسها فامتنعت منى، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين

(١) سورة الزخرف آية رقم: ٦٧.

(٢) الصاحب: هو زوجها الذى كانت متزوجه به على شرع الله.

ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها. ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت:

لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه.

فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها.

اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه.

فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون.

فمتى تعف نساؤنا وفتياتنا..؟

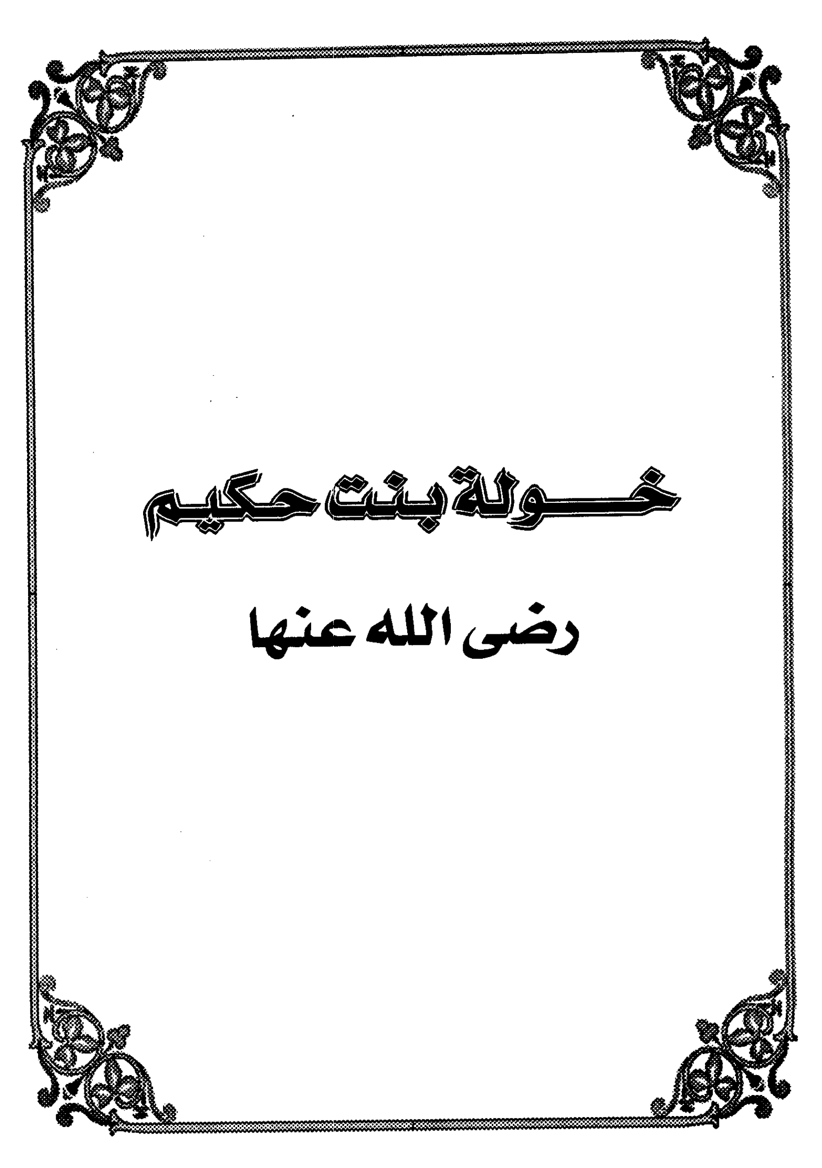
ومتى يعف شبابنا ورجالنا؟

متى يحدث ذلك، حتى تحل مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية وننتصر على أعدائنا فى مشاكلنا السياسية ومعاركنا الحربية.

إن العفة طريق إلى الفوز، وشعار إلى النصر، وغيث منهمر بالخير والرخاء، ومنقذ من الكرب والهم، ومن الحزن والدين، وصدق ربى فى قوله:

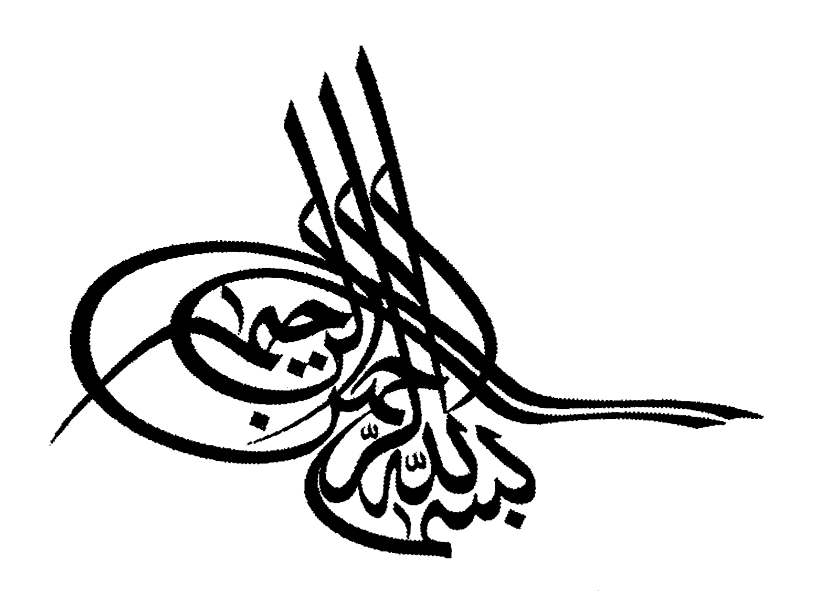
﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1].

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

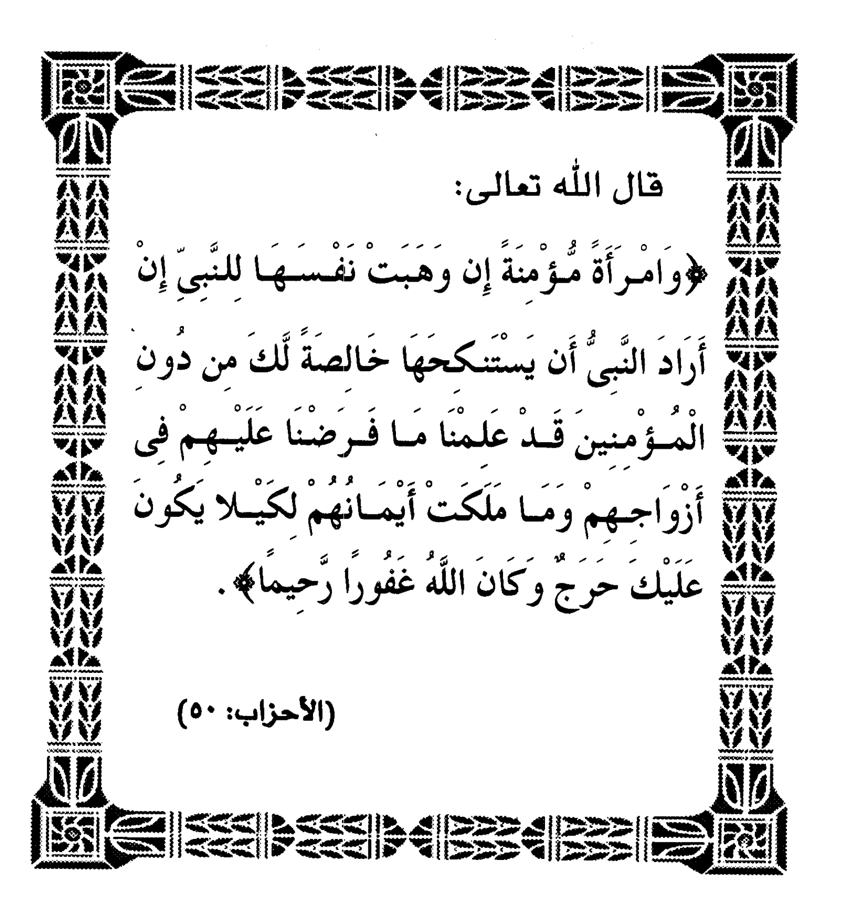


خولة بنت حكيم

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

(الأحزاب: ٥٠)

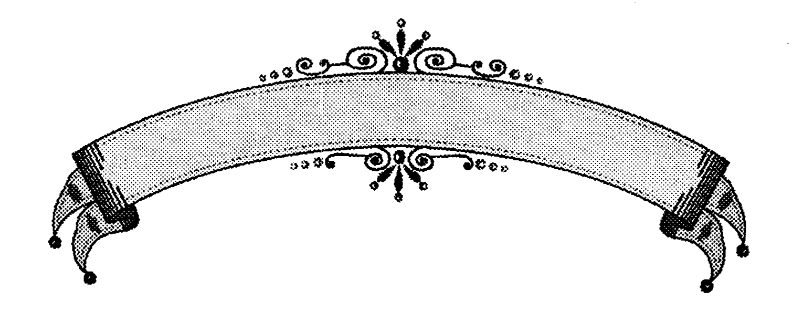
أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من المفسرين ومنهم الإمام القرطبى نزلت هذه الآية فى النساء اللاتى وهبن أنفسهن للرسول ﷺ ومنهن خولة بنت حكيم جـ ٧ ص٢٠٨.

وقال الحافظ ابن حجر الموهوبات كُثُرٌ منهن ميمونة بنت الحارث وغيرها ٨: ٤٠٤.

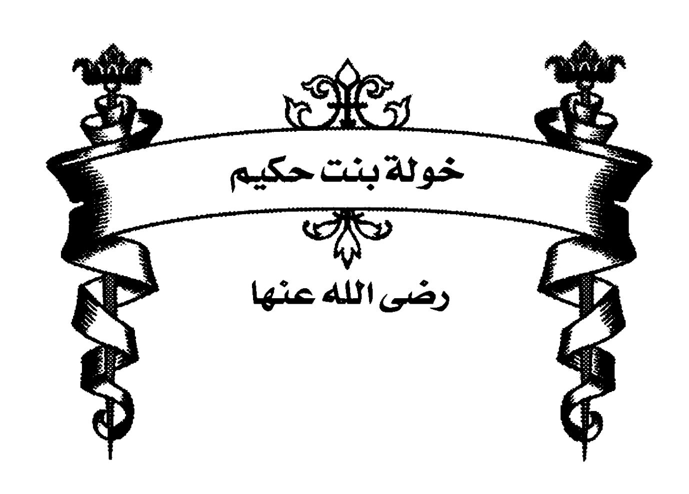
وذكر صاحب الاستيعاب أبو عمر بن عبدالبر أن الموهوبة خولة بنت حكيم جـ ٤ ص ١٨٣٢.

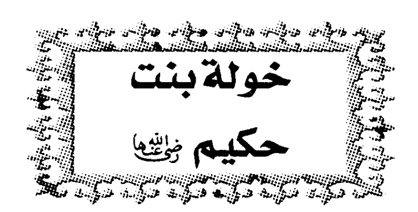
فمن هى خوله بنت حكيم..؟



يقول الرسول ﷺ :

«دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدى فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان» رضي الله عنها .


خولة بنت حكيم
رضى الله عنها



حياتها ونشأتها

امرأة مؤمنة، عابدة قانتة.

سمعت بدعوة الإسلام فسارعت للدخول فيه، وبين يدى الرسول ﷺ نطقت بالشهادتين.

زوجها عثمان بن مظعون، من خيرة الرجال ورعاً وزهداً، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر الهجرتين، وشهد أولى المشاهد مع رسول الله ﷺ فكان نعم الفارس المقاتل.

وكان ممن حرَّم الخمر فى الجاهلية.

وقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى ويحملنى على أن أنكح كريمتى..».

فلما حرمت الخمر قيل: يا عثمان، قد حرمت الخمر؟؟

فقال: تبّاً لها لقد كان بصرى بها ثاقباً.

ولما جاءه أجله حضر رسول الله ﷺ إلى داره، وقبل ما بين عينيه ثم قال:

«نعم السلف هو لنا عثمان بن مظعون».

عاشت خولة حياتها قريبة من الرسول ﷺ ومن زوجه خديجة، تسرى عنها ما يعتريها من هموم، وعينها على متطلبات دارها، وتجلس معها تتسمع

أحاديث الرسول وهديه.

ثم ماتت خديجة ﵂ وحزن الرسول لفراقها حزناً طويلاً.

وكانت خولة ترى بعينها اللماحة ما يعانيه النبى الكريم بعد انتقال خديجة إلى الرفيق الأعلى.

وفى يوم من الأيام اقتربت خولة من الرسول ﷺ وتحدثت معه فى أمور حياته وحزنه على فراق خديجة.

ثم قالت يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟

قال: أجل كانت أم العيال، ونور البيت، والزوجة العطوف الوفية ولقد ضحت بالكثير فى سبيل الإسلام والمسلمين.

عندها قالت خولة: أفلا أخطب عليك..؟

قال: بلا، فإنكن معشر النساء أوفق بذلك.

وما كادت خولة تسمع ذلك من رسول الله ﷺ حتى شغلت بهذا الأمر.

وأخذت تردد بينها وبين نفسها: إن النساء الراغبات فى الزواج كثير، وكل فتاة تتمنى أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ ولكن من الزوجة التى يرضاها رسول الله لتكون عوضاً عن خديجة؟

وما كادت تصل إلى ذلك حتى لمعت فى ذهنها عروستان. إحداهما مؤجلة لم تصل إلى أعتاب الأنوثة بعد، وهى عائشة بنت أبى بكر الصديق ﵁ والذى وصفه الوحى بصاحب رسول الله بقوله:

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾(١).

وأخرى معجلة وهى سودة بنت زمعة ﵂ لترعى شئون البيت، وتخفف عن الرسول ما يعانيه، وتقوم أيضاً برعاية ابنتيه فاطمة وأم كلثوم.

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٠.

وتم زواج الرسول ﷺ من سودة. ولكن الرسول ﷺ لم ينعم بالحياة الزوجية، بسبب قسوة المشركين فى إيذاء المسلمين، وملاحقتهم بالتنكيل والتعذيب، عندها أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب».

وكانت خولة وزوجها عثمان بن مظعون من أوائل الملبين لأمر الرسول بالهجرة إلى يثرب.

وفى مدينة الرسول عاشت خولة تخدم زوجها وترعى بيتها، وانشغل زوجها بالزهد والعبادة، فأهمل تجارته، وكف عن الضرب فى فجاج الأرض بحثاً عن الرزق، وابتعد عن زوجته، ولم يشعر بخلجاتها وأشجانها. وما تتطلبه المرأة من حقوق قبل زوجها.

الأمر الذى جعل خولة تصاب بنوع من الاكتئاب فلا تلبس إلا رث الثياب؟؟

ولا تطعم إلا ما يسد الرمق..؟؟

وأصبح نومها خطرات، ويقظتها حزن وآهات.

وعندما كان يوجه اللوم إلى خولة لعدم اهتمامها بزينتها. كانت تئن ولا تفصح، وتتوجع ولا تتكلم. حتى جاء يوم دخلت خوله على أمهات المؤمنين فى بيت النبوة. فرأينها رثة الثياب، متسخة الأطراف، ذابلة العيون، مصفرة الوجه لا يهدأ لها بال، ولا يقر لها قرار.

فقلن لها ما بك يا خولة وكيف وصلت إلى هذه الحالة؟

أهو الفقر تعانين..؟

وقلة المال لا تجدين..؟

إن زوجك يعد من أغنياء المدينة، بل يكاد يكون من أكثرهم ثراء..؟؟ قالت خولهة ما لنا منه شىء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم وما كادت تكمل حديثها حتى دخل رسول الله ﷺ وشاهد هيئتها فقال لزوجاته ما بال خولة؟

فذكرن حال زوجها له.

فأرسل الرسول ﷺ إليه، فلما جاء. قال الرسول ﷺ:

«يا عثمان بن مظعون أما لك بى أسوة.؟

فقال: بأبى أنت وأمى وما ذاك يا رسول الله..؟

قال: علمت أنك تصوم النهار وتقوم الليل.

قال: إنى لأفعل ذلك يا رسول الله.

خولة تنعم بالحياة الزوجية

قال عليه السلام: لا تفعل يا ابن مظعون: إن لعينيك عليك حقّاً، وإن لجسمك عليك حقّاً، وإن لأهلك عليك حقّاً فصل ونم، وصم وافطر.

قال عثمان: سمعاً وطاعة يا رسول الله.

قال الراوى: ولم تمض إلا أيام قليلة حتى جاءت خولة، وهى عطرة. كأنها جوقة الطيب، ومجلوة كأنها العروس يوم زفافها فقلن لها: إيه يا خولة ماذا حدث؟

قالت والفرحة تطل من عينيها وتتراقص على شفتيها:

«لقد أصابنا ما أصاب الناس».

وعرفت النظافة والتزين طريقهما إلى خولة بنت حكيم. وغنت لها الحياة، وامتلأت أيامها ولياليها بالبهجة والحبور.

خولة تنعى زوجها

وتوالت الأيام وكرت الليالى خاطفة مسرعة. وفى يوم ليس كمثله يوم نعى الناعى الصحابى الورع القانت عثمان بن مظعون.

وذرفت خولة الدموع الغزار وتوشحت بالسواد ولزمت بيتها لا تخرج إلا للصلاة، أو لقضاء الحاجة، ثم تعود لتجتر أحزانها، وتطلب من الله تعالى الصبر والسلوان.

وفى يوم من الأيام ذهبت إلى بيت النبى لتقدم واجب الشكر إلى أمهات المؤمنين فيما قدمنه لها من مساعدة ومواساة فى وفاة زوجها، والتقت عيناها بالرسول ﷺ وشاهدت نور النبوة وقوة الإيمان تنبعث من كل ذرات وجهه الكريم- وتمنت أن تكون من أمهات المؤمنين الذين نزل الوحى بمخاطبتهم فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم بقوله:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾(١).

إنهن صفوة مختارة فى الدنيا، وفى الآخرة هن فى مقعد صدق عند مليك مقتدر بصحبة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٢.

أمنية خولة الزواج من الرسول ﷺ

إنها أمنية جميلة تداعب خولة بنت حكيم حتى أصبحت شغلها الشاغل وغايتها الوحيدة التى تتمنى تحقيقها.

وتساءلت بينها وبين نفسها ولكن كيف..؟ والرسول ﷺ لا يفكر فى ذلك؟

نعم هو يعطف عليها، ويسأل عن أحوالها، وحافظ لذكرى زوجها ولكنه لم يتقدم لخطبتها.

وإذا كان الرسول ﷺ لم يفعل، ولم يتقدم أهناك حرج أو مانع شرعى يحول بينها وبين أن تتقدم هى..؟

لا. إنها لا تطلب شيئاً تعاب عليه.

إنها لا تريد متع الدنيا وزخارفها.

إنها لا تسعى أن تكون زوجة تخادن زوجها وترزق منه بالبنبن والبنات.

لا: ليس شىء من هذا فى مخيلتها.

إنها تريد فقط الآخرة وتعمل لها وترجو الله تعالى أن تكون مع زوجات الرسول فى الفردوس الأعلى؟؟

خولة تهب نفسها للرسول ﷺ

وعندما وصلت خولة إلى هذه النتيجة ارتدت ثيابها، وأرخت خمارها وذهبت إلى مجلس الرسول ﷺ.

واستأذنت فى الدخول عليه. ولما وقفت بين يديه استجمعت شجاعتها ولاكت بعض الكلمات فى فمها ثم قالت:

«يا رسول الله لقد وهبتك نفسى».

ولكن الرسول ﷺ سكت ولم يفصح ولم يقل شيئاً.

وانصرفت خولة إلى بيتها منتظرة ومترقبة ما تأتى به الأقدار، وتسامع بيت النبوة بما طلبته خولة من الرسول الكريم.

تقول السيدة عائشة- رضي الله عنها:

«كنت أغار على اللواتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ.

وأقول: أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل..؟ حتى أنزل الله تعالى:

﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(١).

قالت عائشة. فقلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك».

ورغم أن الرسول ﷺ لم يقبل هبة خولة بن حكيم، ولكنها لم تفارقه، ولم تبتعد عنه، وبقيت فى خدمته فى حله وترحاله. وذهبت مع الجيش المحارب لفتح مكة- حتى تحقق وعد الله الذى وعده لرسوله بقوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(٢).

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٠.   (٢) سورة الفتح الآيات: ١ ـ ٣.

وكانت مع الرسول ﷺ فى غزوة حنين.

وعندما توجه الجيش المحارب بقيادة رسول الله ﷺ إلى الطائف لحصارها. واستمر الحصار سبعة عشر يوماً، تقدمت خولة لرسول الله ﷺ وقالت له:

«يا رسول الله إن فتح الله عليك الطائف امنحنى حلىّ وجواهر بادية ابنة غيلان بن سلمة. أو حلى الفارعة بنت عقيل، وكانتا من أحلى نساء ثقيف.

فقال لها رسول الله ﷺ: وإن كان لم يؤذن لى فى فتح ثقيف يا خولة..؟

قالت: حتى يأذن لك يا رسول الله - ثم خرجت.

وفى الطريق التقت بعمر بن الخطاب- رضي الله عنه - فذكرت له ما قاله الرسول عليه السلام بالنسبة لثقيف.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خولة زعمت أنك قلته..؟

قال: قد قلته يا عمر.

قال: أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله؟

قال: لا.

قال: أفلا أؤذن بالرحيل..؟

قال: بلى.

فأذن عمر بالرحيل.

إن خولة صابرة مؤمنة، وعطوفة طيبة، ويملأ الإيمان كل نبضة من نبضات قلبها، وهى شغوفة بأن يستقر الإسلام فى قلب كل إنسان ذكراً كان أو أنثى شيخاً أو طفلاً على سطح الكرة الأرضية.

ثم مـاذا..؟ عـادت خـولة مع الجـيش المحـارب إلى مـدينة الرسـول ﷺ واسـتـقـر بهـا المقـام فى انتظار النفـيـر لغـزوة أخـرى يحـددهـا رسـول الله ﷺ وتقتضيها «استراتيجية» الدعوة إلى دين الله.

وفى يوم من الأيام ابتـاع رسـول الله ﷺ من رجل من الأعـراب جـزوراً بوسق من تمر العجوة- فرجع به رسول الله ﷺ والتمس له التمر فلم يجده؟؟

فخرج إليه رسول الله ﷺ وقال: يا عبد الله إنا قد ابتعنا منك جزوراً أو جزائر بوسق من التمر فالتمسناه فلم نجده.

فقال الأعرابى: واغدراه.

قالت: فزجره الناس وقالوا قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟

قالت: فقال ﷺ:

«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

ثم دعا لـه رسول الله ﷺ فقـال: يا عبد الله إنا ابتعنا منك جزوراً ونحن نظن أن عندنا مـا سـمينا لك فالتمسناه فلم نجده فقال الأعـرابى: واغـدراه. فزجره الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ:

«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

فـردد ذلك رسـول الله ﷺ مـرتين أو ثلاثاً، فلمـا رآه لا يفـقـه عنه قـال لرجل من أصحابه: اذهب إلى خولة بنت حكيم فقل لها: رسول الله ﷺ يقول لك: إن كان عندك وسق من تمر العجوة فـأسلفيناه حتى نؤديه إليك إن شـاء الله».

فذهب إليها الرجل ثم رجع فقال:

قالت: نعم هو عندى يا رسول الله فابعث من يقبضه.

فقال ﷺ للرجل، اذهب به فأوفه الذى له.

فذهب به فأوفاه الذى له.

ثم عاد الأعرابى إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فقال: حزاك الله خيراً فقد أوفيت وأطيبت.

فقال رسول الله ﷺ:

«أولئك خيار عباد الله عند الله يوم القيامة الموفون المطيبون».

ثم ماذا سجل التاريخ فى صفحته عن حياة خولة؟

أى المشاهد شهدتها؟ أى الأعمال قامت بها؟ هل تزوجت بعد ذلك ومن كان هذا الزوج؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك متى جاءها أجلها، وهل ماتت فى إحدى المعارك أم على فراشها..؟

إن التاريخ يصمت صمتاً شاملاً عن حياة خولة بعد ذلك.

رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته فى الفردوس الأعلى قريباً من أمهات المؤمنين كما كانت ترجو وتطلب..

أسباب نزول الآيات

عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت يا رسول الله إنى قد وهبت نفسى لك، فقامت قياماً طويلاً فقام رجل فقال يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة...؟؟

فقال رسول الله ﷺ هل عندك من شىء تصدقها إياه..؟

فقال: ما عندى إلا إزارى هذا فقال رسول الله ﷺ إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً.

فقال: لا أجد شيئاً.

فقال عليه السلام: التمس ولو خاتماً من حديد.

فالتمس فلم يجد شيئاً.

فقال له النبى ﷺ هل معك من القرآن شىء..؟

قال: نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها.

فقال له النبى: زوجتكما بما معك من القرآن.

وقال الإمام أحمد بسنده عن ثابت يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له. فقال أنس جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت يا نبى الله هل لك فىَّ حاجة؟

فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها.

فقال: هى خير منك رغبت فى النبى فعرضت عليه نفسها. انفرد بإخراجه البخارى.

وقال أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت

يا رسول الله ابنة لى كذا وكذا فذكرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها.

فقال ﷺ: قد قبلتها.

فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئاً قط.

قال ﷺ: لا حاجة لى فى ابنتك.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: التى وهبت نفسها للنبى ﷺ خولة بنت حكيم.

وقال ابن وهب: عن هشام عن عروة عن أبيه: إن خولة بنت حكيم بن الأوقص كانت من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ستاً من قريش: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة وأم سلمة.

وثلاثاً من بنى عامر بن صعصعة، وامرأتين من بنى هلال بن عامر ميمونة بنت الحارث وهى التى وهبت نفسها للنبى، وزينب أم المساكين وامرأة من بنى بكر بن كلاب، وامرأة من بنى الجون وهى التى استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتين: صفية بنت حيى بن أخطب وجويرية بنت الحارث.

هذا وبالله التوفيق


تــذيــيــل
عقوبة إتيان الفاحشة
والجهر بها

عقوبة إتيان الفاحشة والجهر بها..

يحرص الإسلام على إيجاد المجتمع المسلم النظيف، الذى لا تعرى فيه الأجساد، ولا تكشف العورات، ولاتهاج فيه الشهوات، ويبتلى بالاختلاط الجنسى الذى يتم بين الرجل والمرأة، بعيداً عن شرع الله وفى غفلة من قوانين وأعراف المجتمع ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1].

يأمر الله سبحانه وتعالى بذلك، وهو العليم الخبير لأن فوضى العلاقات الجنسية كانت هى المعول الذى حطم الحضارات القديمة حطم الحضارة الأفريقية، وحطم الحضارة الرومانية، وحطم الحضارة الفارسية ثم إن الفوضى الجنسية ذاتها هى التى أخذت فى تحطيم الحضارة الغربية وقد ظهرت آثار التحطيم. فيما أذاعته تقارير الصحة العالمية من إصابة العديد من الأفراد بمرض «الإيدز» وفقدان الخصوبة واللذيْن قضيا على المناعة عند العديد من الرجال والنساء فى مدن أوروبا وأمريكا.

يقول طبيب فرنسى يدعى الدكتور «ليريه» إنه يصاب فى كل عام فى فرنسا أكثر من ألف نسمة بالزهرى، وما يتبعه من الأمراض كل عام، وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق» وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية عدا أمراض أخرى كثيرة.

والدولة الأمريكية يتناقص تعدادها بشكل خطير، ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسى، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها، ولا لاحتمال تبعية الأطفال الذين

(١) سورة النور آية رقم ٣٠.

يولدون من الالتقاء الجنسى العابر.

ومع كثرة إباحة الجنس وسهولة الحصول عليه- فإن التقارير الأمنية تقول «لقد كثرت فى العامين الآخرين جرائم الاعتداء على النساء، وعلى الفتيات الصغيرات فى انجلترا وخصوصاً فى طرق الريف، وفى أعظم الحالات، كان المعتدى عليه أو المجرم غلاماً مراهقاً. ولقد رصدت أجهزة الأمن هذه الحادثة- حيث كان شيخ فى طريقه إلى القرية عندما أبصر على جانب الطريق- وتحت شجرة- غلاماً يضاجع فتاة، واقترب الشيخ منهما، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه، وقال له: إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه فى الطريق العام..؟

وما كاد الشيخ يفعل ذلك حتى نهض الفتى، وركل الشيخ بكل قوته فى بطنه ووقع الشيخ. وهنا ركله الغلام فى رأسه بحذائه واستمر يركله بشدة وقسوة حتى تهشم الرأس تماماً. وكان الغلام فى سن الخامسة عشرة، والفتاة فى سن الثالثة عشرة من عمرها. حدث هذا فى القرن العشرين الذى يسمى عصر التمدن والحضارة والرقى. أما فى الزمن القديم. وفى مصر الفرعونية، راودت امرأة متزوجة فتاها وفكرت فى خيانة زوجها. فانشغلت المدينة كلها بهذه الحادثة، ووصلت إلى أعلى سلطة فى الدولة للحكم فيها.

وذكرتها أوراق البردى، وتحدث القرآن الكريم عنها حديثاً يتوافق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها. وهو عدم إشاعة الفاحشة فى المجتمعات خوفاً من عقاب الله تعالى، وجعل الزواج بين الذكر والأنثى هو أساس العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. هذا ما حدث فى الزمن الغابر ووعته ذاكرة التاريخ وذكره القرآن الكريم داعياً الناس إلى الطهر والعفاف.

فماذا عن العصر الذى نعيش فيه..؟

عصر التقدم والحضارة كما يسمى..؟

نقول ذلك: لأنه منذ سنوات قليلة نشرت إحدى الصحف البريطانية

قصة مدرسة شابة فى الخامسة والعشرين.

هذه المدرسة كانت تدرس لمجموعة من الشباب المراهقين الجنس.. وكانت تقوم بتدريسهم الجنس عملياً فى الفصل.

كيف يتم ذلك؟

وماذا كانت تفعل حتى ترسخ المعلومات فى عقولهم..؟

هل كانت تلجأ إلى إدارة الفانوس السحرى..؟

هل كانت تلجأ إلى بعض الأشرطة الخاصة «بالفيديو» والتى يطلق عليها أشرطة الجنس لا لم تفعل لك، واعتبرت هذه الوسائل قاصرة عن تعاليم الشباب المراهق: الجنس ولكنها كانت تبدأ محاضرتها بأن تخلع ثيابها قطعة قطعة أمام طلبتها ووصل خبر ذلك إلى إدارة المدرسة.

فما كان من الإدارة أن أبلغت وزارة التربية والتعليم. عندها قررت الوزارة إيقاف هذه المدرسة. وطلب منها أن تكف عن عرض دروسها المثيرة على الطلبة والطالبات المراهقين.

وفى اليوم التالى نشرت جريدة «الديلى ميرور» صورة هذه المدرسة الجميلة عارية فى صفحتها الأولى، وقامت حملة ضخمة ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم «الرجعية» التى تمنع هذه الشابة العبقرية من مواصلة دروسها المهمة لتعليم الشباب المراهق الجنس. وقامت المظاهرات تأييداً للمدرسة الشابة وحريتها فى التعبير ودعوتها إلى مواصلة جهودها العظيمة فى تربية النشء تربية جنسية سليمة خالية من العقد.

ولم تجد إدارة المدرسة والوزارة بداً من إعادة المدرسة الشابة إلى ممارسة وظيفتها الحيوية مع الشباب المراهق..؟؟

هل يصدق أحد أن هذا قد يحدث إنه أمر أشبه بالأسطورة والخيال.. ولا شك أن دعاة التقدم فى وطننا الحبيب لا يعارضون أن تقف مدرسة شابة

عارية تماماً فى الفصل- فى المدارس المختلطة- أمام طلبتها لتدرسهم على الطبيعة الجهاز التناسلى للمرأة ثم تدعو أحد الشباب لتشرح لبقية زملائه الجهاز التناسلى للرجل ثم تقوم بعد ذلك بمزاولة الجنس عملياً مع أحد الشباب وإذا اعترضت إدارة المدرسة أو وزارة التربية على هذه الدروس «المفيدة» فإن الصحافة «التقدمية» والرأى العام سيقومان بحملة ضخمة ضد الآراء الرجعية العتيقة التى تقف أمام تيار التقدم والعلم؟؟

وستخفت عندئذ الأصوات الرجعية وتنطوى على نفسها متململة من هذه الإباحية التى لم تخطر لها من قبل على بال.

يقول «مسيو فردينان دريفوس» عضو البرلمان الفرنسى: إن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصيّاً بل لقد أصبحت تجارة واسعة وحرفة منظمة بفضل ما تجلب وكالاتها من أرباح.

ويقول «مسيو بول بيور»: إن احتراف البغاء قد أصبح فى زماننا نظاماً محكم التركيب يجرى بما شاءت من التنظيم على أيدى الموظفين والعاملين المأجورين، ويخدمه ويعمل فيه أرباب القلم وناشرو الكتب والصحافة والإعلام والأطباء وغيرهم.

ويقول الشيخ أبو الأعلى المودودى رحمه الله فى كتابه «الحجاب»: وجاءت الحرب فابتدعت بدعة البغاء المتطوع علاوة على البغاء التجارى المعروف، وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء اللاتى كن خدمن الأبطال المدافعين عن أرض فرنسا وولدن من جراء تلك الخدمة أولاداً لا يعرف آباؤهم فلقبن. أمهات زمان الحرب، وأصبح تشخيص هذا الفعل فضيلة خلقية عند أولى الدعارة والفجور، وقامت الجرائد اليومية بوضع أكاليل الغار والاعتزاز على رؤوسهن.

ويقول الشهيد عبد القادر عودة فى كتابه «التشريع الجنائى»: ولا يعاقب القانون المصرى على الوقاع إلا فى حالة الاغتصاب فإن كان بالتراضى فلا

عقاب عليه ما لم يكن الرضا معيباً، ويعتبر القانون المصرى الرضا معيباً إذا لم يبلغ المفعول به ثمانية عشر عاماً كاملة، ولو وقعت الجريمة بناء على طلبه هو فإن بلغها اعتبر رضاه صحيحاً- بل إن القانون المصرى يسمح للزوج أن يزنى بشرط أن يكون ذلك خارج منزل الزوجية، أما إذا زنى الزوج فى منزل الزوجية فيحق للزوجة أن تزنى ولا عقوبة فى ذلك.

وفى الغرب رغم وفرة النساء وسهولة العثور عليهن.. ورغم شيوع الزنا لدرجة مخيفة فى المجتمعات الغربية فإننا نجد كثيراً من الظواهر التى لا يمكن تفسيرها بسهولة مثل:

١- انتشار حالات الاغتصاب الجنسى.

٢- انتشار الشذوذ الجنسى.

٣- انتشار نكاح المحرمات.

٤- انتشار الاعتداء الجنسى على العاملات والموظفات.

لقد كان يقال قديماً إن الكبت الجنسى، وعدم تفريغ هذه الطاقة الضخمة يؤدى إلى هذا الشذوذ فى المجتمع الانفصالى- أى عدم اختلاط الرجال بالنساء. ولكن الغربى لا يعانى من الكبت الجنسى واكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء.

يقول الرسول ﷺ: «إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء»(١).

ويقول الرسول ﷺ أيضاً: «إذا استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال فبشرهم بريح حمراء تخرج من قبل المشرق فتمسخ بعضهم، ويخسف ببعض ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»(٢).

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه.

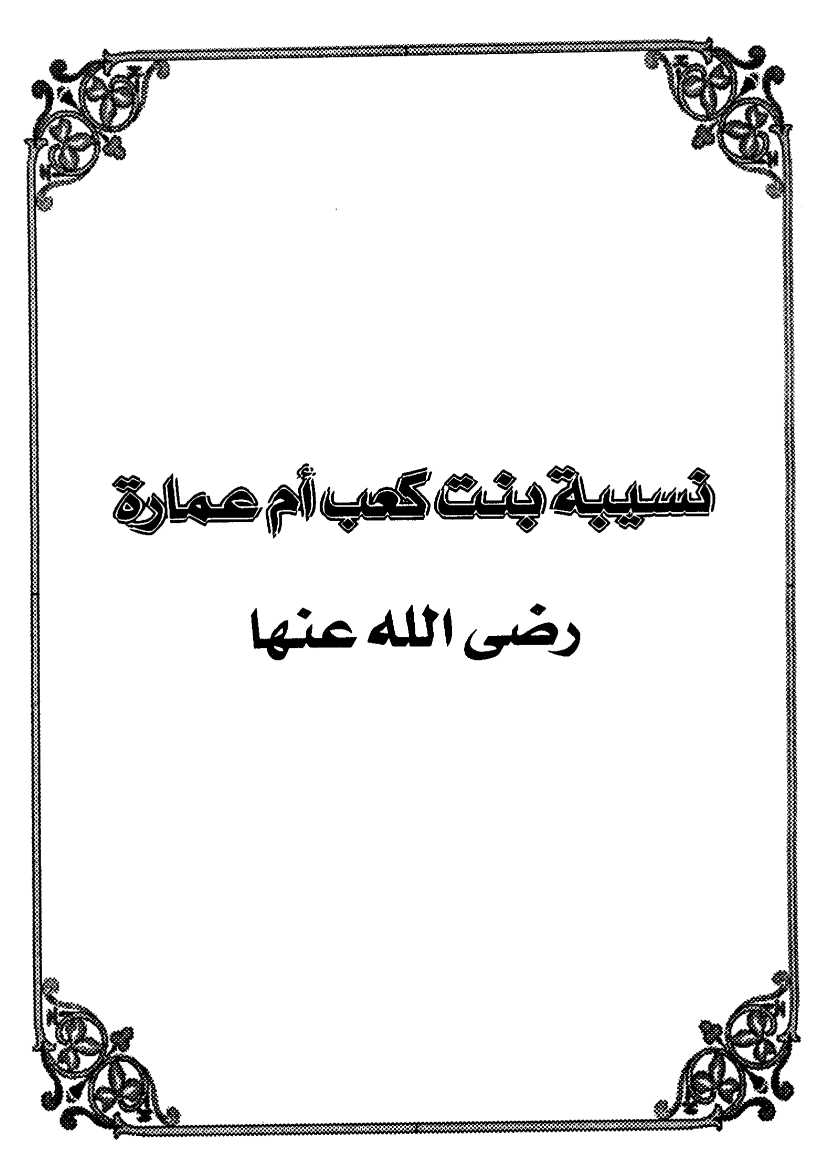
(٢) الحديث رواه الديلمى عن أنس وروى الحاكم قوله ﷺ: لا تنقضى الدنيا حتى يقع الخسف والمسخ والقذف قالوا متى يا رسول الله؟ قال: «وذكره».

وقد بلغ من انتشار الشذوذ الجنسى فى الحضارة الغربية اليوم أن قننت القوانين بإباحته واعتباره أمراً طبيعياً لا غبار عليه إذا ما كان بين بالغين بدون اكراه.. وتكونت آلاف الجمعيات التى ترعى شؤون الشاذين جنسيّاً. وهناك معابد وكنائس فى الولايات المتحدة تزوج الرجال على الرجال والنساء على النساء فى احتفالات خاصة.

وقد خصصت بعض الجامعات فى الولايات المتحدة منحاً دراسية للشاذين جنسيّاً ومن تلك الجامعات جامعة «سير جورج وليميز» التى تخصص كثيراً من منحها الدراسية للمصابين بالشذوذ الجنسى، ولا يمكن الحصول على تلك المنحة إلا إذا كان المتقدم مصاباً بالشذوذ.

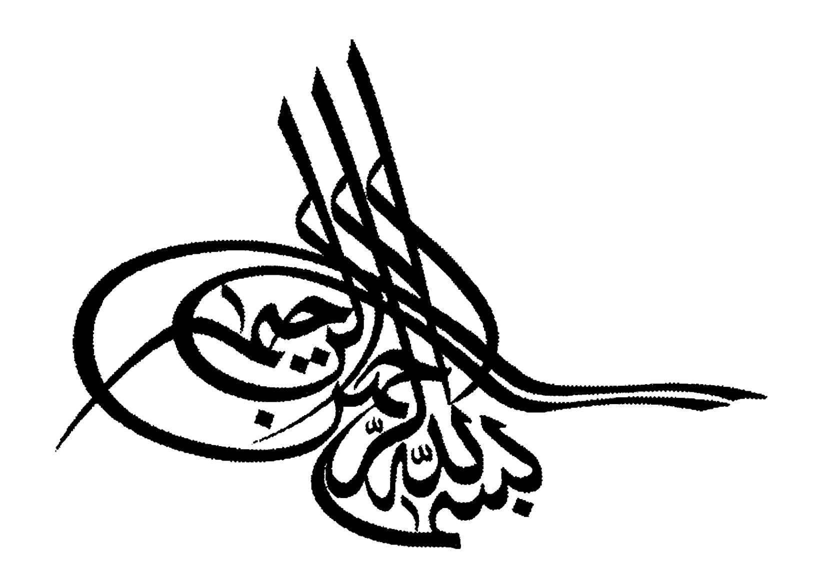
وفى مدينة «لوس أنجلوس» يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسى ومن أغرب الأنباء أن مجلة «اللوطية» فى بريطانيا نشرت هجوماً على الدين لأنه يحرم الشذوذ الجنسى، وأن الدين لذلك هو سبب لكل المشاكل فى الدنيا فما كان إلا أن رد عليه أحد كبار القساوسة قائلاً: إن الكنيسة فى حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسى، وأن الشاذ جنسيّاً إنسان عادى، وله الحق إذا أراد أن يصبح قسيساً أو أى شىء آخر..؟![1]

(١) عمل المرأة فى الميزان الدكتور محمد على الباز.



نسيبة بنت كعب أم عمارة

رضى الله عنها


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. (الأحزاب: ٣٥)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من العلماء إنها نزلت عندما سألت أم سلمة وأم عمارة ما بال الرجال يُذكرون ولا تذكر النساء..؟

قاله مقاتل بن سليمان.

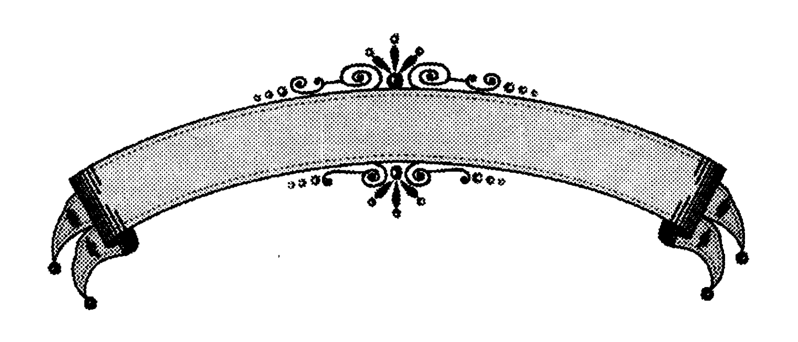
وذكره ابن الجوزى فى التفسير ج ٦ ص٣٨٤.

وذكره القرطبى فى التفسير ج ٧ ص١٨٥.

وذكره السيوطى فى الدور المنشور ج٥ ص ٢٠٠

وحسنه الترمذى والطبرانى وابن مردويه

فمن هى أم عمارة.. رضي الله عنها؟

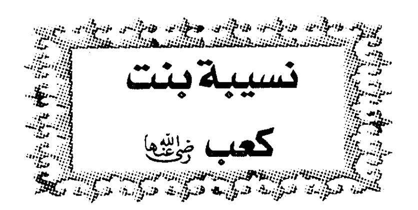


قال الرسول - ﷺ -:

لما كان يوم أحد حضرته نسيبة بنت كعب:

«ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى».


نسيبة بنت كعب
رضى الله عنها



حياتها ونشأتها

عملاقة من عمالقة المجاهدات.

وأم مثالية ربت فأحسنت التربية وخرّجت العديد من فرسان مدرسة النبوة وامرأة عميقة الإيمان كأنها تنظر إلى ربها بعينيها. فهى القانتة العابدة المتهجدة بالأسحار.

وهى من أولئك الأنصار الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

نعم الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين بهذا الحب الكريم وطوقوهم بهذا البذل السخى الذى يدل على الكرم والأريحية. وبهذه المشاركة الرضية وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر فى دار الأنصار إلا بقرعة.

لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين، لقد كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا من قمم الحب والمشاركة، لقد قام الأنصار بالبذل الكبير.

بذل المال بكل أنواعه.

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

بذل فى العاطفة الجياشة المؤمنة.

وبذل فى الجهد الذى لا يقف عند حد.

وبذل للحياة نفسها فى سبيل نصرة المؤمنين الذى تركوا الديار والمال والولد.

إسلام نسيبة بنت كعب..

كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على الوفود التى تأتى إلى مكة ويدعوهم إلى الإسلام فالتقى ﷺ فى أحد المواسم بوفد من يثرب فقال لهم ﷺ: من أنتم..؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال ﷺ: أمن موالى يهود..؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم..؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه. فدعاهم إلى الله عز وجل. وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم.

وكان أهل يثرب أهل شرك وأصحاب أوثان. وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: «إن نبيّاً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض ياقوم: تعلموا والله أنه للنبى الذى توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه.

عندها: أجابوا الرسول ﷺ فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ثم قالوا: إذا تركنا قومنا وبيننا من العداوة ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك.

ثم انصرفوا إلى قومهم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

بيعة العقبة الأولى بين أهل يثرب والرسول ﷺ

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا. فبايعوا رسول الله ﷺ وذلك قبل أن تفرض الحرب.

عن عبادة بن الصامت قال كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ﷺ. وذلك قبل أن تفرض الحرب على الآتى:

أولاً: لا نشرك بالله شيئاً فهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثانياً: لا نسرق ولا نسطو على أموال الغير صغيراً أو كبيراً.

ثالثاً: ولا نزنى أى نرتكب الفحشاء ولا نسطو على أعراض الغير.

رابعاً: ولا نقتل أولادنا - كما يحدث فى الجاهلية وقد نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(١) .

وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾(٢) .

خامساً: ولا نأتى ببهتان نفترينه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف فإن وفيتم فلكم الجنة.

وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب، وإن شاء غفر لكم.

فلما أراد القوم الانصراف. بعث رسول الله ﷺ معهم الصحابى الفقيه مصعب بن عمير رضي الله عنه.

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١. (٢) سورة الإسراء آية رقم: ٣١.

وأمـره ﷺ: أن يدعـوهم إلى الإسـلام ويعلمـهم أركـانه وقـواعـده وأن يقرئهم القرآن ويرتله لهم ترتيلا. ويفقههم فى الدين. وتعاليمه.

ثم ماذا: رحل معهم مصعب وكان له دور كبير فى نشر الإسلام فى ربوع يثرب.

نسيبة بنت كعب فى بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رضي الله عنه رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى موسم الحج حتى قدموا مكة حين أراد الله سبحانه وتعالى ما أراد من كرمه. أن يحقق النصر لرسوله - ﷺ وأن يعز الإسلام وأهله وأن يذل الشرك وقومه.

يقول البراء فذهبنا نبحث عن الرسول ﷺ فلقينا رجلا من أهل مكة، فسأناه عن رسول الله ﷺ.

فقال: هل تعرفانه..؟

فقلنا: لا.

قال: فهل تعرفون العباس بن عبدالمطلب عمه..؟

قال: قلنا نعم نعرفه لأنه كان يقدم علينا تاجراً.

قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس. ورسول الله ﷺ جالس معه. فسلمنا عليه ثم جلسنا إليه فقال الرسول ﷺ «هل تعرف هذين الرجلين..؟ يا أبا الفضل.

قال نعم: هذا البراء بن معرور سيد قومه. وهذا كعب بن مالك.

قال: فوالله ما أنسى قول الرسول ﷺ: آلشاعر...؟

قال: نعم.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها وكنا نكتم عن قومنا من المشركين أمرنا.

قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا - حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد الرسول ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة. ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة. وأسماء بنت عمرو بن عدى. إحدى نساء بنى سلمة.

قال: فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاء ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه :

قال: يامعشر الخزرج: إن محمداً آمناً حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم. واللحوق بكم.

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه. فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: لقد سمعنا ما قلت.

فتكلم يارسول الله ﷺ : فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيد الرسول ﷺ ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق نبيّاً لنمنعك مما نمنع نساءنا وأولادنا فبايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحروب. وأصحاب السلاح ورثناها كابرا عن كابر.

ثم وقف الهيثم بن التيهان رضي الله عنه فقال: يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود.

فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا..؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم (١).

أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وتمت البيعة بين الرسول ﷺ وبين القوم ومعهم نسيبة بنت كعب وعادت نسيبة إلى يثرب مرة أخرى لتنضم إلى فريق الدعاة إلى الإسلام ونشر دين الله فى أركان الأرض الأربعة.

نسيبة بنت كعب فى غزوة أحد

نسيبة الفارسة التى لا يشق لها غبار.

نسيبة المحاربة بالسيف والرمح والترس. نسيبة التى تدخل المعركة وتريد أن تنال الشهادة بعد أن تجندل الفرسان شهدت أم عمارة أُحداً مع زوجها وابنيها.

خرجت معهم بقربة فى أول النهار تريد أن تسقى الجرحى. ولكن أجبرها المشركون على القتال وأبلت بلاء حسناً حتى أصيبت باثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف..؟؟

قالت أم سعيد بنت الربيع. دخلت على نسيبة بنت كعب فقلت حدثينى خبرك يوم أحد. قالت: «خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله فجعلت أباشر القتال وأدافع عن رسول الله. بالسيف وأرمى بالقوس حتى خلصت إلىَّ الجراح.

قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف. فقلت: يا أم عمارة من

(١) أى دمى دمك وهدمي هدمك.

أصابك هذا..؟

قالت: ابن قميئة. وقد ولى الناس عن رسول الله فجاء يصيح: دلونى على محمد لا نجوت إن نجا فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه وكنت فيهم فضربنى هذه الضربة. ولقد ضربته على ذلك ضربات. ولكن عدو الله كان عليه درعان.

ولقد قاتلت نسيبة أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاث عشرة جرحاً ولذلك قال الرسول ﷺ لها: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة، وبشرها رسول الله ﷺ بصحبته هى وأسرتها فى الجنة: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(1) .

بيعة الرضوان...

خرج رسول الله ﷺ فى ذى القعدة معتمراً لا يريد حرباً. ومعه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه. وليعلم الناس: كل الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له فلما أقترب رسول الله ﷺ من ثنية المرار قرب مكة بركت ناقته.

فقالت الناس خلأت الناقة.

قال عليه السلام: ما خلأت وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم أرسلت قريش عروة بن مسعود إلى الرسول ﷺ فلما جاء قال: يامحمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

(1) سورة القمر آية رقم ٥٥.

فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم رسل قريش قبله وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

فقام عروة بن مسعود من عند الرسول ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه.

لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضوءه.

ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه.

ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه.

فرجع إلى قريش وقال لهم: يامعشر قريش، إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه. والنجاشى فى ملكه.

وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً فروا رأيكم..؟

ثم أرسل الرسول ﷺ عثمان فخرج إلى مكة وانطلق حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به.

فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال عثمان ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

نسيبة بنت كعب وبيعة الرضوان

قال رسول الله ﷺ عندما بلغه مقتل عثمان: «لانبرح حتى نناجز القوم».

ودعا ﷺ إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(١) .

لقد علم الله ما فى قلوب المؤمنين الذين يبايعون تحت الشجرة علم ما فى قلوبهم من صدق وإخلاص لدينهم علم ما فى قلوبهم أنهم صادقون فى بيعتهم لرسولهم على ما فى قلوبهم من كظم الانفعالات تجاه طغيان وتسلط قريش. على ما فى قلوبهم من استجابتهم لأمر الرسول ﷺ. وأثابهم فتحاً قريباً: هو هذا الصلح بظروفه التى جعلت منه فتحاً.

ولقد كانت نسيبة بنت كعب إحدى المبايعات للرسول ﷺ ومعها مجموعة من المؤمنات المجاهدات والداعيات لدين الله والعاملات فى حمل المياه للجنود لإطفاء ظمئهم. وتضميد جروحهم. ودفعهم إلى الحمية والقتال فى سبيل الله كما أمرهم الله بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾(٢) .

ثم ماذا .. كان الصلح. وكان السلام.

ونزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣) .

(١) سورة الفتح الآيات من: ١٨ ـ ٢٠. (٢) سورة التوبة آية رقم: ٢٩.

(٣) سورة الفتح آية رقم: ١٠.

لقد جاء الرسول ﷺ ليصل هؤلاء المؤمنين بربهم ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع. فالرسول ﷺ حين يضع يده فى أيديهم مبايعاً يبايع عن الله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (١).

وكل مسلم يضع يده فى يد الرسول يشعر أن يد الله فوق أيديهم فالله حاضر البيعة والله صاحبها. صاحبها بقوته وإرادته. صاحبها بعظمته وكبريائه. صاحبها بقوله للشىء كن فيكون.

فهنيئاً لك يا نسيبة بنت كعب ومعك كل المؤمنين الذين بايعوا هذه البيعة التى هى لله وفى سبيل دينه وكونه وعظمته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٢).

نسيبة بنت كعب فى غزوة خيبر

خرج النبى ﷺ إلى خيبر. وحاصر حصنهم. حتى إذا أيقنوا بالهلاك. سألوا الرسول ﷺ أن يجليهم من حصنهم ويحقن دماءهم فاستجاب الرسول ﷺ لطلبهم وقاسمهم نصف أموالهم. لذا كانت خيبر فيئاً بين المسلمين.

وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأن المسلمين لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب أى لم يكن بين أهل فدك والمسلمين قتال. ولما استسلمت خيبر وتوقف القتال. أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودى. شاة مشوية مسمومة. وقد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله..؟

فقيل لها: الذراع.

عنده أكثرت فيه السم.

ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدى الرسول ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها.

(١) سورة التوبة آية رقم: ١٠.

(٢) سورة يس آية رقم: ٨٢.

وكان معه بشر بن البراء بن معرور. قد أخذ منها كما أخذ الرسول ﷺ وأكلها. وأما الرسول فلفظها وقال: «إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم..»؟

ثم طلب هذه المرأة التى قدمت الشاة المسمومة فاعترفت..؟؟

فقال لها ﵇: ما حملك على ذلك..؟

قالت: لقد فعلت فى قومى ما لا يخفى عليك.

فقلت: إن كان ملكاً استرحنا منه. ومن بطشه بنا وقتله رجالنا وأبنائنا. وإن كان نبيّاً: فسيخبره ولا يضره.

قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ. ومات بشر ﵁ من أكله الذى أكل.

ولقد شهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين.. عن امرأة من بنى غفار قالت: «أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من بنى غفار فقلنا: «يارسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر فنداوى الجرحى. ونعين المسلمين بما استطعنا.

فقال على بركة الله.

قالت فخرجنا معه - وكانت تحركنا وتشير علينا نسيبة بنت كعب ﵂.

نعم نسيبة: بطلة الجهاد والقتال.

نسيبة التى كانت تدخل المعارك التى تقام بين المسلمين وأعدائهم ولا تطلب إلا النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله.

ولما فتحت خيبر تقول أم عمارة نسيبة بنت كعب «قد أعطى رسول الله ﷺ النساء اللاتى كن معه بعض الغنائم، وأخذت أم عمارة نصيبها من مغانم خيبر خرزاً، وبعض الملابس وديناري.

يقول عبدالله بن كعب أخو أم عمارة رأيت فى رقبتها خرزاً أحمر فسألتها عن الخرز.

فقالت:أصاب المسلمون خرزاً فى حصن الصعب بن معاذ. أحد حصون خيبر وهو مدفون فى باطن الأرض فأتى به إلى رسول الله ﷺ فأمر بمن معه من النساء عن عددكن فكانوا عشرين امرأة.

فقسم الرسول ﷺ الخرز بيننا. وأعطى كل واحدة من الفىء قطيفة وبرداً يمانيّاً ودينارين.

وانداحت دعوة الإسلام فى فجاج الأرض لتعلن وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له ولا ولد وتهاوت الأوثان والأصنام وارتفع صوت المؤذن عاليا مجلجلاً فى أنحاء المعمورة حتى قال شاعر المسلمين يصف المد الإسلامى الكبير.

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم
وبعدها ملئوا الآفاق تمدينا
لو كبرت بآفاق الصين مئذنة
سمعت فى الغرب تهليل المصلينا

رحم الله هؤلاء الأبطال الذين أشاعوا الإسلام فى رحاب السند والهند ووصلوا إلى أوروبا وتوغلوا فيها حتى وصلوا إلى فينا واتجهوا إلى روسيا.. ودانت لهم بخارى وسمرقند والقوقاز وطشقند وسيبريا.ويقف قائدهم على شاطئ البحر المحيط. قائلا: «والله لو أعلم أن خلف هذا البحر قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس».

نسيبة بنت كعب في غزوة حنين...

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١) .

إن معركة حنين يذكرها السياق فى الآيات ليعرض نتائج الانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته.

إن الكثرة العددية ليست بشىء إنما القلة العارفة المتصلة بالله هى الثابتة المتجردة التى تحقق النصر بأمر الله تعالى. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً على الهزيمة. لأن بعض الداخلين فيها التاهئين فى غمارها تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة.

عندها يشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف فوق ماتخدع أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة والانتباه لسر تحقيق النصر والعوامل المؤدية إلى ذلك.

تقول أم عمارة نسيبة بنت كعب ﵂ «لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه، وأنا وأربع نسوة فى يدى سيف صارم، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها وأم سليط، وأم الحارث.

ثم أنظر فأرى رجلاً من هوزان على جمل أورق معه لواء يضع جمله وسط المسلمين فاعترضت له وضربت عرقوب الجمل عندها سقط الرجل من على جمله فتقدمت إليه ولم أزل أضربه بسيفى حتى أثبته وتركت الجمل يخرخر وهو ينقلب ظهراً لبطن.

ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده وهو ينادى: يا أصحاب سورة،

(١) سورة التوبة الآيات: ٢٥، ٢٦.

البقرة يا أصحاب بيعة الرضوان: هلموا إلىَّ عندها كر المسلمون وجعلوا يرددون «ياخيل الله أركبى» وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله: خيل الله. وجعل شعار المهاجرين بنى عبدالرحمن وجعل شعار الأنصار بنى عبيدالله. فكرت الأنصار: ووقفت هوازن مقدار حلب ناقة ثم كانت الهزيمة لهم.

تقول نسيبة بنت كعب: فو الله ما رأيت هزيمة مثلها حيث ذهبوا فى كل وجه ورجع ابناى حبيب وعبدالله ابنا زيد بأسارى من هوازن مكتفين فقمت من الغيط فضربت عنق واحد منهما بسيفى فسقط قتيلا ثم توالى أسرى هوازن بأيدى المسلمين وصدق وعد الله للمسلمين بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١) .

نسيبة بنت كعب أم الشهيد

قتل حبيب ابنها شهيداً فاحتسبته صابرة عند الله تعالى:

صبرت على فراقه ولكنها فرحت لاستقراره فى الفردوس الأعلى. وكيف لا تفرح وتغتبط والله سبحانه وتعالى يخبر أنهم أحياء لا أموات فى رحابه وذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾(٢) .

فهم فى حياة دائمة مستمرة وليست فانية.

ولديهم الرزق الطيب من جنة عدن والتى حوت كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

من لبن لم يتغير طعمه ومن عسل مصفى لا شوب فيه.

ومن خمر لذة للشاربين ومن ماء غير آسن.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٢٦. (٢) سورة آل عمران آية رقم: ١٦٩، ١٧٠ .

وهذه الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم.

ولاستشهاد ابنها قصة رائعة تخبر عن موقف لايقل فى روعته عن مواقف أمه المجاهدة المقاتلة.

لقد صبر وصمد وقاتل وقتل وأفسح الطريق أمام الدعوة الخاتمة ودين الله الذى أرسل الله به رسوله.

وقصة الاستشهاد للبطل المغوار والصاحبى الجليل حبيب بن زيد كما ذكرها الرواة.

هى أن مسيلمة الكذاب وفد مع بنى حنيفة على رسول الله ﷺ وأسلموا، ولما رجعوا إلى منازلهم بنجد ارتد مسيلمة وزعم أنه نبى مرسل إلى بنى حنيفة، وتبعه بعض قومه بدوافع مغرضة أهمها العصبية. واستشرى خطر مسيلمة الكذاب وعاث فى الأرض فساداً وهنا برز الشهيد السعيد الصامد ابن أم عمارة حبيب بن زيد أحد نجباء مدرسة النبوة.

الذى رضع حتى الثمالة من نبع الإيمان وفطم على منهل التقوى. وشب من تاريخ شبابه على الجهاد وركوب الخيل وجندلة المشركين بالله. فاختاره رسول الله ليقوم بأداء رسالته إلى مسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه وغيه.

وقام الفارس حبيب بأداء واجبه وسلم الرسالة إلى مسيلمة الكذاب ولكن مسيلمة لم يرع حرمة الرسل. بل قبض عليه وأوثقه بالحبال. وأخذ فى استجوابه.

أتشهد يا حبيب أن محمداً رسول الله...؟

قال حبيب: نعم أشهد ذلك أمام ربى وعند كل الناس.

ثم يقول له مسيلمة الكذاب: أتشهد أنى رسول الله..؟

قال حبيب: أنا أصم فلا أسمع ولا أعى ما تقول..؟

فعل مسيلمة ذلك مراراً ـ وحبيب ثابت على رأيه . فما كان من مسيلمة إلا أن قطعه عضواً عضواً. حتى مات شهيداً فى سبيل الله.

وصعدت روحه إلى بارئها راضية فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقد رثاه مالك بن عمر الثقفى قائلاً.

مضى صاحبي قبلي وخلفت بعده
فكيف بأعضائي البقية أصنع
وقال له الكذاب تشهد أنني
رسول فأومأ أنني لست أسمع
فقال أتشهد أنها لمحمد
فنادى بدعوى الحق لا يتنعنع
فضرّب أم الرأس فيه بسيفه
غوى لحاه الله بالفتك مولع

وانتشر خبر استشهاد حبيب رضي الله عنه ـ ولما بلغ أم عمارة ـ عاهدت الله تعالى على قتل مسيلمة. ثم رضيت بقضاء الله وقدره وصبرت صبراً جميلاً.

نسيبة بنت كعب أم عمارة بطلة معركة اليمامة

أمر الصديق رضي الله عنه بتحرك جيش المسلمين إلى اليمامة بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - لقتال مسيلمة الكذاب المرتد - المدعى للنبوة.

وجاءت الصحابية المجاهدة أم عمارة - وطلبت من أبى بكر الصديق - رضي الله عنه أن يأذن لها بالخروج إلى اليمامة.

وانطلقت أم عمارة رضي الله عنها لتقدم للأمة الإسلامية مواقف لها مضيئة مضافة إلى مواقفها السابقة فى نصرة الإسلام والمسلمين.

وفى أرض اليمامة جاهدت أروع جهاد. وجرحت الكثير من الجراحات رغبة فى أن تلقى مسيلمة الكذاب - الذى فرق أمر المسلمين وأراد أن يشتت وحدتهم ولكنها قبل أن تصل إلى مقر مسيلمة - كانت سيوف المسلمين وسهامهم قد فعلت فعلها مع مسيلمة حتى أردته قتيلاً.

وشاهدت جثته وهى ملطخة بالتراب والدماء - ولاحت منها التفاته - فشاهدت ابنها عبدالله يحمل سيوف الأبطال المغاوير من جند الإسلام والذين قتلوا مسيلمة - لينظفها من دمائه النجسة.

عندها: سجدت أم عمارة شكراً لله - وآمنت إيماناً قويّاً بأن الآجال بيد خالق الموت والحياة فتمتمت بينها وبين نفسها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ (١).

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ (٢).

ورآها خالد تقف متصلبة وهى تتمتم بشفتها بحديث لا يبين فقال لها: ماذا تقولين يا أم عمارة..؟ قالت أردد قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٥. (٢) سورة الجمعة آية رقم: ٨.

(٣) سورة الأعراف آية رقم: ٣٤.

مع الصّديق والفاروق رضي الله عنهما:

كانت أم عمارة- رضوان الله عليها- تحظى بالمكانة اللائقة فى ظلّ الخلفاء الراشدين، فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق- رضي الله عنه - يسأل عنها دائماً ويتفقدُ أحوالها، روى محمد بن يحيى بن حبان هذا فقال:

جُرحتْ أم عمارة بأحد اثنى عشر جرحاً، وقطعت يدها يوم اليمامة، وجرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحًا، فقدمت المدينة وبها الجراحة، فلقد رُئى أبو بكر- رضي الله عنه - وهو خليفة يأتيها يسألُ عنها رضي الله عنها (١).

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب- رضوان الله عليه- ظلت الصحابية المجاهدة تحظى بالمكانة نفسها، فعن موسى بن حمزة بن سعيد عن أبيه قال:

أتى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - بمروط، فكان فيها مِرْطٌ جيد واسع، فقال بعضهم:

إن هذا المرط لثمنه كذا وكذا فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله ابن عمر صفية بنت أبى عبيد، فقال عمر- رضي الله عنه -: أبْعثُ به إلى مَنْ هو أحقُّ به منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتلُ دونى»(٢).

وبقيت أم عمارة رضي الله عنها تحظى بالاحترام والتقدير من جميع الصحابة إلى آخر لحظة من حياتها فى المدينة المنورة رضي الله عنها وأرضاها.

فى الصفحات السابقة، عشنا سعداء مع جهاد أم عمارة فى أحد وفى اليمامة، وشهدنا معها بيعة الرضوان، والمواقف الأخرى المشرفة، والآن نعيش لحظات فى ظلال الذِّكر مع الصَّحابية المؤمنة أمِّ عمارة.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢٦).

فقد ذُكر أن أمَّ عمارة- رضي الله عنها - قالت للنَّبى الكريم ﷺ: يا رسول الله، ما أرى كل شىء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشىء[(١)]. فنزلتْ هذه الآية الكريمة:

أم عمارة والقرآن الكريم

فنزل قول الله تعالى:

﴿ إنَّ الْمُسْلمينَ وَالْمُسْلمَات وَالْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات وَالْقَانتينَ وَالْقَانتَات وَالصَّادقينَ وَالصَّادقَات وَالصَّابرينَ وَالصَّابرَات وَالْخَاشعينَ وَالْخَاشعَات وَالْمُتَصَدّقينَ وَالْمُتَصَدّقَات وَالصَّائمينَ وَالصَّائمَات وَالْحَافظينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافظَات وَالذَّاكرينَ اللَّهَ كَثيراً وَالذَّاكرَات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفرَةً وَأَجْراً عَظيماً ﴾[(٢)].

أمُّ عمارة والحديث النبوى:

بالإضافة إلى حبِّها للقرآن الكريم كانت أمُّ عمارة راوية للحديث النبوى الشريف، فقد ذكر الذهبى- رحمه الله- أن أم عمارة قد روى لها أحاديث[(٣)].

روى عن أم عمارة ابن ابنها عبّاد بن تميم بن زيد، وابن أخيها الحارث ابن عبد الله بن كعب، وعكرمة مولى ابن عباس، وأم سعد بنت سعد بن الربيع، كما روى لها الإمام الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم.

ومن مرويات الصَّحابية التّقية المؤمنة أمّ عمارة أن النبى ﷺ دخل عليها فقدمت إليه طعاماً فقال: «كلى» فقالت: إنّى صائمةٌ، فقال: «إن الصائم إذا

(١) انظر كتاب: أسباب النزول عن الصحابة، والمفسرين للشيخ عبد الفتاح القاضى (ص١٨٠)، والاستبصار (ص٨٣)، والاستيعاب (٤/ ٤٥٦).

(٢) سورة الأحزاب آية رقم: ٣٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨)، وانظر فى هذا أيضاً تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٧٤)، والإصابة (٤/ ٤٠٤). ذكر محمد بن علان الصديقى الشافعى فى كتابه النفيس المبارك «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» أن أم عمارة روى لها أصحاب السنن ثلاثة أحاديث وذكر حديث الصيام. انظر دليل الفالحين (٧/ ٧٤).

أكل عنده صلت عليه الملائكة»(١).

وأخرج ابن منده عن أمِّ عمارة بنت كعب قالت: أنا أنظرُ إلى رسول الله ﷺ وهو ينحر بدنة قياماً بالحربة(٢).

بشارتها بالجنة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣).

تحتلُّ أم عمارة نسيبة بنت كعب- رضي الله عنها- مكانة عاليةً بين النساء الصحابيات، فقد قدَّمت للإسلام كل ما تستطيع لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى.

وفضلها فى مجال العبادة والصّلاح يفوح بالطيب، وقصص جهادها وثباتها إمتاعٌ للأسماع، وظلت تجودُ بالعطاء المثمر فى جميع المجالات إلى أن لقيت ربها راضية مرضية- رضي الله عنها وأرضاها(٤)-.

أما عن بشارتها العظمى، فقد نالت ذلك فى يوم أحد مع أهل بيتها، حيث قال لهم النبىُّ الكريم ﷺ وهم حوله عند اشتداد المعركة: «رحمكم الله أهل البيت» فقالت له أم عمارة- رضي الله عنها- : ادعُ الله أن نرافقك فى الجنة، فقال ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة» فقالت: ما أبالى ما أصابنى من الدُّنيا»(٥).

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، وانظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٦)، والاستيعاب (٤١٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣١١).

(٢) المغازى (٢/ ٦١٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٥٤٢).

(٣) سورة الحديد آية رقم: ١٢.

(٤) ذكر الزركلى فى الأعلام (٨/ ٣٣٤) أنها توفيت سنة ١٣ هجرية.

(٥) انظر المغازى (١/ ٢٧٣)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٠٩).

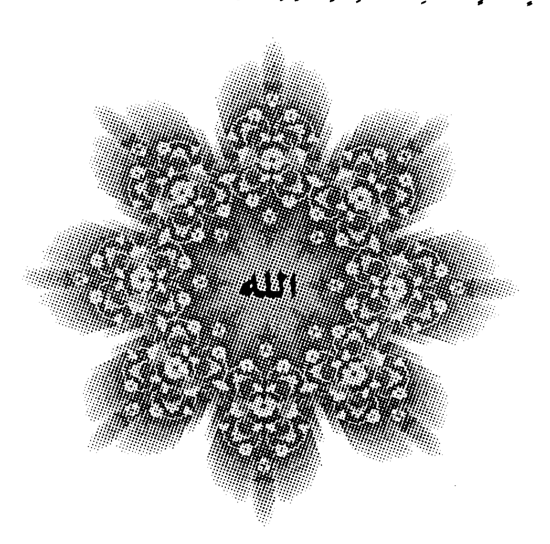
وقد حظيت نسيبة من قبل أحد ببشارتها بالجنَّة- عند العقبة- فهى عقبية، كما حظيت بعد أحد ببشارة عظمى وشهادة إلهية موقّعة من ربِّ العالمين بالرِّضوان وذلك فى بيعة الرضوان، وفى حُنين كانت من المئة الصابرة الذين تكفَّل بأرزاقهم وأرزاق عيالهم فى الجنة.

والآن، فهذه رحلة شائقة قضيناها فى رحاب الصحابية أمِّ عمارة الأنصارية الكريمة المعطاء، هذه الصحابية كانت من الأنصار الذين قال فيهم كعب بن زهير يذكر فضلهم وأعمالهم الطيبة مع النبى الكريم ﷺ:

ورثوا المكارم كـــابراً عن كـــابر

إنَّ الخـــيـــار هُمُ بنو الأخـــيـــار

وبعد، رحم الله أم عمارة نسيبة بنت كعب، ونضَّر الله قبرها، ورضى عنها وأرضاها، ومع وداع سيرتها العطرة المباركة نقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (١).



(١) سورة القمر الآيتان: ٥٤، ٥٥.


تـــذيـــــل
وظيفة المرأة المسلمة

وظيفة المرأة المسلمة

من تكون المرأة المسلمة..؟ وأى الأعمال نختار لها..؟ أهى المرأة التى تهجر بيتها وتترك أطفالها لتساهم فى الحياة العامة..؟

أم أنها المرأة التى تدرس لتحصل على أرقى الشهادات، وأكبر الدرجات العلمية متجاهلة وظيفتها الأساسية ورسالتها فى الحياة...؟

أم أنها المرأة التى تجلس فى بيتها لا تفكر فى عمل وتساهم فى حياة وتترك أعباء بيتها وأولادها على زوجها..؟

إن المرأة فى نظر الإسلام ليست هذه ولا تلك، ولكن المرأة هى التى تعرف حقيقة وضعها، وتقوم بأعباء وظيفتها، وتساهم فى حل مشكلة الحياة مع زوجها. تقول أم المؤمنين السيدة عائشة- رضي الله عنها

«المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله».

ورأت أثر المغزل فى يد امرأة فقالت:

«أبشرى بما لك عند الله عز وجل. لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لم أقررتم ليلاً ولا نهاراً».

ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاها الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلها، فإذا ملأت مغزلها أعطاها الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب، ولها بكل ثوب حسنة، وما على ظهر الأرض تسبيح يعد عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهى إلى العرش له دوى كدوى النحل، ويعدل عند الله عز وجل منزلة كبيرة.

ثم قالت: بلغوا عنى النساء ما أقول: ما من امرأة غزلت حتى كسيت

نفسها إلا إستغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة. إلى أن قالت: أبشروا معاشر النساء مالكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن. أنتم المساكين فى الدنيا، والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لكن كل ذنب عملتهن ما خلا الكبائر».

إن أم المؤمنين تهيب بالنساء أن يعملن فى داخل بيوتهن والعمل الذى يناسب وظيفتهن.

أما هذا التبذل الرخيص الذى نشاهده اليوم فهى تنهى عنه.

إن المرأة تستطيع عن طريق المغزل أو الوسائل الحديثة «كالتريكو» وخلافه أن تساهم فى التخفيف عن ميزانية المنزل، وبذلك تحل الكثير من المشاكل وهو عمل يقابله أجر كبير.

إن الملائكة تبارك هذا العمل.

والمؤمنون فى كل عصر ومصر يشجعون عليه، لأنه عند الله عبادة، وعند الزوج مشاركة، وعند الأبناء بر ووفاء.

وتسأل أم المومنين عن أفضل النساء فتقول:

«هى التى لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدى لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء فى الصيانة على أهلها».

إن المرأة العاقلة التى تأدبت بأدب الإسلام لا تعرف فحش القول ولا سلاطة اللسان.

فهى عفيفة فى قولها.

صادقة فى حديثها.

أمينة على عرضها.

وهى من قبل هذا ومن بعده تهتم بزينتها من أجل زوجها، تسر بمظهرها كما تسر بمخبرها. هذه المرأة بهذا العمل تعف نفسها، وتصون زوجها وتجمل

الحياة بأخلاقها، وحسن معاملتها لزوجها.

ثانياً: أ- الدستور الإسلامى الذى يقام عليه دعائم الأسرة المسلمة..

كيف نحافظ على دعائم الأسرة المسلمة فلا تتصدع..؟

وعلى سعادتها فلا تتبدد.؟

وعلى أمنها فلا يتبخر...؟

الحقيقة أن السعادة لن توجد بالكامل إلا إذا تلقت الفتاة فى بيت أبيها حسن معمله زوجها، وشاهدت بعينها أسس الاحترام المتبادل بين أبيها وأمها- هذا أولاً.

وثانياً: ب- أن يتلقى الزوج المبادئ الأولى لحسن معاملة الزوج لزوجته على يد والده عندما يشاهده يحسن معاملة زوجته- يعودها إن مرضت أو ضجرت.

ويخفف عنها إن تعبت، أو تألمت.

ويشاركها فى أعمال بيتها ورعاية أبنائهما إن ثقلت عليها الأعباء أو كثرت عليها المطالب.

وهذه المشكلة هى أخطر المشاكل على الإطلاق وقد استفحل أمرها، وأصبحت كالقنبلة الموقوتة- وعلى الدولة الإسراع فى وضع الحلول لها. ولا نراها إلا كذلك.

ونتساءل كيف يفكر الشباب فى الزواج وهو لا يجد قوت يومه أو ما يسد عوزه وحاجته..؟

ونرجو ألا تتوانى الدولة فى حل هذه المشكلة أكثر من ذلك حتى لا يكون هلاك محقق ودمار محتوم لهذا الشباب الذين هم ركيزة الدولة وحصنها الحصين فى السلم والحرب. فى الإنتاج والتصنيع.

منهج الإسلام فى معالجة مشكلة العنوسة

تكلمنا فى هذا المقال عن العقبات التى تحول بين الشباب والإقدام على الزواج وتكوين أسرة.

ونتساءل هل يجوز للأب أو ولى أمر الفتاة أن يتقدم لشاب تتوافر لديه متطلبات- الزواج ويخطبه زوجاً لابنته؟

ونضيف: فإذا كان هذا جائزا شرعاً ولا محاذير عليه فهل حدث فى الأزمنة السابقة من قام بعرض ابنته على راغبى الزواج من الرجال؟ نعم إن صاحب كتاب «تاريخ الرسل والملوك» يقدم لنا أول حادثة عرض للزواج من نوعها وكانت فى عهد النبى صالح عليه السلام وكانت الحادثة الثانية التى ذكرها القرآن عندما قال شعيب لموسى بن عمران عليهما السلام ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ (١).

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى عرضها فى غير تحرج ولا التواء فهو يعرض زواجاً يعرض بناء أسرة وإقامة مجتمع وليس فى هذا ما يخجل منه ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد أو الإشارة عن بعد، أو التصنع والتكلف مما نشاهده فى هذه البيئة التى نعيش فيها والتى لا تعبر عن الفطرة السليمة وتخضع للتقاليد المصطنعة والتى تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه كفاءته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم، ولا يليق أن يجئ العرض من الجانب الذى فيه المرأة.

ثالثاً: أن يلتزم كل من الزوجين بتعاليم الإسلام تجاه الآخر وأن يقتدى الرجل بأعمال الرسول- ﷺ - فى بيته وأن تتبع الزوجة منهج أمهات المؤمنين فى معاملة الرسول - ﷺ.

ومن الأشياء التى لا تبلى ولا يمكن أن تنسى على مر الأيام تلك الوصية الغالية التى قدمتها امرأة عوف الشيبانى إلى ابنتها عندما زفت إلى ملك كندة.

(١) سورة القصص الآية رقم:٢٧.

وصية الأم إلى ابنتها...

قالت الأم: أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة يكن لك عبداً، واحفظى له عشر خصال يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية : فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن والماء والصابون أطيب الطيب.

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة : فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وحشمه وعياله.. وملاك الأمر فى المال حسن التدبير.

أما التاسعة والعاشرة: فلا تفشى له سرّاً، ولا تعصى له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره. ثم التوقى مع ذلك الفرح إن كان حزيناً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً.

وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لك مرافقة، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك.

إن هذه الوصية فى الحقيقة تعتبر بحق دستوراً للأسرة لو سارت عليها كل فتاة، إنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة فى الحياة الزوجية إلا وأشارت إليها.

لقد أمرتها بطاعة زوجها والاستماع له. وقد حث الرسول - ﷺ - على هذه الطاعة بقوله:

ثلاثة لا تمسهم النار.

المرأة المطيعة لزوجها.

والولد البار بوالديه.

والعبد القاضى حق الله وحق مولاه.

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين أم سلمة: إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت المغزل بين يديها، كانت كأنها تسبح لله تعالى.

ثم ماذا ..؟ أمرتها أن تتزين لزوجها، وأن تتجمل له، وبينت لها أساليب الجمال ووسائله قائلة:

«الكحل أحسن الحسن، والماء والصابون أطيب الطيب».

والرسول- ﷺ - يقول:

«جهاد المرأة حسن التبعل أى طاعة الزوج والتزين له»[1].

وقيل يا رسول الله: أى النساء أفضل...؟

فقال: التى تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر[2].

وأمرتها بالقناعة، والقناعة فى الأسرة دعامة من دعائم السعادة، ومرهم يطبب الجروح التى تتعرض لها أيام أزماتها المالية والاقتصادية.

ويقال: إن رجلاً صالحاً هم بالسفر، فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره، ولم يدع لك نفقة...؟

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عند النسائى ٦: ٨٦ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣: ٣٥١ أى النساء خير..؟
قال: التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره.

فقالت: زوجي- منذ عرفته- عرفته أكّالاً وما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق يذهب الأكال ويبقى الرزاق.

وأمرتها بالمحافظة على ماله والحرص عليه- والرسول- ﷺ يقول: «لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فساده، فإن أطعمت- عن رضاه- كان لها مثل أجره وإن أطعمت- بغير إذنه- كان له الأجر وعليها الوزر»[1].

وقالت امرأة يا رسول الله: إنا كَلٌّ على آبائنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم.؟

قال: الرطب تأكلنه وتهدينه.

نماذج من الحياة فى البيت المسلم

قال شريح القاضى: يحدث الشعبى عن زوجته زينب ابنة جرير إحدى نساء بنى حنظلة:

فلو رأيتنى يا شعبى وقد أقبل نساؤها يهدينها حتى أدخلت علىَّ؟ فقلت من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلى ركعتين فيسأل الله من خيرها، ويعوذ به من شرها قائلاً:

«اللهم إنى أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه.

فصليت وسلمت، فإذا هى من خلفى تصلى بصلاتى، فلما خلا البيت ودنوت منها، ومددت يدى إلى ناصيتها قالت:

«على رسلك يا أبا أمية كما أنت» ثم قالت:

«الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى على محمد وآله، إنى امرأة غريبة ولا علم لى بأخلاقك فبين لى ما تحب فآتيه، وما تكره فأبتعد عنه.

وقالت: إنه كان لك فى قومك منكح وفى قومى مثل ذلك، ولكن إذا قضى

(١) رواه البيهقى بنحوه من حديث ابن عمر: ٤: ١٩٤ فى الزكاة.

الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولك.

قال شريح: فأحوجتنى والله يا شعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى وأسلم على النبى وآله. وبعد فقد قلت كلاماً إن تثبتى عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجته عليك. أحب كذا وأكره كذا ونحن سواء فلا تخافى.

وما رأيت من حسنة فانشريها أو سيئة فاستريها.

قالت: كيف محبتك لزيارة الأهل..؟ قلت: ما أحب أن يملنى أصهارى؟؟

قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل بيتك آذن له. ومن تكرهه فلا نقترب منه؟

شريح: بنو فلان قوم صالحون. وبنو فلان قوم سوء.

قال شريح: فبت ليلتى أنعم بها ومكثت معى حولاً لا أرى إلا ما أحب فلما كان الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى فى البيت قلت: من هذه؟

قالوا: فلانة حماتك. فسرى عنى ما كنت أجد.

فلما جلست أقبلت العجوز وقالت: السلام عليك يا أبا أمية.

قلت: وعليك السلام من أنت؟

قالت: أنا فلانة حماتك.

قلت: قربك الله.

قالت: كيف رأيت زوجتك؟

قلت: خير زوجة.

فقالت: يا أبا أمية: إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها فى حالتين إذا ولدت غلاماً أو حظيت بقلب زوجها. فإن رابك ريب فعليك بالسوط. فوالله

ما حاز الرجال فى بيوتهم شرّاً من المرأة المدللة.

قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورُضت فأحسنت الرياضة.

قالت: تحب أن يزورك أصهارك؟

قلت: متى شاءوا.

قال شريح: فكانت تأتينى فى رأس كل حول توصينى تلك الوصية فمكثت معها عشرين سنة لم أعتب عليها فى شىء إلا مرة واحدة كنت لها ظالماً(١).

من أجل هذا كانت الأسرة المسلمة لمعة مضيئة فى ظلام الدجى واستطاعت هذه الأسرة أن تقدم الرجال الأبطال الذين حملوا مشعل الهداية فى يد، وسيف الحق فى اليد الأخرى وانداحوا فى أربعة أركان الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين.

إن المرأة المطيعة لزوجها لهى أغلى الكنوز التى يجب أن يحرص عليها الرجل وأن يحيطها بكل الرعاية والحنان.

إن طاعة المرأة لزوجها هى قوام دعائم السعادة فى الأسرة. ومن هنا كانت وصايا الرسول ﷺ والحث عليه بقوله:

«ثلاثة لا تمسهم النار: المرأة المطيعة لزوجها، والولد البار بوالديه، والعبد القاضى حق الله وحق مولاه»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين «أم سلمة» إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت المغزل كانت كأنها تسبّح لله»(٣).

---

(١) المرأة فى التصور الإسلامى- عبد المتعال محمد الجابرى. (٢) المصدر السابق.

(٣) لم نقف عليه، ويغلب على الظن أنه لا يصح من أجل الفقرة الأخيرة، ويغنى عنه حديث أبى هريرة المرفوع: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت» أخرجه ابن حبان (١٢٩٦). وهو حديث صحيح بشاهديه عن عبد الرحمن بن عوف ، وأنس بن مالك انظر «المجمع» ٤/ ٣٠٥، ٣٠٦.

وقيل له أىُّ النساء أفضل؟..

فقال ﷺ: التى تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر»(١).

والملامح النبيلة للمرأة المسلمة نراها فى الخنساء التى جاهدت فى حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية، واشتركت فيها بأبنائها الأربعة وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى جمعتهم وقالت لهم:

«يا بنى إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذى لا إله غيره إنكم بنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها، واضطرمت فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة.

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب. فتقدم أبناؤها الأربعة واشتدوا على عدوهم غير مبالين بالموت. حتى قضوا نحبهم جميعاً. ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء. لم تجزع بل قالت: الحمد لله الذى شرفنى بهم.

لقد غربت الشمس بأبنائها الأربعة فلم تجزع لأنها تعلم أن شمسهم توشك على الشروق فى آفاق الفردوس الأعلى. وأنهم سوف يقدمونها على بوارق أنهار الجنة وهى تختال بينهم وتفاخر باستشهادهم.. إن رائدات

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٦٤) عن ابن عباس، والنسائى ٦/ ٦٨ عن أبى هريرة، وابن ماجه (١٨٥٧) عن أبى أمامة.

(٢) سورة آل عمران، الآية رقم ٢٠٠.

النهضة النسائية فى بلادنا أقصر باعاً وأنزل رتبة من أن يقفن هذا الموقف.

فإحداهن تكره أن تكون أماً لأربعة، ولو فرضت عليها الأقدار، أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيهم وتوصيهم حتى يبلغوا هذه الذروة.

إنها تريد أن تكون «رجلة» (١) تتولى عملاً فى المجتمع من هذه الأعمال التى تليق بالجنس الخشن ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها.

إننا فى هذا الكتاب نقدم نماذج من الأمهات المسلمات. والزوجات المطيعات. والمؤمنات القانتات...

نقدم الزوجة التى تفانت فى حب زوجها فرصدت حياتها له.

ونقدم الفتاة التى عرفت طريق الحق. فتركت الأب والأم والأخ والأخت وهاجرت إلى الله. وفرت بدينها.

نقدم المرأة التى صُبَّ عليها العذاب صبّاً لتفارق دينها.. وتكفر بربها.. فاحتملت العذاب صابرة حتى أنقذها الله مما هى فيه. إنهن النساء اللاتى أنزل الله فيهن قرآناً. وهدفنا فى النهاية أن نقدم القدوة والمثل للفتاة المسلمة. حتى نعيد للأسرة كيانها وتماسكها. ووظيفتها الأساسية فى صنع الرجال. فهل نحن فاعلون؟

نرجو من الله العلى القدير أن يوفقنا إلى ذلك.

---

(١) ركائز الإيمان- الشيخ محمد الغزالى.



سهلة بنت ملحان


بسم الله الرحمن الرحيم



حياتها ونشأتها

قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - لا تغالوا فى صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ- ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة فى نفسه. ويقول: قد كلفت إليك علق القربة أو عرق القربة. «رواه ابن ماجه فى سننه»

فوق الصحراء الممتدة الصافية عرفتها الحياة طفلة وشابة، وعلى ثراها الطيب الطاهر الذى خرَّج هؤلاء الرجال المغاوير الذين حملوا دين الله وانداحوا به فى أربعة أركان الأرض كانت حياتها وآمالها.

من هذه الفتاة التى سجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور..؟

إنها سهلة بنت ملحان..

فتاة الصحراء، وربيبة البادية، والتى عرفت بين لداتها وأترابها بأنها صبوحة الوجه، صافية القلب، نقية السريرة، سليمة الخلقة، جميلة العينين.

ولقد كانت دائماً موضع اهتمام الشباب ومحط آمالهم لتكون زوجة صالحة وأماً حانية، وزهرة فواحة بالعطر فى منزلها السعيد.

ولكن مالك بن النضر فارس القبيلة، وزين شبابها ظفر بها فى الجاهلية فولدت له أنس بن مالك- رضي الله عنه - نعم.

أنس بن مالك- الذى قال:

«خدمت النبى- ﷺ - عشر سنين فما قال لى أف قط ولا لشىء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشىء تركته لم تركته، بل كان يقول: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..»».

فلما جاء الإسلام سمعت سهلة بدعوته فاتجهت إلى رسول الله ﷺ واستمعت إلى حديثه وإلى الوحى المتتابع الذى جاء به جبريل عليه السلام قال تعالى:

﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١).

فأسلمت على يدى الرسول - ﷺ.

ثم اتجهت إلى بيتها بقلب جديد وجلست تترقب وصول زوجها من مرعاه خارج المدينة.

وما كادت الشمس تميل إلى الغروب حتى شاهدت زوجها يهرول بالقدوم إلى بيته تسبقه إبله ومواشيه.

فعادت إلى داخل بيتها ولبست أجمل ثيابها وتطيبت له، وقدمت له طعامه وشرابه، وجلست بجواره تداعبه وتلاطفه، وتحدثه عن النور الجديد. من دعوة الإسلام التى جاء بها محمد الأمين- صلوات الله عليه.

وسألها زوجها إلى أى شىء يدعو هذا الدين الجديد؟

قالت: يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

قال: هل وعيت شيئاً من كلامه؟

قالت: إنه ينزل عليه وحىٌ من ربه يسمى قرآناً ومما سمعته أذناى ووعاه قلبى قول الله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا

(١) سورة النجم الآيات من ١- ٤.

أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١) .

ووصفت له لقاءها برسول الله- ﷺ - في ذلك اليوم ودعته أن يذهب إليه ليسلم على يديه.

ولكن مالكاً كان في شغل شاغل عنها وعن هذا الدين فلم يفتح قلبه للدعوة الجديدة، ولم يستجب لرجائها ودموعها.

إذن لن تكون له زوجاً،ولن يجمعهما بيت واحد فانفصلت عنه ولم يطق زوجها صبراً على فراقها فخرج إلى الشام ومات هناك.

ومن هذا التاريخ وهبت سهلة بنت ملحان نفسها للدعوة الجديدة وللنور المشرق، فأخذت تدعو إلى دين الله بلسانها وجنانها وسلاحها.

وسمع أبو طلحة الأنصاري بانفصالها عن مالك بن النضر فرغب في زواجها فتوجه إليها وكلمها في ذلك.

فقالت سهلة: يا أبا طلحة ما مثلك يرد،ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة لا تصلح لي زوجاً حتى تعلن إسلامك وتؤمن بالإله: الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.وأرسل رسوله- محمد بن عبد الله- بشيراً ونذيراً إلى الناس كافة..

وكأن الرجل لم يفهم ما تريده منه.

فقالت مستزيدة: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي ابن فلان..؟

قال: بلى.

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٥١- ١٥٢.

قالت: يا أبا طلحة أفلا تستحى أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها هذا الحبشى. وهى لا تنطق فتسمع منها الحكمة، ولا تعى فتسمع منك شكواك إن شكوت، أو تخفف عنك بلواك إن ابتليت، أو تكافئك على عبادتك إن عبدت.

ثم تابعت حديثها قائلة أن أسلمت لم أَرِدْ منك من المهر غيره.

قال لها أبو طلحة: إننى أعطيك من المهر ما تبغينه من الذهب والفضة.

قالت: فإنى لا أريد ذهباً ولا فضة. ولكنى أريد منك الإسلام.

قال أبو طلحة: حتى أنظر فى أمرى.

وكرت الأيام ومرت الليالى وأبو طلحة يقلب أمره ويستفتى قلبه. ثم عاد مرة أخرى يطرق باب سهلة قائلاً: من لى بالإسلام يا سهلة..؟

فدلته إلى رسول الله- ﷺ.

فانطلق أبو طلحة يريد النبى- ﷺ - فلما رآه رسول الله - وهو جالس بين أصحابه قال لهم:

«لقد جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه».

فأخبر الرسول - ﷺ - بما قالت سهلة- فأسلم على يديه ونطق بالشهادتين.

ثم عاد إلى عروسه وتزوجها على ما اشترطت من مهر.

قال ثابت- رضي الله عنه:

«فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهراً».

وعاشت سهلة بنت ملحان مع أبى طلحة كأسعد ما يكون زوجين ترفرف المودة والمحبة على بيتهما الجميل.

وولدت سهلة لأبى طلحة غلاماً فكملت سعادتها وأخذت أهازيج السعادة

وأغاريد المنى تجمل لهما الأحلام وتقرب لهما الآمال.

وفى يوم ليس كمثله يوم مرض هذا الغلام وأخذت سهلة تمرضه وتطببه ولكن بلغ الكتاب أجله ففارقت روحه جسده.

وتجملت سهلة بالصبر واعتصمت بالإيمان واحتسبت ابنها فى سبيل الله. ثم قالت لأهلها: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتى أحدثه أنا.

فلما جاء زوجها قربت له عشاءه وشرابه فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع له من قبل ذلك، ولبست له أجمل ثيابها، فلما شبع وروى وقع بها، حتى إذا تأكدت من شبعه وريه وقضاء حاجته منها.

قالت سهلة: يا أبا طلحة أرأيت لو أن أهل بيت أعاروا عاريتهم أهل بيت آخرين فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يحبسوا عاريتهم...؟

قال: لا.

قالت: فاحتسب ابنك.

فغضب أبو طلحة غضباً شديداً ثم قال: تركتينى حتى تلطخت بما تلطخت به، ثم تحديثنى بموت ابنى..؟

وانطلق الرجل إلى رسول الله- ﷺ - فقال: يا نبى الله ألم تر إلى سهلة بنت ملحان. صنعت كذا وكذا.

فقال رسول الله - ﷺ - بارك الله لكما فى غابر ليلتكما.

يقول راوى الحديث:

فلقد شاهدت لها عشرة رجال كلهم حمل السيف وقاتل فى سبيل الله.

وكان الرسول- ﷺ - يزورها فى بيتها كثيراً ويصلى عندها تطوعاً ويعلمها الدعاء والاستغفار.

ولم يكن الرسول- ﷺ - يدخل بيتاً من بيوت المدينة غير بيتها وبيوت

أزواجه- رضوان الله عليهم.

فقيل له فى ذلك. فقال:

«إنى أرحمها قتل أخوها معى».

وعندما قدمت للرسول- ﷺ - ابنها أنس ربت ﷺ على كتفه ومسح على رأسه وقال: «اللهم ارزقه مالاً وولدا وبارك له».

قال أنس- رضي الله عنه : فإنى لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً...

وليس هذا كل ما يحفظه التاريخ عن سهلة بنت ملحان أو أم سليم كما كانت تدعى. ولكنها كانت دائماً مع الرسول - ﷺ - فى سلمه وحربه. فى غزواته وتنقلاته.

ما تخلفت عن غزوة قط كما تقول عن نفسها.

وكانت مهمتها هى وأخواتها المؤمنات فى تلك الغزوات ليست سهلة دائماً. فهى تسقى الجرحى، وتحمل قرب الماء للمقاتلين، وتضمد الجروح، وتستعمل خنجرها المعكوف إن كان هناك ما يدعو لذلك.

يقول أنس بن مالك- رضي الله عنه :

لما كان يوم أحد والهول يحيط بالمسلمين من كل جانب رأيت عائشة أم المؤمنين وأم سليم، وأنهما مشمرتات أرى خزم سوقهما ينقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها فى أفواه القوم، وترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغان فى أفواه القوم.

وتمر الأيام وتكر الليالى ويتجه عشرة آلاف مقاتل إلى الكعبة بيت الله الحرام لتطهيرها من الشرك والكفر، وأصنام الجاهلية، وتم الفتح الأكبر، وتقف أم سليم تردد مع الإخوة المؤمنين خلف الرسول ﷺ وهم يطهرون الكعبة ويحطمون آخر معاقل الكفر والطغيان.

لا إله إلا الله.

صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله.

ويتجه الرسول- ﷺ - إلى غزوة حنين بجيش لا يبلغ مدده البصر، واغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم: «لن نهزم اليوم عن قلة».

وكان لابد من درس لهذه الفئة المؤمنة التى تجاهلت أن النصر لن يكون بالقلة ولا بالكثرة، ولكن النصر من عند الله، ففروا هاربين، وطارت قلوبهم شعاعاً.

فأين أنت يا أم سليم فى هذا الهول الكبير..؟

لقد خرجت مع الخارجين تبتغى أجر الجهاد مع النبى - ﷺ - وكان معها خنجرها وقد حزمته على وسطها- وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة المجاهد الثائر، ولما رآها أبو طلحة فقال لهاما هذا معك يا أم سليم..؟

قالت: خنجر أخذته معى.

وجاء أبو طلحة للرسول- ﷺ - وهو يضحك وقال يا رسول الله ألم تر أم سليم معها خنجر؟

فقال: أردت أن دنا أحد المشركين منى طعنته(1).

من هذا وصفها أبو نعيم بأنها الطاعنة بالخناجر فى الوقائع والحروب فأعظم بهذا الوصف للمجاهدة المؤمنة.

وهكذا حظيت الصحابية الجليلة- رضوان الله عليها- بشرف الجهاد ولعلمها بمكانة الجهاد وثوابه، سألت النبى - ﷺ - ذات مرة عندما برئت من مرض ألم بها فقالت:

«يا رسول الله ﷺ - ما أفضل الجهاد..؟

فقال عليه السلام: عليك بالصلاة فإنها أفضل الجهاد، واهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة. وظلت أم سليم- رضى الله عنها- تلتزم بما قاله الرسول ﷺ

(1) راجع كتاب صفة الصفوة ٢: ٦٦.

إلى أن لقيت ربها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾[١].

هذه هى الصحابية الجليلة أم سليم- رضي الله عنها- كانت من فضيلات النساء اللواتى تركن أثراً خالداً فى تاريخ الإسلام قال عنها الإمام النووى-رحمه الله- لقد كانت من فاضلات النساء[٢].

هذه الصحابية الجليلة: كانت زوجة صالحة وصابرة. وداعية إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ومربية فاضلة أدخلت ابنها أنساً فى مدرسة النبوة فكان من الصفوة المختارة حول خاتم الرسل والأنبياء. ونال أعلى الدرجات عند خالق الأرض والسموات.

وكانت مع ذلك حافظة واعية لأحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم - فقد روت عن النبى- صلى الله عليه وسلم - أربعة عشر حديثاً[٣].

وممن روى عنها ابنها أنس بن مالك- رضي الله عنه وأرضاه وعبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- وهو فقيه الأمة- بدعوة الرسول- صلى الله عليه وسلم - الذى قال داعياً له:[٤] «اللهم ففقه فى الدين وعلمه التأويل»[٥].

---

(١) سورة الكهف الآيتان ١٠٧- ١٠٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢: ٣٦٣.

(٣) راجع سير أعلام النبلاء ٢: ٣١١.

(٤) راجع الإصابة فى معرفة الصحابة ٤: ٤٤٢.

(٥) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هنا.

بشارة النبى لها بالجنة..

نعم لقد بشرها الرسول- ﷺ - بجنة الفردوس عند مليك مقتدر وزفها إليها ابنها أنس- رضي الله عنه .

قال أنس:

قال رسول الله ﷺ:

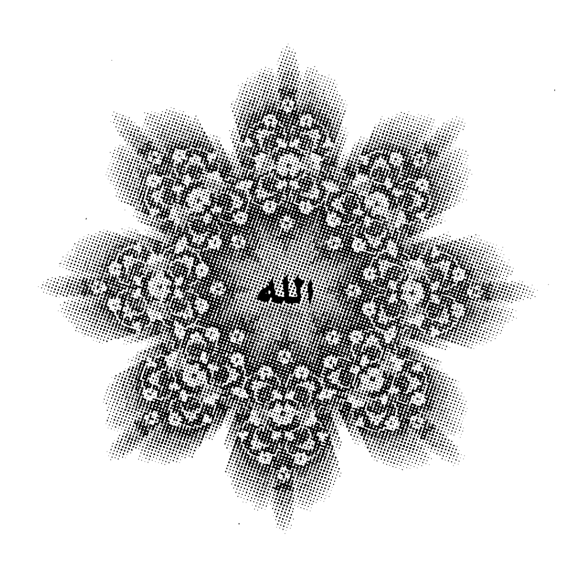
دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدى. فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان[1].

ثم ماذا؟ رضى الله عنها وأرضاها اوحقق لها ربها ما ذكره فى كتابه بقوله:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2].

(١) رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبى- ﷺ - والنسائى.

(٢) سورة القمر الآيتان ٥٤- ٥٥.


الله


تذييل
وقفة مع حفيدات
الأنصار بالمدينة

وقفة مع حفيدات الأنصار بالمدينة

عبر رحلة مقدارها ألف ميل قطعتها السيارة بنا إلى مسجد الرسول ﷺ اتجه فكرنا إلى رحلة أخرى متأنية عبر التاريخ حيث هجرة الرسول ﷺ متخيلاً المواقف الجياشة، والبذل السخى الذى قام به الأنصار، وأبناؤهم، ونساؤهم إزاء إخوانهم المهاجرين.

وتمادى الحنين الطاغى لدينا، واللهفة الصادقة لرؤية الأرض الطيبة فجسم أمامنا صور الاستقبال الحار، والحفاوة البالغة، التى قام بها هؤلاء الرجال للرسول وصحبه، حتى كأن هذه الصور حاضرة شاهدة أمام أعيننا، إن ما فعله الأنصار يكاد يكون فريداً ليس له نظير فى دنيا الناس، لقد تسابقوا إلى إيواء المهاجرين، والترحيب بهم، حتى ليذكر التاريخ أنه لم ينزل مهاجر فى بيت من بيوت الأنصار إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه من الأنصار أكثر بكثير من عدد المهاجرين الفارين بدينهم.

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الصادقة، والعاطفة النبيلة، والإيثار الكبير بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(1).

ولم يكتف الأنصار بما قدموه من بذل وإيثار، ولكنهم كانوا دائماً فى الصفوف الأولى فى المعارك التى خاضها الإسلام يشدون أزر إخوانهم، ويدفعون عن نبيهم ويحملون مبادئ الدين، وتعاليم الإسلام إلى

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

الأصقاع البعيدة، والبلاد النائية حتى قال الرسول ﷺ بعد إحدى المعارك مخاطباً الأنصار:

«فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكانت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

نساء الأنصار رضى الله عنهن

ولم تكن نساء الأنصار أقل من الرجال سواء فى استقبال هؤلاء المهاجرين أو التزامهن بأوامر الدين، وطاعتهم لكل ما جاء به القرآن الكريم أو أمر به الرسول ﷺ وكتب السنن والتاريخ خير شاهد على ذلك.

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة أم المؤمنين- رضى الله عنها- قالت:

فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة:

إن لنساء قريش لفضلاً وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله وإيماناً بالتنزيل، لما نزلت فى سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(١)

انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن فيها، يتلو الرجل على امرأته وبنته وأخته، وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان.

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

الاستجابة الفورية

لقد تلقت نساء الأنصار هذا الأمر وقلوبهن مشرقة بنور الله سبحانه وتعالى، لم يتلكأن فى الطاعة، ولم يخالفن أمر ربهن، بل سارعن كما يسارع الجندى فى سكنته أو فى ميدانه لتنفيذ أمر القائد.

ليست الاستجابة الفورية لأمر الله فحسب، ولكن نساء الأنصار كن حريصات على التفقه فى دينهن، ومعرفة أوامر ربهن، أوامره فى الصغيرة والكبيرة، وفى كل شأن من شئون الحياة.

حسن السؤال

ولقد ذهبت أسماء بنت السكن الأنصارية إلى مجلس الرسول ﷺ وقالت:

«يا رسول الله إنى رسول من ورائى من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى: إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجمعات، وشهود الجنائز، والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم أفنشاركهم فى الأجر؟

فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال:

«هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟».

قالوا: نعم والله يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النساء إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته يعدل ما ذكرت للرجال.

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ

نساء مجاهدات

وعندما كان يدعو داعى الجهاد كن يتسابقن إليه لتضميد الجرحى، وإرواء العطشى، وتحريض الرجال، والاشتراك فى القتال إن لزم الأمر، كما فعلت أم عمارة المجاهدة الصابرة، والتى جلست بعد معركة أحد تروى لمن لم يحضرن المعركة من نساء الأنصار ما حدث فيها فقالت:

«انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إلىَّ».

تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع:

فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئه أقمأه الله. ولما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول:

دلونى على محمد لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأنا ممن ثبتوا مع الرسول ﷺ فضربنى هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان، مرحى يا أم عمارة، هنيئاً لك جنة الخلد، وشهادة رسول الله ﷺ لك بقوله:

«ومن تطيق ما تطيقين يا أم عمارة».

نساء عابدات

وأخرجنا من تأملاتنا هذه وصولنا إلى مدينة الرسول عندما لاحت أمام أعيننا مآذنه العملاقة وكأنها طريق معبد ينقل المصلين من ترابية الأرض إلى شفافية السماء.

ولقد رأينا حفيدات الأنصار فى مدينة الرسول حفيدات عبادة بن الصامت وسعد بن الربيع، وأُسَيْد بن حُضَيْر، وغيرهن، حفيدان خنساء بنت خذام التى أنزل الله بشأنها تشريعاً وحكماً، وحفيدات حميدة الأنصارية التى تحب الرسول ﷺ وتحب الصلاة معه والذى بهر عقولنا وأعادنا إلى مجد الإسلام وعزه رؤيتنا هؤلاء الحفيدات وهن يتسابقن إلى الصلاة، ويسرعن الخطا إلى مسجد الرسول ﷺ ليس هذا التسابق فى صلاة المغرب أو العشاء فقط، أو صلاة الظهر والعصر، فحسب، ولكن أكثر ما يكون ذلك فى صلاة الفجر، حيث الإغفاءة الطويلة والنوم العميق ووعورة الطريق وغبش الظلام.

ولقد رأينا أعداداً كثيرة، وألوفاً مؤلفة حتى يخيل إليك أنه لم تبق فى بيوت المدينة امرأة لم تسع إلى الصلاة، ولم تلب داعى الله.

والسؤال الذى نطرحه ونوجهه إلى بناتنا وأخواتنا فى العقيدة:

لماذا تحاولن تغيير زيكن الإسلامى..؟؟ وتقلدن قوماً لا يخافون الله ولا يخشون عقابه..؟؟ وكان لما أخذن أنفسهن به من تبرج وعرى أسوأ الأثر على سلوكهن وأخلاقهن وتفتيت أسرهن.. ؟؟ وإذا كانت هذه الظاهرة، ظاهرة تقليد الغرب فى زيه ومظهره، قد انتشرت بين بعض النساء فى بلادنا الإسلامية فإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يحمى لنا هذا البلد الطيب الآمن من هذا الوباء.

ومما يلفت النظر ويدعو إلى الإعجاب أن كثيراً من النساء فى بعض بلدان العالم على الرغم مما حل بها من كوارث، وما نزل بساحتها من دمار

وتخريب ولازالت تحتفظ بمظهرها الإسلامى وزيها.

فما بال بعض النسوة فى البلاد العربية يرين فى تقليد المرأة الغربية المعاصرة صورة من صور التقدم التى تتطلبها وتسعى إليها..؟؟

مجتمع إسلامى متكامل

إن الستر وحجب مفاتن المرأة أمر من الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(١).

وإذا قال الله سبحانه وتعالى فلا مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد.

تم الكتاب بعون الله

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

فهرس المحتويات